

محمود سلبى

حَيَاة

الملك الظاهر بيبرس

الأسد الضاري!
قاهر التتار ومدمر الصليبيين!

دار الجيد
بيروت - لبنان

محمود سبلي

حياة

الملك الظاهر بيبرس

الأسد الضاري!
قاهر الثنار ومد مر الصليبيين!

دار الجيد

بيروت

جَنِينَاةَ
الْمَلِكِ الظَّاهِرِ قَيْسِ بْنِ سُلَيْمٍ

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

الاهداء

اللهم ... منك ... وإليك

محمود شلبي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

احمدك اللهم حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ...
وأصلي ... وأسلم على سيد النبيين ... عدد الخلق أجمعين ...
وبعد ...
بعد توفيق الله ... في اصدار « حياة الملك المظفر قُطْز » ... اصبح
لزماً اصدار « حياة الملك الظاهر بيبرس » ... ان شاء الله ...
ذلك أن كلاً منها كان بطلاً أسطورياً في معركة تاريخية فاصلة ...
هي معركة « عين جالوت » ...
كان السلطان قُطْز فيها هو القائد الأعلى للجيش ...
وكان الأمير بيبرس ... هو القائد العام للقوات المسلحة ...
فلما كان الالتحام مع التتار ...
ألقى السلطان بجودته ... واندفع بنفسه يباشر القتال !!!
وألقى بيبرس بنفسه الى المعركة في اندفاع يشيب من هولته
الولدان !!!
لا يذكر السلطان أنه سلطان !!!
ولا يذكر القائد العام أنه قائد عام !!!
وإنما يذكر ان شيئاً واحداً ... أن الله أمرهما أن يقاتلا هذا العدو
دفاعاً عن الاسلام ... واعلاءً لدين الله !!!

وكان النصر... وأخزى الله قوماً لم يقهرهم جيش من قبل!!!
هذان البطلان... قُطُز... وبيبرس...
كل منها يكمل الآخر...
قُطُز مقدمة بيبرس!!!
وبيبرس نتيجة قُطُز!!!
فكان لزاماً... أن تصدر «حياة بيبرس»... بعد صدور «حياة
قُطُز»!!!
١٤١١ هـ
١٩٩١ م

عمود شلي

أصل...

الممالك^(١)...؟!

(١) مختصراً من «عصر سلاطين الممالك» تأليف محمود رزق سليم.

مصر في عهد المماليك

٦٤٨ هـ - ٩٢٣ هـ . (١٢٥٠ م - ١٥١٧ م)

نقصد بهذا العصر، الفترة التي حكم فيها سلاطين المماليك في مصر، منذ انقضاء عهد الأيوبيين عام ٦٤٨ هـ إلى أن فتحها الأتراك العثمانيون عام ٩٢٣ هـ .

أصل المماليك

كان الرق منتشرًا في العصور الوسطى، وكانت تجلب الغلمان المرد والفتيان الحسان من بلادهم البعيدة إلى أسواق الرقيق، حيث توجد الرغبة في اقتنائهم، وحيث يتنافس في ذلك المتنافسون للخدمة أو اللهو. وكان هناك تجار أخصاء، هم النحاسون، يعرضون هذه الأجسام البشرية بضاعة في الأسواق العامة وغير العامة، ويصفون محاسنها للناظرين .

أما طريقة جلبهم لهذه البضاعة فالسرقة والخطف، يسرقون الغلمان، ويختطفون العذارى من أهلهم، ثم يستحلون بيعهم للناس ويستحل الناس شراءهم. وقد ينتشر قحط أو غلاء، أو يعم وباء، فتهون حينذاك فلذ الأكباد على أهلها. فيفرون فيها بالبيع، تخفيفًا للبلوى، وحفظًا للرمق، بما يدفعه

لم الشاري الكرم، وما كان يساعد على رواج تجارة الرقيق الفارات الهربية التي يشنها غاز فاتح قاس غليظ القلب، على أهل بلد وادهين آمنين، فيفرق شملهم ويبدد جمعهم وييم الولدان، ويسبي الجوارى الحسان. فينشط النحاسون حينذاك، ويغالون في شراء هؤلاء. ولم لا يغالون؟ وفي انتظارهم خلفاء وملوك وأمراء ووزراء وعظماء، على أهبة لقاتهم بصرر الدنانير الذهبية والأعطيات الثمينة أجزا لبضاعتهم الجيدة. فقد كان منهم من يدفع الألف والألفين بل والآلاف، ثمنا لجارية جميلة أو غلام وسيم. وما ساعد على رواج هذه التجارة أيضا ما يتوقع من الحظ الحسن للأرقاء في مستقبل حياتهم. فقد تدفع بهم الأقدار إلى أن يصلوا إلى ما يصل إليه أحرار الرجال وعقيلات النساء، من عز ورفاهية ومجد وطيب أحدوثه.

لهذا انتشر الرق في العصور الوسطى. وكان الأرقاء فيها أحيانا ضربا من المنح والهدايا، يتبادلها العظماء والمترفون. وتذوق الناس وجود الرقيق بلا غرابة ولا استكراه، وكثر التسري، وتعددت جيوش الجوارى في القصور، وامتلاءت أروقتها بالغلان، وأصبحوا أحيانا أولى قوة وأولي بأس شديد.

ولم يبل بالرق شعب دون آخر، أو جنس دون غيره. فقد كان من الأرقاء: التركي والجرکسي والرومي والزنجي والحبشي والفارسي وغيرهم. وأروج ما كانت تجارتهم في الأجناس التركية والجرکسية، لما تتصف به من جمال وطيب مجلس، ولما ابتليت به بلادهم من غارات وحروب طاحنة.

واستكثر منهم خلفاء بني العباس والفاطميون والأيوبيون وغيرهم. ولقد كان لمصر نصيب من هؤلاء كبير.

وقد ذكر بعض مؤرخي عصرنا الحاضر، أن أول من استخدم الممالك الأتراك في مصر، وجلبهم إليها، واستعان بهم على تثبيت سلطانه، خلفاء الفاطميين، تشبها منهم ببني العباس ببغداد، ثم اقتفى أثرهم في ذلك ملوك الدولة الأيوبية.

ولكن الحق أن أول من استخدمهم وجلبهم إلى مصر، وجعلهم عمدة جيشه هو «أحمد بن طولون». وهو أول الولاة الذين استقلوا بمصر بعد الفتح العربي... فقد قال القلقشندي في صبح الأعشى بالجزء الثالث عند الكلام عمّن ولي مصر ملكاً قبل دولة الفاطميين ما يلي: «وأولهم أحمد بن طولون... وفي أيامه عظمت نيابة مصر، وشمخت إلى الملك، وهو أول من جلب المماليك الأتراك إلى الديار المصرية، واستخدمهم في عسكرها».

وقال ابن إياس في الجزء الأول من تاريخه عند ذكر دولة الأمير أحمد بن طولون ما يلي: وقال ابن وصيف شاه: فلما تم أمر الأمير أحمد بن طولون في ولايته على مصر، واستقامت أحواله بها، استكثر من مشتري المماليك الديلمة، حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك».

فأنت ترى أن ما اشتراه ابن طولون من هؤلاء المماليك - على فرض المبالغة في عددهم - كان خير نواة لوجود المماليك في مصر. وقد اتبع هذه السنة ملوك الفاطميين وخلطوا في جندهم بين أجناس مختلفة. ولما آل الملك إلى صلاح الدين الأيوبي اتخذ جنوده من الأكراد ومجلوبي المرتزقة، وحذا خلفاؤه حذوه.

ثم جاء الملك الصالح نجم الدين بن أيوب في سنة ٦٣٦ هـ، فرأى أن يثبت ملكه بجنود جدد، فاستكثر من مشتري المماليك الأتراك، ونشأهم تنشئة عسكرية. غير أنهم كانوا كثيري العبث والشر، يجوسون خلال الأسواق، وينهبون البضائع من التجار، حتى علا الضجيج بسببهم. فبنى لهم سيدهم قلعة خاصة بجزيرة الروضة ليقيموا بها ولا يبرحون. وسأهم البحرية واتخذ منهم أمراء دولته وخاصته وبطانته وحراسه. وكانوا أقل من ألف مملوك.

وقد كان هؤلاء البحرية عضداً قوياً للملك الصالح حرسوا ملكه و زادوا عنه، وثبتوا دعائمه؛ وأبلوا بلاء عظيماً في موقعة «المنصورة» التي هزموا فيها

الفرنجية. وعلى يد هؤلاء البحرية انتقل الملك من بني أيوب إلى أمراء المماليك، فملكوا مصر وأصبح منهم سلاطينها وكونوا فيها طبقة حاكمة جديدة ودولة من طراز جديدة هي « دولة المماليك ».

وإذا ما أطلقنا هنا لفظ « المماليك » أو « دولة المماليك » فإنما نقصد الدولة التي كونها هؤلاء دون من تقدمهم في عصر الأيوبيين أو الفاطميين، أو تأخر عنهم في العصر العثماني.

وقد تتابع سلاطينهم على عرش مصر زهاء ثلاثة قرون. وقد جدّ السلاطين والأمراء في مشتري المماليك الجدد باستمرار. فكان من هؤلاء الجدد المدد التقليدي لهذه الطبقة الحاكمة. وقد ساعدتهم على مشتراهم تعدد هجمات التتار إذ ذاك على أواسط آسيا الخوارزمشاهية وبلاد التركمان وشرق آسيا الصغرى، وغير ذلك من نواحي آسيا. فكثرت سبي الصغار وفرار الكبار أمام هذا الخطر الداهم: وأقبل سلاطين مصر وأمراؤها على شراء هؤلاء المماليك، وغالى بعضهم في ذلك، ورفع أثمانهم حتى كانت الآباء تعطي أبناءها للنخاسين القادمين إلى مصر وتوصيهم ببيعهم فيها، لما كان يدفع فيهم من ثمن كبير، ولما كان ينتظرهم من مجد خطير.

ولو أنك رجعت إلى سيرة كثيرين من سلاطين دولة المماليك، وأمرائها، لوجدتهم من هذه المماليك المشتراة. وإليك أخباراً عن بعضهم، نقلًا عن ابن إياس:

الملك الظاهر بيبرس: أصله تركي الجنس، أخذ من بلاده وهو صغير، فبيع لشخص يسمى العماد الضائع، ثم اشتراه منه الأمير علاء الدين البندقداري، ثم آل ملكه إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي. ثم أعتقه وجعله من جملة المماليك البحرية. ثم دفعت به الأقدار فصار أتابك العسكر في دولة المظفر قُطُز. فلما قُتِل قُطُز صار بيبرس سلطانًا.

والملك المؤيد شيخ الحمودي: أصله من مماليك الظاهر برقوق، اشتراه من

الخوارجا محمود شاه، وأعتقه وأخرج له خيلاً، ثم أخذ برقى فصار أميراً ونائباً، وعاونته الأيام حتى أصبح سلطاناً على مصر، بعد خلع الخليفة المستعين بالله العباسي.

والملك الأشرف قايتباي: أصله من الجركس، جلبه إلى مصر الخوارجا محمود، فاشتراه الملك الأشرف برسباي هو وعدة مماليك صفار، كل مملوك بخمسين ديناراً، ثم أعتقه وترقى في سلك الإمارة، حتى بلغ الأتابكية فالسلطنة بعد خلع تمريفا.

وعلى مثال مما تقدم تجد الأمراء. حقاً قد ولي سلطنة مصر في ذلك العصر أحياناً ملوك لم يكونوا من قبل أرقاء مثل: الناصر محمد بن قلاوون، والناصر محمد بن قايتباي، والمنصور عثمان بن جقمق. وهؤلاء وهؤلاء أبناء ملوك، حكم آباؤهم من قبل، فورثوا عنهم الملك؛ ولكن بعد أن جرى الرق على آباؤهم، وربما جرى على أمهاتهم أيضاً.

ويروى عن شيخ الإسلام «عز الدين بن عبد السلام» أنه صمم يوماً على بيع عدد من أمراء الدولة الأتراك، لأنه لم يثبت لديه أنهم أحرار. وكان هو إذ ذاك قاضي القضاة. فاعتقد أنهم من جملة مال المسلمين، وأنهم ملك لبيت المال. فعجب الأمراء! وكان بينهم نائب السلطنة... فأرسلوا إلى الشيخ يطلبون عدوله عن ذلك، ولطفوه ولاينوه، فلم يزد إلا إصراراً على رأيه، ولبث لا يميز لهم بيعاً ولا شراء ولا نكاحاً ولا أي نوع من أنواع المعاملة، حتى لحقهم من ذلك أذى كثير، مع أنهم سادة الناس وحكام الأرض. فغضبوا وهم أحدهم بضرب هامة الشيخ بالسيف تأديباً له، فبيست يده. فأسقط في يده، وانتهى الأمر بعرضهم للبيع، وغالى الشيخ في بيعهم وضم ثمنهم إلى بيت المال، لينفقه في شئون المسلمين.

هذا. ونظراً إلى أن هؤلاء المماليك، وفيهم السلاطين والأمراء، أرقاء، والأرقاء لا ينسبون عادة إلى آباؤهم، تجد أغليبيتهم العظمى قد نسبت إلى غير

الآباء والأجداد جرياً على العادة المذكورة. وينسب أحدهم إلى من اشتراه من السلاطين والأمراء فيقال مثلاً: شيخو الناصري نسبة إلى الناصر حسن حفيد قلاوون، لأن شيخو من مشنرياته ومعتوقيه. أو ينسب إلى من باعه من التجار فيقال مثلاً: « رقوق العثماني، نسبة إلى الخوجا عثمان بائع الرقيق الذي جلبه إلى مصر. أو ينسب إلى مبلغ المال الذي اشترى به. فيقال مثلاً: « قلاوون الألفي » لأن الأمير علاء الدين آق سنقر اشتراه بألف دينار.

هذه طريقة نسبتهم. ومن الحق أن نقول إن النسب إلى الشاري أكثر من النسب إلى غيره، وأن المملوك قد ينسب إلى أكثر من واحد، ممن تداولوا ملكه. وقد ينسب إلى البائع والشاري معاً، وهكذا.

ويظن المرء لأول وهلة أن مماليك مصر هؤلاء، كلهم من الجنس التركي أو الجركسي، والواقع أن فيهم من أجناس أخرى عدداً، فمنهم التركي كالظاهر بيبرس، والجركسي كالأشرف قايتباي، والتتري كالعادل كتبغا والقبجاقى كالمنصور قلاوون والهندي كالأمير جوهر التركماني اليشبكي، والرومي كالظاهر تمرغا. ولكن الجنس التركي والجركسي كانا غالبين. وكانت للجنس التركي السيادة في الدولة الأولى « الدولة البحريةية »، وللجنس الجركسي السيادة في الدولة الثانية « الدولة البرجية أو الجركسية ». وكان من الأجناس الأخرى جماعات من الأويراتية، وهم طائفة من المغول، استقدمها إلى مصر العادل كتبغا المنصوري، وهياً لهم مساكن مناسبة، وقد كانت مساكنهم الأولى على مقربة من جبال الأكراد. وكان منها أيضاً طوائف من التركمان واللاظ والكرد والقرانصة والأرمن والخطا. وكثرت أنواعهم وتعددت في الجزء الأخير من الدولة الجركسية.

ويلاحظ أن المملوك كان يشتري صغيراً، ثم يربي غير أنه في أخريات الدولة الجركسية جلبت المماليك كباراً. ومنهم من كان عاملاً أو صانعاً محترفاً قبل جلبه. فكان ذلك من جملة أسباب فسادهم...

انتقال الحُكْم ...
من الأيوبيين ...
إلى المماليك^(١) ...!؟

(١) مختصراً من نفس المرجع السابق.

أخذ عدد المماليك يتكاثر في مصر زمن الأيوبيين وأخذ نفوذهم يزداد ويعظم. وكلما أصاب الضعف ملوك الأيوبيين، ونهكهم الدرف والانغماس في الملذات، ودب بين أمرائهم الشقاق، وقادتهم الأطماع غير المشروعة، أناح ذلك للمماليكهم أن يكونوا ذوي شأن وسلطان، لأنهم اليد العاملة، والقوة الفعالة في ملاقاتة هذا الضعف، وفي فض هذا النزاع. فأكسبهم ذلك بأسًا على بأس، وسلطانًا فوق سلطان.

وقد قوي بأسهم في عهد الملك الصالح نجم الدين الأيوبي. فإنه بعد أن استعان بفريق منهم على نزع الملك من أخيه العادل سيف الدين عام ٦٣٦ هـ، اشترى عددًا كبيرًا من المماليك ومرنهم تمرينًا عسكريًا، واتخذ منهم حراسًا وجندًا. ولكن كان فيهم شر، وضج الناس من شرهم فبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة بالقرب من المقياس، وأسكنهم بها وسماهم «البحرية» وأنشأ حول تلك القلعة مستودعات حربية مملوءة بالسلاح والذخيرة. وأمرهم ألا يخالطوا الناس بالمدينة، وأجرى عليهم الرواتب والطعام والشراب والكسب. وكانوا دائمًا على قدم الاستعداد لتلقي أوامره للخروج إلى القتال. وأخذ نجمهم في الصعود، منذ أن هيئت لهم الفرصة، لقتال الفرنجة والتغلب عليهم، وأسر ملكهم لويس التاسع ملك فرنسا عام ٦٤٧ هـ في موقعة فارسكور والمنصورة، وكان ملكهم الصالح قد أهاب بهم ودعاهم إلى القتال.

وكانت الأخبار قد تواردت بأن « روا دي فرانس » أي ملك فرنسا، أتى في جموع من الفرنجة زاخرة، وفي ألوف من المقاتلين، تحملهم السفن إلى « دمياط » حيث ظلوا يحاصرونها زمناً. ثم ضيقوا عليها الخناق، وخاف أهلها من القتل والسبي، فهجروا مدينتهم فارين تحت جناح الليل، فدخلها الفرنجة في الصباح. ومن ثم شرعوا يزحفون على بقية البلاد متجهين نحو مدينة المنصورة، مقيمين في طريقهم الاستحكامات. وكان الملك الصالح قد أهاب بماليكه البواسل فأحاطوا به وحلوه في محفة لمرضه، وساروا به نحو مدينة المنصورة، ونودي أن يجتمع إليهم عربان الجهات، ليتعاون الجميع على دفع العدو عن البلاد.

هنا فتك الملك الصالح بنائب دمياط، وطائفة أخرى من أمراء المماليك، كانوا معه في إخلاء المدينة، وفراره منها، وتركها غنيمة باردة في يد الفرنجة، فأنف ممالك السلطان من غدره، وحاولوا الفتك به جزاء لما قدمت يداه. ولكنهم تريشوا حتى يوقعوا بالفرنجة، وبعد ذلك يحاسبونه عما فعل. ولكن الموت سبقهم إليه، وكفاه شرمهم... فكتم موته حتى لا تكون إذاعته سبباً في تخاذل جنده، وتقوية الروح المعنوية عند الفرنجة، فتكون العاقبة وخيمة. وحملت جثة الملك في زورق، وسير به تحت ستر الليل إلى القاهرة، ودفن بالقلعة مؤقتاً. وأرسلوا إلى ابنه « المعظم توران شاه » - وكان مقيماً في حصن « كيفا » ببلاد الشام - وقام أمراء المماليك بتدبير الأمور حتى يعود. وكان على الأمراء: حسام الدين لاجين، وفارس الدين أقطاي، وعز الدين أيبك، وبيبرس البندقداري. وأقاموا عليهم زوجة الملك الراحل - وهي « شجرة الدر » أم خليل - زعيمة، يأترون بأمرها، ويصدرون عن رأيها. فكان ذلك منهم أول خطوة في سبيل التآمر على ملك الأيوبيين، وقلب نظام الحكم فيه، وكان فيه تثبيت لنفوذهم وإعلان مبدئي بأطماعهم.

عاد « توران شاه » بعد نحو ثلاثة شهور من دعوته لتسلم مقاليد الحكم.

فدخل القاهرة، وأذيع موت أبيه الصالح، ونودي له بالسلطنة ونلقب بالمعظم. ثم اجتمع الماليك تحت إمرته صفا، وتحفزوا للقاء عدوهم بحماسة للجهاد وحب للاستشهاد. وكانت الأخبار قد توالى بزحف الفرنجة نحو «فارسكور». فخفف إليهم جيش الماليك سائراً إلى شمال «المنصورة»، يعاضده جمع عظيم من فلاحي البلاد ومعهم المقاليع والحجارة. وعاونهم أمداد من الشمال، ضغطت على العدو فأصبح بين قوتين. وكانوا قد أرسلوا هذه الأمداد من قبل، ومعها سفائن محمولة على جمال لينزلوها في البحر تجاه دمياط، ومن ثم تسير في النيل نحو الجنوب. ثم هجم رجال القونين هجمة صادقة على العدو فأبادوا جمعه، وشتتوا شمله، وأسروا منه عدداً كبيراً، ومنهم لويس التاسع نفسه فسجنوه في دار القاضي فخر الدين بن لقمان بالمنصورة، ووكلوا حراسته إلى الطواشي صبيح. فظل في سجنه حتى افتدى نفسه بالمال. وقتل في هذه المعركة من الفرنجة نحو ثلاثين ألفاً، عدا من أخذ أسيراً، وعدا الغنائم والأسلاب.

وبهذه المناسبة نذكر ما روي عن لويس هذا من أنه بدا له أن يعود إلى غزو مصر في عهد سلطنة المنصور بن عز الدين بن أيبك، فبعث إليه المنصور رقعة يهدده فيها وفيها أبيات ساخرة للشاعر ابن مطروح. وهي:

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال صدق من قئول فصيح
آجرك الله على ما مضى	من قتل عباد يسوع المسيح
قد جئت مصر تبتغي أخذها	تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
رحت وأصحابك أودعتهم	بقبح أفعالك بطن الضريح
خسون ألفاً لا يرى منهم	إلا قتيل أو أسير جريح
فردك الله إلى مثلها	لعل عيسى منكم يستريح
إن كان «باباكم» بذا راضياً	فرب غبن قد أتى من نصيح

وقل لهم إن أضمروا عودة لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على عهدهما والقيد بساق والطواشي صبيح
فرجع لويس عن عزمه .

وفي هذه الموقعة التي شرحناها، ظهر تضامن طبقات الشعب ظهوراً محدوداً .
وقد أسهبنا في شرحها، لأنها السبب المباشر لتوطيد سلطة المماليك وظهور
قوتهم، وبروز أطماعهم، وظلوا من بعدها يتلمسون الفرصة للوثوب العملي إلى
عرش البلاد .

وقد أتاحت لهم هذه الفرصة عندما أساء إليهم «نوران شاه» وإلى شجرة
الدر معاً. إذ كف عنهم الخير، وتوعدهم بالأذى، وفضل عليهم أخصاءه
الوافدين معه من الشام. وكان أولى له أن يتخذ من ممالك أبيه هؤلاء قوة
وسنداً، وعاوناً وعضداً، لتدبير ملكه وحفظ عرشه، وبخاصة بعدما ظهر منهم
من قوة ونشاط وشجاعة وإقدام، وبعد أن كانوا سبياً في انتصاره ودحر
عدوه. لذلك كان انصرافه عنهم وتهديده لهم طيشاً منه وحقاً، دفعهم إلى
الائتمار عليه. وما زالوا به يأترون حتى قتلوه أشنع قتلة وأشعبها. وملكوا
عليهم من بعده زوجة أبيه «شجرة الدر». وأطاعوها تبعاً لذلك ولما بدا
منها لهم من عدل وكياسة، ولما فرقته عليهم من وظائف وأعطيات. أو
بالأحرى، لإطاعتها لهم وائتمارها معهم، وانطوائها تحت كلمة أحد زعمائهم
وهو الأمير «عز الدين أيبك». فعينته «أتابك العساكر» أي قائد الجند،
وهي أرفع مرتبة في الجيش. فكان عز الدين المدبر لمملكته وصاحب الرأي
في دولتها، على الرغم مما يقال من إنه كان لا يتصرف في الأمور إلا بعد
مشورتها .

ضربت «شجرة الدر» الحجاب على نفسها، فكان لذلك أثره في ضعف
مشورتها، وصعوبة اتصالها بأمرائها، وحسن اطلاعها على مهام دولتها. زد على
ذلك أنها كانت أول امرأة مملكة في الإسلام، فكان تمليكها غريباً، حتى قيل

إن الخليفة العباسي - علي ضعفه - أرسل إلى المماليك ينمي عليهم أن يملكوا امرأة... كان ذلك كله حافزاً لهم على إعادة النظر في أمر الملك من جديد، وكثر بينهم الأخذ والرد. حتى رأت شجرة الدر بثاقب نظرها، وبعيد رأيها، أن تخلع نفسها من الملك، بعد أن مكثت فيه نحو ثمانين يوماً. ثم استشر الأمراء والقضاة لاختيار سلطان جديد، فتمت المشورة بسلطنة الأمير «عز الدين أيبك». ثم تزوج هذا الأمير من «شجرة الدر»، ليكون ذا صلة بالبت المالك القديم، مع أنها زوجة سيده.

كان ذلك في ربيع الآخر عام ٦٤٨ هـ. فركب «عز الدين» في حفل جامع زاخر، وبأبهة وجلال، وأجلس على سرير الملك. وقبل الأمراء الأرض بين يديه، ولقبوه «بالمملك المعز». فكان أول سلاطين المماليك بالديار المصرية، وعلى يده انتقل الملك من الأيوبيين إلى طائفة المماليك، فمن بعده نوالى سلاطينهم على عرش البلاد سلطاناً بعد سلطان.

دولتا ...

المهالڪ ...!؟

دولتا المماليك

٦٤٨ هـ - ٩٢٣ هـ

بدأ عصر سلاطين المماليك عام ٦٤٨ هـ على يد الملك المعز « عز الدين أيبك » وظلوا يحكمون البلاد المصرية حتى عام ٩٢٣ هـ أي نحو ٢٧٥ سنة، وانتهى عهدهم بالاحتلال العثماني. وانقسموا خلال هذه الحقبة دولتين هما: « الدولة البحرية » و« الدولة البرجية أو الجركسية » ولتكم عن كل منهما بإيجاز، فنقول:

الدولة البحرية ٦٤٨ هـ - ٨٧٤ هـ

مؤسسها « عز الدين أيبك ». وحكمت نحو مائة وثلاثين سنة بين سنتي ٦٤٨ هـ - ٧٨٤ هـ « ١٢٥٠ م - ١٣٨٢ م ». وكلمة « البحرية » أطلقت على طائفة من المماليك قبل تأسيس دولتهم. وهذه الطائفة هي التي أسكنها سيدها الملك الصالح « نجم الدين الأيوبي » بقلعة الروضة. فعرفوا بالبحرية. وصاحبهم هذا الاسم. وليس معنى ذلك أن كل سلاطين هذه الدولة أو مماليكها من المماليك الصالحية نفسها، بل منهم سلاطين ومماليك من غير

البحرية الصالحية. وذلك لأن هؤلاء تشتتوا من بعد، وأصبحوا في حالة مزرية يرثى لها، بعد قتل رئيسهم « فارس الدين أقطاي » في عهد السلطان الملك « المعز أيبك ». لأن هذا السلطان شعر بتآمر الصالحية عليه. فأخذ يقوي نفوذه، ويحصن عرشه، وجند لنفسه مماليك جددا سموا بالمعزية، ثم بطش بالبحرية فقتل زعيمهم « فارس الدين »، وشنت جمعهم فسار كثير منهم إلى الشام. ومع ذلك ظلت هذه التسمية: « البحرية » أيضاً لصيقة بماليك هذه الدولة فعرفوا بها. وسماهم بها المقريري في خططه. وسماهم غيره « دولة الأتراك ». وقد جمع الملك المنصور قلاوون، بعد ذلك شتات الصالحية وسماهم « البحرية » أيضاً، لأنه أحدهم. فبقي هذا الاسم فيهم وفي بقاياهم، وأطلق على إحدى طوائف أجناد الدولة.

وقد غزت الدولة البحرية جملة غزوات موفقة، وكبحت جاح التتار في عدة وقائع. فدفعت خطرهم عن مصر دفعا تاما، وكفكفت من عدوانهم على بلاد الشام. وكان ملوكها بمصر مستقلين، وملكوا باسمها - في أغلب أيامهم - بلاد الشام وجزيرة العرب، ووصل نفوذهم حيناً إلى شواطئ الفرات والجزيرة، وما وراء ذلك، كما وصل حيناً آخر إلى بلاد المغرب. والآن نورد ثبتاً موجزاً بأسماء ملوك هذه الدولة مع الإشارة إلى أهم الحوادث في أيامهم ذاكرين أنه تعاقب على العرش منهم أربعة وعشرون، من بينهم أربعة عشر ملكاً من أسرة قلاوون وحدها.

١ - الملك المعز « عز الدين أيبك »

٦٤٨ هـ - ٦٥٥ هـ

هو عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحى التركمانى. كان من مماليك الملك الصالح نجم الدين بن أيوب، فأعتقه، وما زال به حتى رقاها أميراً. ولما توفي

الملك الصالح اشترك عز الدين في تدبير أمور الدولة، مع بعض أمراء المهابدة، البحرية، ريشا يعود «توران شاه» ابن الملك الصالح وينولى عرشه. فلما عماد «توران شاه»، وانهزم الفرنجة، فسد ما بينه وبين أمراء أبيه، فأدى ذلك إلى قتله، وصار الملك إلى «شجرة الدر»، فدبرت ملكها بوساطة «عز الدين». ثم خلعت نفسها، واختير «عز الدين» سلطاناً على البلاد، وبروج «شجرة الدر» ليحظى بعلاقة بيت الملك. وكانت سلطنته في ربيع الآخر عام ٦٤٨ هـ.

بدأ الملك يصفو لعز الدين، وأخذ هو يضبط اموره. غير أن بلاد الشام اعتلت عليه، وكان قد ملكها الملك الناصر الأيوبي. وبدوا أن الأمراء نفسوا على «عز الدين» أن يصفو له وجه الملك. فانتهزوا الفرصة وأرغموه على إقامة أحد الأيوبيين معه في الملك، لكي يستطيعوا به لقاء الخارجن على ملك مصر. فتم لهم ما أرادوا، واستقدموا إلى البلاد شخصاً من الأيوبيين، اسمه «مظفر الدين يوسف» ابن «الملك مسعود الأيوبي» وسنه عشرون، أقامه ملكاً أيضاً، ولقبوه بالأشرف. فصار للبلاد ملكان هما: المعز والأشرف! فصبر المعز ريشا قوى عضده بماليك جدد سباهم المعزية، وأمر منهم عددًا. ثم انفرد بالملك، وسجن الأشرف، ثم نفاه بعد قليل. وكانت قد وقعت بينه وبين الناصر وقائع، انهزم فيها الناصر، ثم تم الصلح بين الاثنين عام ٦٥١ هـ على أن يكون للمصريين إلى الأردن، وللناصر ما وراء ذلك. وأن يكون للمصريين غزة والقدس ونابلس والساحل كله، وأن تطلق أسرى الشام، إلى غير ذلك. وقد أخذ المعز ثائرة عرب الصعيد والبحيرة وغيرها، وشنق زعيمه الشريف حصن الدين ثعلبا. ثم رأى أن خطر البحرية قد استشرى، وأنهم استطالوا عليه حتى هموا بقتله، وثقل عليه زعيمهم «فارس الدين أقطاي» - بالرغم من أنه عاونه في غزواته - فاحتال حتى قتله، وأدخل اليأس إلى قلوب أعوانه، فتفرقوا، ومنهم من رحل إلى الشام. وبذلك استراح المعز من المشاغبين عليه، ولم يعد إزاءه غير زوجته الملكة «شجرة الدر». فقد حاول أن

يتزوج سواها فوقع الخلف بينهما، وأساء في التصرف معها. قيل: وعزم على قتلها، فأحنقها وأثار غضبها. ولكنها نلظفت به حتى أمكنها الفرصة فيه، ودست إليه من خدمها من قتله وهو يستحم. وهكذا بدأ العصر بالمؤامرات والدسائس التي لازمتها. وكانت وفاة المعز في سنة ٦٥٥ هـ بعد أن حكم نحو سبع سنوات. وكان حازماً شجاعاً سفاكاً للدماء. وقد حُمِلت «شجرة الدر» بعد قتله إلى أم ولده علي فقتلها جواربها ودفنت بعد أيام.

٢ - المنصور « نور الدين بن المعز » ٦٥٥ هـ - ٦٥٧ هـ

هو نور الدين علي بن المعز أيبك. ولي الملك بعد قتل أبيه عام ٦٥٥ هـ، وكان صغير السن، فدبر له المملكة الأتابكي «قُطز». وفي عهده زاد خطر التتار، وخرّبوا بغداد، وأزالوا الخلافة العباسية منها، وهموا بالزحف على الشام ومصر. فشعر أمراء مصر بالخطر الداهم القريب، ورأوا أن يملكوا عليهم أحد كبارهم، ليعتمدوا عليه في صد العدوان. لذلك خلعوا المنصور بعد أن لبث في الحكم قرابة سنتين وثمانية أشهر وملكوا عليهم أنابكيه «قُطز» عام ٦٥٧ هـ.

٣ - المظفر « سيف الدين قُطز » ٦٥٧ هـ - ٦٥٨ هـ

أصله من مماليك المعز أيبك، وليس من البحرية. ولي الملك بعد المنصور بن المعز، وهو الذي خلعه وقبض عليه وعلى أخيه وأمه وسجنهم، وذلك عام ٦٥٧ هـ. وأعتذر إلى من خالفه ونازعه من الأمراء، بضرورة

التأهب لمحاربة التتار وصددهم عن الديار، ولا يكون ذلك على يد ملك صغير حدث. وأبدى استعداداه للتنازل عن العرش متى تم لهم هزيمة العدو، ثم ليقموا في الملك من يشاءون. وهكذا أخذ يترضاهم، ومن ثم استعد للقاء التتار. وبعد قليل دهم هولوكو التتري مدينة حلب وخربها وقتل أهلها وهدم قلعتها، ولوى جيده إلى دمشق - وكان عليها الملك الناصر - ففر الناصر، واستسلمت دمشق للفتاح. وبعث هولوكو خطابًا إلى قطز يطلب إليه الطاعة والتسليم. فما كان من قطز إلا أن قتل رسل هولوكو، ولم شعث أمرائه، وأعد العدة معهم للقتال، وخرج للقاء التتار بجيوشهم الجرارة الزاحفة. وهناك بفلسطين التقى بهم بموضعين أولهما «عين جالوت» وثانيهما «بيسان»، فدحرمهم شر دحرة، وشتت شملهم، واستولى على الكثير من أسلابهم. وكانت موقعة «عين جالوت» أول موقعة هزم فيها التتار منذ قدومهم من ديارهم. وكان لهذه الهزيمة أثرها المعنوي في نفوس المسلمين، إذ فهموا - على الأقل - أن التتار قوة يستطاع التغلب عليها. وبهذه النصرة وقى الله مصر شر التتار، وفتح أمامها بلاد الشام، فأصبحت تابعة لها إذ استولى قطز عليها من الفرات إلى حدود مصر.

عاد قطز من القتال مظفرًا، فدبر له الأمير بيبرس البندقداري مؤامرة لاغتياله. وكان بيبرس في مقدمة أمرائه الذين أبلوا معه بلاء حسنًا في حروبه. فتمت قتلته على يده ويد المؤتمرين معه، وذلك في أخريات عام ٦٥٨ هـ. ولم يكن قد أتم سنة في حكمه. وقفز إلى العرش بعده الأمير بيبرس.

٤ - الظاهر « ركن الدين بيبرس » ٦٥٨ هـ - ٦٧٦ هـ

هو ركن الدين بيبرس البندقداري. وقد لقب بالظاهر. ولي عام ٦٥٨ هـ. وهو أهم ملوك الدولة البحرية. وأصله من أرض القبحاق، أسر وبيع، واشتراه صغير السن رجل يدعى «العماد الضائع»، فباعه للأمير «علاء الدين أيدكين البندقداري». ثم انتقل ملكه إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي، فنسب لذلك إليها وقد أعتقه الصالح وضمه إلى مملكته البحرية ورباه معهم، فشب شجاعاً بأسلاً لا يهاب الموت. وقد عرفته الحروب - وهو أمير - مقداماً صنديداً. عرفته في موقعة «المنصورة» التي هزم فيها الفرنجة في عهد توران شاه، وموقعتي «عين جالوت» و«بيسان» اللتين هزم فيها التتار في عهد قطز.

اشترك بيبرس، قبل سلطنته، في عدة مؤامرات، منها مؤامراته مع المماليك البحرية زعامة «فارس الدين أقطاي»، ضد الملك المعز. فلما قتل «فارس الدين» وشتت شمل زملائه، فر «بيبرس» مع بعضهم إلى بلاد الشام، واتصل بملكها الناصر. ثم عاد إلى مصر في عهد قطز، وعين «أتابك العسكر»، فقاتل معه في الطليعة. ثم در مؤامرة اغتيال «قطز» بعد انتصارهم على التتار، إذ تقدم بيبرس إلى سلطانه ليقبل يده لأنه منحه جارية حسناء من سبايا التتار - كما قيل - وكانت هذه علامة بيبرس لأعوانه، فانقضوا على سلطانهم بالسيوف فقتلوه. وأقاموا بيبرس مكانه سلطاناً. وقيل إن «قطز» كان قد وعد بيبرس بولاية حلب، ثم أخلف، فكان ذلك سبباً للوحشة بينهما، وسبباً للائتمار بالقضاء عليه.

ويعتبر المؤرخون «بيبرس» المؤسس الحقيقي لعظمة الدولة البحرية، لما تم على يده وفي عهده من جليل الأعمال. فلقد اعتلت عليه بلاد الشام في أول عهده بالسلطنة إذ أعلن الأمير «سنجر الحلبي» بنفسه سلطاناً عليها، وتلقب بالملك المجاهد، وجمع من حوله عدة من الأمراء. وزاد الطين بلة معاودة

التتار الزحف على بلاد الشام، فنهبوا وقتلوا وسبوا. هذا إلى زيادة نفوذ الفرنجة في إماراتهم الشامية، وإلى قيام بماليك المعز بمؤامرة واسعة النطاق للقضاء على سلطنة بيبرس.

هذه أمور جبهت مصر، فلم يكثر لها، وقابلها ثابت الجأش قوي النفس صلب الإرادة ماضي العزيمة. ففتك بماليك المعز وقضى على مؤامرتهم. وجرّد جيشاً قويا الشكيمة على بلاد الشام فأخضع أمراءها، وأوقع بالتتار وردهم عنها داحرين. وأذل الفرنجة ونهه من نفوذهم. وهزم الأتراك السلاجقة، وفتح جملة من البلاد منها: البيرة، والكرك، وحصن، وبيسارية، وأرسوف، وصدف، ويافا، والشقيف، وأنطاكية، وحصن الأكراد، وعكا، وصافيتا، وبلاد سيس.

وقد غزا بيبرس بلاد السودان واحتاز منها جزءا، إلى جانب ما احتازه. فهابه الناس، ودان له الملوك والأمراء، وامتد في عهده ملك مصر، وانتشر سلطانها شرقاً وغرباً، وهيبت منزلها. وظل بيبرس سلطاناً عليها يملاً الدنيا مهابة، زهاء سبعة عشر عاماً ثم مرض وتوفي بدمشق ودفن بها عام ٦٧٦ هـ.

واهم ما يتصف به بيبرس: الشجاعة والإقدام على الحروب وحسن ترتيبها، مع الدهاء والكرم وحب الخير والإحسان إلى الفقراء. وكان يكرم العلماء وينطوي تحت مشورتهم، ويقربهم. وكان بعضهم يخاشنه في الحديث والنصيحة فلا يبطش به لمخاشنته، وكان يهاب سلطان العلماء في زمانه وهو «عز الدين بن عبد السلام». ووقعت بينه وبين عبد الله يحيى النووي أحد علماء الشام مكاتبات أغلظ له فيها النووي الصيحة، فما زاد على أن نفاه من دمشق. وبعث إليه ابن مالك النحوي صاحب الألفية المشهور رسالة من الشام يستعينه فيها على صلاح حاله، فأعانه.

ومن أجل أعماله: أن أمر بإبطال شرب الخمر ومقارفة الزنا، وأشبه ذلك من المفاسد. وشدد النكير على مقترفي هذه الآثام، حتى شدا بذكره

بعض شعراء عصره، وتفككه بذلك بعض منهم آخر كما أنه نظم البريد وخصص له الخيل، وبني كثيراً من العمار، ومن بينها مسجده الشهير. ووجدد المسجد النبوي الشريف، وشاد القناطر والأسوار، وحفر الترغ والخلجان، إلى غير ذلك من ضروب الإصلاح والإنشاء.

وقد انتاب البلاد في عهده قحط وغلاء، وكان به ميل إلى ظام الرعية والقسوة عليها بفرض الضرائب المرهقة، بدعوى الحاجة إلى المال للجهاد وإعداد الجند، مع امتلاء بيت المال بالمال. غير أنه لم يكن به ضنيناً على جنده. واتهمت طائفة من نصارى القاهرة بإحداث الحرائق في بعض أنحائها، فكاد يحرق أفرادها عقاباً لهم لولا شفاعة بعض أمرائه، فعفا عنهم بعد أن دفعوا له غرمًا ماليًا.

ومن أهم الحوادث في عهده، أولاً: أنه أقام خلافة عباسية ثانية مركزها مدينة القاهرة وذلك بعد أن زالت الخلافة العباسية الأولى من بغداد على يد التتار. فكان في هذا كسب أدبي لمصر، وتأهيل لزعامة العالم الإسلامي وجعل القاهرة مركزاً للعلوم الإسلامية. ثانياً: أنه أعاد خطبة الجمعة والدراسة إلى الجامع الأزهر وعمره هو وجامع الحاكم بعد أن هجرا زمنًا طويلًا. ثالثاً: نصب أربعة قضاة شرعيين، واحد من كل مذهب من المذاهب السنية الأربعة، بعد أن لم يكن بالبلاد إلا قاضي قضاة شافعي واحد يقضي بمذهب الإمام الشافعي. رابعاً: أمر بأن يطاف بالمحمل حين خروجه من مصر إلى الأراضي المقدسة. - وولي الملك بعده ابنه الملك السعيد.

اقول... نكتفي بهذا القدر من سلاطين دولة المماليك البحرية الأربعة وعشرين...

ثم ننتقل الى دولة المماليك الجركسية.

دولة...

المماليك...

الجر كسية...!؟

دولة المماليك الجركسية

٧٨٤ هـ - ٩٢٣ هـ

نلك هي الدولة الثانية من دولتي المماليك. وأصل ملوكها من الجنس الجركسي. ولعل هذا الاختلاف اليسير في الجنسية بينهما، هو السبب في أن يعتبرها المؤرخون دولة أخرى جديدة مغايرة للماضية. مع أن الحق في أنها لا يفترقان في مظهر جوهري، لأن ملوكها من معتوقي المماليك المشتراة أو من أبنائهم، ولأنها لم يتبعا في الحكم إلا نظامًا واحدًا في أصل حقيقته. على الرغم من أن النظام الوراثي للسلطنة كان أكثر مراعاة في الدولة البحرية. وعلى الرغم من أن الثورات والفتن والمؤامرات الداخلية قد نشطت في الدولة الجركسية، وعلى الرغم من فساد الجند، ومن اختلاط أجناسهم، وعدم العناية التامة بتربيتهم، في الدولة الثانية، بالنسبة لما كان من ذلك في الدولة الأولى.

أما ما عدا ذلك فهي فيه متشابهتان. فقد امتد نفوذ مصر المستقلة في عهدها، فملك بلاد الشام والحجاز في أكثر الأيام. وبسطت نفوذها أحيانًا على بلاد السودان والمغرب، وما وراء بلاد الشام نحو الشرق. وشغلت بمحاربة التتار والفرنجية والسلاجقة. ويتشابه ملوك هاتين الدولتين في حب الظهور بمظهر المحافظة على الدين والغيرة على الشريعة، فهابوا العلماء وقربوا

أهل الدين والصالحين. واندفعوا إلى وقف بعض ممتلكاتهم على وجوه البر، وبنوا المساجد والمدارس والمستشفيات والسبل. كما يتشابهون في النشأة العسكرية والصبر على الكفاح، كما أن نظام العمل وترتيب الدوواين وما إلى ذلك، كان يسر في الدولتين على وتيرة واحدة تقريبًا. ولهذا لا أفهم كبير معنى لجعلها دولتين لا واحدة، إلا ما ذكرنا من اختلافها في التركية والجركسية. وإلا ما راعاه البعض من أن «البحرية» كانوا يسكنون أول أمرهم قلعة الروضة، وأن الجركسية كانوا يسكنون قلعة الجبل. وأصلهم من رعايا مملكة خوارزم، أكثر المنصور قلاوون من شرائهم، حتى بلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف وسبعائة، وأسكنهم في أبراجها. ولذلك يسمون أيضًا «البرجية». غير أنه من الحق أيضًا أن بعض السلاطين البحرية، لم يكونوا من سكان قلعة الروضة، وأن بعض السلاطين الجركسية أو البرجية لم يكونوا من سكان أبراج قلعة الجبل. ومهما يكن من شيء فأول ملوك الجراكسة هو «برقوق» بن أنص العثماني، وعددهم جميعًا واحد وعشرون، عدا سلطنة أحد آل قلاوون، وأحد الخلفاء العباسيين كما سنبينه فيما يلي:

١ - الظاهر «برقوق العثماني» سيف الدين

٧٨٤ هـ - ٧٩٠ هـ

هو برقوق بن أنص الجرکسي، وينسب إلى الخوارج «عثمان» تاجر الرقيق الذي جلبه إلى مصر. وقد أسعده الحظ حتى وصل إلى الأتابكية في عهد الملك المنصور علي ابن الأشرف شعبان، فدبر له أمور الدولة، ثم دبرها لأخيه من بعده، ثم خلعه ووثب إلى سرير الملك في عام ٨٧٤ هـ. وعلى يده انقضت ملك آل قلاوون تقريبًا. وانتقلت الدولة إلى الجرکسية.

وقد كان السبب في سلطنته أن الملك آل إلى الصغار من آل قلاوون.
فسرحت الفتن في البلاد ومرحت. فرأى الخليفة والقضاة والأمراء، أن يولوا
في الملك رجلاً قويًا ينقد الرعبة من الفساد. واخناروا أن يكون الأناسكي
« برقوق » هو ذلك الرجل.

وكان أول ما قام به، أن أهدى الخلع الثمينة والمناصب الرفيعة إلى أبعائه
وخلصائه. وقبض على كثير من أعدائه، وأودعهم في السجن دون رحمة.
وكان فاتكًا قاسيًا فهابه الناس، وأبطل كثيرًا من العادات الذميمة.

☆ ☆ ☆

اقول... وكان آخر سلاطين دولة المماليك الجركسية وعددهم واحد
وعشرون... هو الملك الأشرف « أبو النصر طومان باي » ٩٢٢ هـ -
٩٢٣ هـ...

وفي عهده زحف العثمانيون على القاهرة وملكوها...
ولما قبض عليه... شق أشنع شنقة على باب زويلة... في المحرم
عام ٩٢٣ هـ.

وعموته انتهت دولة الجراكسة... وبدأ عهد الاحتلال العثماني!!!

بيبرس ...

بطل ...

معركة المنصورة...؟!!

كما اشتهر عن خالد بن الوليد ... قولهم عنه « أَمَرَ خَالِدٌ نَفْسَهُ » ...
يمكن أن يقال في ثقة و يقين عن الملك الظاهر بيبرس « أَمَرَ بَيْبَرَسُ
نَفْسَهُ » !!!
لماذا؟!؟
لأن خالدًا كان عبقرياً ...
ولأن بيبرس كان عبقرياً ...
والعباقرة اذا وُضِعوا بين الناس امتازوا عليهم دون عناء ...
عُزل خالد ... وعمل تحت إمرة أبي عبيدة ... مأموراً ... ولكن
عبقريته جعلته أميراً ...
وكذلك كان بيبرس طيلة حياته ... بارزاً ... بروزاً شاهقاً ...
هامته تسمو على هامات أقرانه ... ليس كبراً ولا غروراً ...
ولكن امتيازاً وهبةً الله له دون كثير من أقرانه !!!
كان هناك الكثير من أمراء المماليك الصالحية في معركة المنصورة ...
إلا أن بيبرس كان هو كوكبها اللامع ... وحديث الناس جميعاً ...
و حين ادلهم الخطب ... وارتعدت الفرائص ...
رأيت بيبرس عملاقاً ... يزأر زئير الأسد ... وينفضّ على فرسان
الفرنسيين يجندهم تبعاً ... ثم ينقض على قائد فرسان الفرنسيين ...
الأمير « آرتوا » ... أخي الملك لويس التاسع ... فيمزقه بسيفه ... في

زئير الأسد ... وانقضاض النمر ...
فقلّبَ البطل بيبرس بشجاعته النادرة الموقف المصري من الالتحام
الى النصر !!!

وتنادى الناس جميعاً: بيبرس ... بيبرس ... بيبرس !!!
وكما أن العبقرية لا تُفتعل ... وإنما يُولد العبقرى عبقرياً ...
فكذلك البطولة لا تُصطنع ... وإنما يولد البطل بطلاً ...
لقد كانت الشجاعة ... والجرأة ... والحرص على الموت ...
والاستهانة بالعدو ... صفات أصيلة في شخصيه بيبرس ...
تبقى مكنونة فيه ... حتى تحدث حادثة تقدها ... فتشتعل توتاً
تحرق كل ما صادفها !!!

كان بيبرس فارس معركة المنصورة !!!
ثم كان فارس حادثة مصرع السلطان توران شاه !!!
ثم كان فارس معركة عين جالوت !!!
ثم كان فارس معركة بيسان !!!
ثم كان فارس حادثة مصرع السلطان قُطز !!!
كل ذلك قبل أن يكون سلطاناً !!!

إنها ظاهرة ثابتة في شخصيته ... وإذا لزم الأمر ... كان هو المقدم
الى الموت ... لا يبالي وقع هو على الموت أم وقع الموت عليه !!!
هؤلاء الأبطال العباقره ...

هم الذين يكتبون التاريخ بجوافر خيولهم ...
يميلون بالتاريخ حيث شاءوا !!!
والناس لهم تبع !!!
لأن العباقره سارعوا الى الموت فألقت الحياة اليهم مقاليدها !!!
أمّا الجبناء ... فليرجعوا الى الوراء !!!

وإليك متشهد من معركة المنصورة الخالدة... حبت تلالاً من صدمه
الشجاعة النادرة... من الأسد الضاري... والبطل العبصرى...
بيبرس!!!

البيعة للسلطان تورانشاه!؟

كان أول شيء واجهه به نائب السلطان الموقف، ان بأخذ البيعة للسلطان
الجديد. وشاور شجرة الدر في ذلك، فأبدت استعدادها لأن تباع لتورانناه
وقالت: أنا اول من يبائع.

قال فخر الدين: إذاً نبعث الى اقطاي، نستدعه لذلك.

وبعث نائب السلطان الى اقطاي، فجاء يسعى على عجل، وجعلا
يتشاوران...

قال فخر الدين: نريد ان نجتمع الناس على السلطان الجديد، حتى لا تكون
هناك فتنة.

قال اقطاي: هذا ما كنت اريد ان اعرضه عليك.

قال فخر الدين: سوف نجتمع الليلة كبار رجال الدولة، وأنت عليك أن
تحضر الى القصر ومعك من يمثل المماليك... ومتى اكتمل المدعون، أخذنا
عليهم يمين البيعة للسلطان.

قال اقطاي: سأكون أول من يحضر، ومعى المماليك.

وأصدر فخر الدين أوامره، فاجتمع بالقصر السلطاني بالمنصورة، من
رجال الدولة ليلاً من يمثل القضاء والجيش، والأمن والتجار والزراع
والصناع، وسائر الطوائف.

... وأخذت الأصوات على نورانشاه... فلم يكن هناك من يعارض، وإنما

الكل يتلطف الى بيعته، لتتفرغ البلاد لجهاد الأعداء.

وجعل الفخر يردد فقرات البيعة، وهم يرددون من ورائه... « وأقسم بالله العظيم... أن أكون مخلصاً للسلطان الملك المعظم تورانشاه»، مطيعاً له ما اطاع الله ورسوله... والناس من ورائه يرددون البيعة مستبشرين. وبعد أن فرغوا من المراسيم، نهض اقطاي فوقف موقفاً زائغاً، سجله له التاريخ، حيث قال: يا فخر الدين...

فاشرأت الأعناق إلى مصدر الصوت، فإذا به أقطاي زعيم المهالك... قال أقطاي: ونحن نبايعك ولياً للعهد... فالبلاد تجناز فترة عصبية، تسنلزم أن يكون هناك من يخلف السلطان بلا اجراءات أو تخلف. نحن في حالة حرب، لا تتحمل اضاءة الوقت في المراسيم، فهل هناك من يعارض.. فلم يسمع صوت يرتفع إلا أصوات الحاضرين وهم يرددون: على بركة الله يا فخر الدين... ينصرك الله يا فخر الدين...

قال اقطاي: ومن المعلوم بالضرورة أن ولي العهد يحل محل السلطان أثناء غيابه... فالتبعة الآن على فخر الدين، فاسمعوا له وأطيعوا. قال الفخر: الا وقد بايعتموني بولاية العهد، فإني أسأله تعالى النصر على الصليبيين، الذين جاءوا الى بلادنا بغيا وعدواً بغير الحق. وانفض القوم وقد بايعوا... ونهض اقطاي فقبل فخر الدين وعانقه، فكان موقفاً تأثر له الجميع، ثم ذهب ينصرف هو وضباطه الذين جاؤا معه، فاحجزه فخر الدين.

وعقد القبطان فوراً مؤتمراً حربيّاً على مستوى عال لبحث الحالة الحاضرة. قال اقطاي: أرى ان نركز الدفاع على شاطئ البحر الصغير من جهة المنصورة، فإنهم لا بد سيهجمون على المنصورة من هذا الطريق. قال فخر الدين: عليك أنت أن تقود المعركة في قطاع البحر الصغير... وسأقود أنا المعركة في قطاع المنصورة. قال اقطاي: ومن يدافع عن القصر السلطاني؟.

قال فخر الدين: أسد القصر .. بيبرس ... هو لها ... ذلك المارس
الرائع ... هو قائد الحرس السلطاني ... وهو يجهمي القصر وهو حارس
يحميه .

قال اقطاي: اختيار موفق ... وليس كبيبرس من قائد .
قال الفخر: تفرغ انت لمهمتك يا اقطاي ... لا ينبغي ان يسمد منهم
جندي واحد إلى المنصورة ... فإن حدث ونفذوا إلى المنصورة بدأت
مهمتي ... فإن حدث ونفذوا إلى القصر السلطاني بدأت مهمة بيبرس .
قال اقطاي: الله المستعان ... ثم حيا وانصرف .
أما فخر الدين فعكف على إصدار الأوامر لأخذ البيعة للسلطان الجديد
وبعث بها إلى سائر أنحاء البلاد ليحلفوا للمعظم نورانشاه .

المصريون يستعدون؟!!

رحل اقطاي فوراً إلى قطاع البحر الصغير، وجعل يتفقد قوات الجيش
النظامي وقوات المقاومة الشعبية. ومر على جنوده فرداً فرداً ... وناقشهم في
مهمتهم، فراعهم منهم شدة شوقهم إلى لقاء الأعداء .
أما فخر الدين، فنظم قطاع المنصورة تنظيمًا رائعًا، وكانت خطته تبنى
على القتال من بيت إلى بيت، ومن شبر إلى شبر، بحيث لا يدع للعدو فرصة
ليحتل شبراً من أرض المنصورة. وكانت قوات الجيش نرايط في كل مكان
من المنصورة ... علاوة على قوات المقاومة الشعبية، التي درت أحسن تدريب
على حرب العصابات والمنازل ... هذا بالإضافة إلى فرق المقاومة النسائية التي
كانت ترأسها السيدة فاطمة الدمياطية، ومهمتها القتال كالرجال سواء بسواء،
وإسعاف المصابين، ونضميد الجراح .

وأما قطاع القصر السلطاني بقيادة بيبرس، فلم يكن بأقل من أخويه استعدادًا ولا رغبة في لقاء الأعداء. نظم القائد بيبرس قواته بحيث إذا هجموا على القصر من أي اتجاه، كانت هناك من القوات الضاربة ما يكفي للوقوف في وجه هجوم الأعداء. وكان بيبرس قائدًا عظيمًا، وجنديًا شجاعًا، وبطلًا مقدامًا يرهبه خصومه رهبة كبرى.

وكان دائمًا يتحدث إلى جنوده عن ذلك اليوم، الذي يلتقي فيه هؤلاء الغزاة المجرمين ليلقنهم درسًا يكون عبرة لمن بعدهم. وبالجملة أتم المصريون استعداداتهم، ووقفوا صفًا واحدًا يتحرقون شوقًا إلى منازلة عدوهم، دفاعًا عن مقدساتهم، وحفاظًا لعروبتهم، وإعلاء لشأن دينهم.

وكان أعجب شيء تشاهده ان البلاد كلها تتحفز للهجوم، حكومة وشعبًا، رجالًا ونساءً، شيبًا وشبانًا. حتى الأطفال الذين لا قدرة لهم على النزال، كانوا يتوقون إلى الانقضاض على هؤلاء الفرنسيين ومن جاء معهم من أنحاء أوروبا.

وأما قيادة البلاد الروحية، فقد أدت رسالتها، وعبأت الوعي القومي في البلاد، فانتشر العلماء والوعاظ والمرشدون في المساجد، وفي المجتمعات، وفي الأسواق، يحثون الناس على الجهاد، ويبينون لهم ما يأمر به الإسلام من مجاهدة أعداء الله، والتنكيل بهم، حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين لله.

الهجوم العام على المنصورة!؟

وقف الملك لويس التاسع بمقر القيادة العليا، وعليه ملابس الحرب الحسراء الملكية، وكان من حوله الأمراء والقواد، ورؤساء هيئة أركان حرب .. ثم رفع يديه إلى السماء، وتم بدعوات وتسبيحات، بستمطر رحمتها، ويسنرل نأيدها .

ثم قال: الآن أزفت الأزفة، ونأكدت الأنباء بموت الملك الصالح، وأصبح الوقت ضيقاً إلى درجة لا تسمح بالتسويق. فإما أسرعنا بالهجوم على المنصورة، وإما قضي علينا قضاءً مرماً. ذلك ان تورانشاه في طريقه الى مصر الآن، ليأخذ مكان أبيه، وأنا أعلم انه شاب متوثب للمجد، يربح أن يدخل التاريخ على جثثنا. وإن صورة جده صلاح الدين نرتسم أمامه وناديه دائماً: كن صلاح الدين... فلا ينبغي أن نلتبث حتى يأتيهم، ويقودهم ضدنا، انما نبغتهم الآن... ونفاجئهم...

ثم رفع من صوته وهو يعلن قراره التاريخي: الآن أصدر أمري بالهجوم العام على المنصورة... فليذهب كل إلى مقر قيادته... وسوف يبدأ الهجوم عندما تسمعون جرس الكنيسة يدق دقاً متواصلاً... وسوف يكون ذلك بعد قليل... ولسوف ينبعث الصوت من الكنيسة الملكية.

وانفض المجتمعون بالملك لويس... وذهب كل منهم ليتسلم قيادته وينظم قواته، ويبين لها طريقها المرسوم... في الهجوم العام. وبعد قليل... أصدر الملك لويس أمره ببدء الهجوم. فانرفع صوت جرس الكنيسة الملكية يدوي في أنحاء معسكرات الفرنسيين...

ودق الجرس المرة الأولى فانتبه الجنود.

ثم دق المرة الثانية فأخذ كل مكانه المعلوم.

ثم دق الثالثة فانطلقوا جميعاً يقصدون المنصورة.
أما جرس الكنيسة فظل يدوي أثناء تحركهم ليمسهم من بركاته.
وتحرك لويس التاسع على صهوة جواده النادر، يحف به خمسمائة من أمهر
فرسان أوروبا وعتاة الحروب فيها.
وكان الأمل الذي يداعب خيالهم جميعاً أن المنصورة أوشكت أن تقع في
أيديهم.

☆ ☆ ☆

وواصلت قوات الأعداء هجومها، ولم تلق مقاومة تذكر في مسيرها، فلم
نمض إلا أيام حتى كانوا تجاه المنصورة، يتهيئون لاجتياز البحر الصغير الى
المدينة، التي اتخذها المصريون قاعدة للدفاع.
وعلى شاطئ البحر الصغير المقابل للمنصورة، احتشدت قوات لويس
التاسع، واستعدت لعبور البحر، ثم دخول المنصورة..
كانت نحواً من مائة عشر ألفاً... أما باقي الحملة - الأربعين ألفاً -
فقد تركهم لويس التاسع في دمياط، يحمون المؤخرة، ويكونون قاعدة
كبرى تتلقى الإمدادات، ثم ترسلها عن طريق النيل إلى القوات الكبرى
المهاجمة في المنصورة.
أي ان لويس قد شطر قواته إلى شطرين، شطر أكبر، نحواً من ثلثي
جيشه، مائة ألف أو يزيدون، للهجوم على المنصورة.
وشطر أصغر، نحواً من ثلث الجيش، خلفه لحماية ظهره بدمياط.
خطة محكمة، وتدبير عظيم، من القديس لويس..

فخر الدين يعقد مؤتمراً حربياً سرىاً؟!!

وفي بهو من القصر السلطاني بالمنصورة كانت شجرة الدر المدكدة المحببة، تجلس وأمامها نائب السلطان الأمير فخر الدين، والسادة أقطاي، والقائد بيبرس، وغيرهم من قادة الجيش.

قالت شجرة الدر: أستحلفكم بالله ألا تخزوا أمليكم وبني وطركم. فذلك يوم له ما بعده... لقد جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ومن تحت أرجلكم.

قال فخر الدين: اشهد الله الذي لا إله إلا هو... لأفانلنهم قتال الراءع في الشهادة.

فالتهب أقطاي واندفع يصيح: والله لتسمعن أبناء نثلج الصدور، وينسرح القلوب، لقد اخترعنا سلاحاً، سوف يحقق النصر بإذن الله...

قالت شجرة الدر: وما ذاك السلاح يا أقطاي؟

قال: رأأت قواتنا ما نحن فيه من مأزق، ففكرت وفكرت حتى هداها الله إلى سلاح سري عجيب، لا يعلم عنه الأعداء شيئاً، وسوف يكون مفحأة تامة لهم.

قال فخر الدين (وهو يقبل أقطاي): نبئني يا أخي... ما هذا السلاح؟

قال أقطاي: النار الاغريقية...

قال فخر الدين: اشرح أسلوب استعماله.

قال اقطاي: هو كرات نارية هائلة تطلقها المجانيق، فتتهاوى السماء على رؤوس الأعداء، شعلاً وجرات، فيأخذهم الفرع، ويتفرقوا في كل وجه...

قالت شجرة الدر: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله... ثم سجدوا جميعاً سجدة شكر لله العلي العظيم.

قال فخر الدين: وهل أنتجتم منه كميات كافية...

قال أقطاي: نعم... لقد اكتشفه أحد الضباط ونبأني به، فأمرته أن يعكف على إنتاجه هو وفريق من اخوانه، وأن يجعله سرًا، حتى تحين الساعة وننزله الى الميدان.

قال فخر الدين: الله معنا... الله معنا...

ثم استأذنت شجرة الدر... وقالت للمجتمعين: سأترك لكم المكان، لتفرغوا لوضع الخطة النهائية، ونسقوها فيما بينكم، حتى تكون الخطة متعاونة متناسقة، فتؤتي أكلها بإذن ربها نصرًا عزيزًا، لمصر والمصريين. ودلفت شجرة الدر إلى قصرها... ووضع قادة العرب خطة الدفاع... وانفقوا عليها وعاهدوا الله على الإخلاص لله والوطن.

محاولة عبور البحر الصغير!؟

وأمر الملك لويس التاسع، إقامة معبر يجتازون عليه الى المنصورة. وشرع الفرنجة ينفذون الأمر، فتقدم المشرفون والصناع، يقيمون الجسر، وبدلوا فيه جهدًا جهيدًا. ورأى أقطاي ما يصنع الأعداء، وأشار عليه ضباطه أن يمنعوا الفرنجة من إقامة ذلك الجسر، فابتسم ابتسامة الواثق من ربه، المطمئن إلى تدبيره، وقال: دعوهم وشأنهم...

وأنفق الفرنجة يومين في تشييد المعبر، وأتموا إقامته، وفرحوا بما أوتوا.. فما ان أتموا عملهم، حتى أصدر أقطاي أمره ببدء المقاومة. فحفر المصريون خندقًا مثل الهلال عند نهايته، فاندفع اليه ماء البحر... وكان من أثر انضغاط الماء في ذلك المكان الضيق، ان جرف التيار قاعدة الجسر، وحطمه ومضى.

وما ان رأى المصريون السد يتبدد مع الماء حتى كبروا ، وارتفعت أيديهم الى السماء شكراً لله على نلك البداية الطيبة .
بينما وقف الصليبيون ينظرون في حسرة إلى مجهودهم الضائع .

السلح السري المصري!؟

وظفق الصليبيون ينشئون على طول الساحل أبراجاً من الخشب الغليظ ، ليحرسوا مراكزهم ويرقبوا حركات عدوهم .

واطمأنوا إلى تلك الأبراج « وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأناهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب... » .

ونظر ضباط أقطاي مرة أخرى إلى الأبراج التي أنشأها الصليبيون على طول الساحل ، وأشاروا عليه أن تتقدم قوات من الفدائيين ، وتمنعهم مما يعملون ، أو أن يتخذوا إجراءً مضاداً ، حتى لا يثبتوا أقدامهم على الساحل ، ويتمكنوا بذلك من اجتياز البحر الصغير إلى المدينة .

واتسم أقطاي مرة أخرى ، ونظر إلى ضباطه ، ثم قال : سوف يعلمون ... سوف يعلمون .

وما ان أتم الأعداء تشييد أبراجهم ، ونظموا خططهم على أساسها ، حتى أمر اقطاي باستعمال السلح السري .

ولأول مرة في تاريخ العالم كله ، انطلقت المجانيق المصرية بشيء عجيب ... لا عهد للأرض به قبل ذلك .

ومن الشاطئ العربي ، انصبت على الشاطئ الصليبي القذائف النارية ، من أفواه المجانيق ، فحولت الأبراج الى أنقاض ورماد على رؤوس من فيها من الحرس والجنود .

وتم تدمير جميع الأبراج الفرنسية، واشتعلت الحرائق فيها، منها ما نسف،
ومنهما ما أحرق، ومنها ما اجتمع عليه النسف والحريق.
ودهش المعسكران لما جرى...
أما الصليبيون فذعروا ورعبوا لئلك المفاجأة الحربية، التي كانوا يتوقعون
كل شيء ولا يتوقعونها، ها هي الأبراج التي وضعوا فيها آملهم، نتحطم
وتشتعل بمن فيها ومن جاورها.
وأما المعسكر العربي فدهش وعجب لما حدث، لأنه لم يكن يعلم أنه يملك
ذلك السلاح السري العجيب.
لقد أخفى أقطاي سر الاختراع عن الجميع عملاً بالقول المأثور (استعينوا
على قضاء حوائجكم بالكتمان).
وجاء قوم من الجيش العربي الى أقطاي وقالوا: الله أكبر الله أكبر... هذا
نصر من الله.
قال أقطاي: لا تغزوا... ان المعركة طويلة... اذهبوا إلى مراكزكم حتى
يتم الله نصره.

الرعب في قلب معسكر الأعداء!؟

وكانت خطة أقطاي غاية في الدهاء والمكر... فما ان أتم تدمير الأبراج
كلها حتى أمر فأقلع الرماة عن الرمي بالمجانيق، وهدأت الجبهة... وسكنت
الحرب... يوماً كاملاً.
إلا أن الصليبيين لم يكونوا ليركوا أنفسهم بدون أبراج وهي عماد
جبهتهم... فشرعوا على الفور - منتهزين فرصة الهدوء المؤقت - ينشئون
غيرها، وراعوا في إنشاء الأبراج الجديدة أن تكون أشد وأقوى.

وأنفقوا أيامًا ينشئون أبراجهم الجديدة، وسكنت قلوبهم بعد أن روعت، وزاد طمأنينتهم أن خطوط المصريين لم تعد تقذفهم بتلك الكرات النارية الملتهبة، فظنوا أن ما قذفه المصريون كان شيئًا عندهم، ولم يعودوا يملكون غيره..

وساد الجبهتان صمت عميق...

وتألفت الأبراج الجديدة، وسطعت عليها الشمس، وهي نقف كأبراج الكنائس المهيبة الطلعة.

وفجأة أصدر أقطاي أمره، وانطلقت القذائف نهارى على الأبراج الجديدة، يصوبها الرماة العرب في دقة ومهارة، فلا تكاد تخطئ الرمية هدفها، ولكن تنصب على الأبراج فتشعلها وتحرقها، وتدمرها تدميرًا.

وتتابعت القذائف، وتسابقت الكرات النارية على الأعداء...

وشوهدت الحرائق في معسكرات الأعداء... يتصاعد لهيبها.

وكان من أعجب ما نرى أولئك الصليبيون يحاولون الهرب من الأبراج، ويهرولون منها فرارًا من الموت، وهم مشتعلة أجسامهم، محترقة وجوههم، يتصايحون بلغتهم الفرنسيه: الموت... الموت... الموت... أين المفر... وفجأة تهوي على رؤوسهم إحدى القذائف فتحوطهم إلى خبر يروى، أو قصة يتناقلها جنود العرب، وهم يشهدون المعركة، ويجأرون إلى الله أن ينصرهم، ويحفظ الكنانة من شرور المجرمين.

وما ان أتم العرب تدمير الأبراج الجديدة، حتى عادت المجانيق العربية إلى الصمت التام... تمامًا كما فعلت أول مرة...

وعاد الهدوء إلى الجبهتين... وانحطت الروح المعنوية في الصليبيين على أثر التجربة الفاشلة، وبدءوا يشكون في النصر.

قال الملك لويس، وقد رأى المعبر ينهار، والأبراج الخشبية ندمر مرتين: لا ينبغي الجزع، ولكن اصبروا... وإن روح الله لن تتخلى عنا. وجعل يبث

في جنوده من تدينه وتنسكه، حتى هداً الخواطر، وأشاع الأمل من جديد في النفوس.

هذا في معسكر الأعداء، أما في معسكرات المصريين، فقد ارتفعت الروح المعنوية في الجيش، وأصبح اسم أقطاي كأنه أسطورة خالدة، يتغنى بها الشعب.

أزمة أخشاب في معسكرات الصليبيين!؟

ولم يدع أقطاي للصليبيين فرصة بعد ذلك يستريحون فيها، ونادى في قواته: ان الهجوم هو خير وسيلة للدفاع، أقذفوهم بالمجانق.

وانطلقت القذائف العربية، تعلن للملأ أن العرب هم العرب، لا يقبلون اعتداء، ولا يعطون الدنية من دينهم.

كان الجندي العربي يضع القذيفة في المنجنيق، ثم يكبر في ايمان بربه، ثم يقذف، فتخرج القذيفة فيها ايمان صاحبها، وقوة العربي إذا انطلق. فما ان تهوي على رؤوس الأعداء حتى يأخذهم الفزع، ويتفرقون في كل واد، يدوس بعضهم بعضاً، من شدة الهول.

واشتد اطلاق القذائف على الفرنسيين، فاشتد عليهم الحال، وضافت عليهم الأرض بما رحبت. وكان أشد ما أصابهم أن قلت الأخشاب في معسكراتهم، كلما أنشأوا أبراجاً يجتمون بها، دمرها العرب عليهم، فإذا بهم يضطرون إلى إنشاء غيرها، فتدمر... وهكذا.

واضطروا آخر الأمر أن يستلوا ألواح الخشب من السفن ليتخذوا منها وقوداً، أو يبنوا بها أبراج الدفاع.

واشتد البرد عليهم، فاشتدت حاجتهم الى الأخشاب.

وعلم ذلك أقطاي، فنادى في جنوده: اضربوا... اضربوا...
وتحولت جبهة المعندين إلى نار مشتعلة... وتعالص صبحاتهم... ورعبوا
رعبًا شديدًا، لم يرعبوا مثله من قبل.

حرب العصابات مرة أخرى!؟

وانتهز اقطاي الفرصة، فرصة الرعب والفرع في معسكرات الأعداء،
فأطلق رجاله المدربين على حرب العصابات عليهم، ليلاً ونهارًا. فكانوا
يختطفونهم أحياء... أو يختطفونهم أرواحًا بالمدي والخناجر، وبما تيسر من
أدوات الذبح والإبادة.
وأصبحت حياة المعتدين، جحيمًا لا يطاق، النار من فوقهم، والموت
يأتيهم من كل مكان.
وشاع الرعب وذاع... وعجز الملك لويس لأول مرة، أن يطمئن قواته،
أو يقنعها بالثبات... ولأول مرة كذلك بدأت قواته نشك في أقواله التي
كانوا يعتبرونها من قبل كلامًا مقدسًا، يوحيه ملاك الرب إلى القديس
لويس.

والماء يحاصرهم!؟

وأراد الله أن يمين على الذين اعتدي عليهم مرة أخرى، فأوقع الصليبيين في
شر أعمالهم. وألزمهم المقادير مكانهم الذي هم فيه، يحيط بهم الماء من كل
مكان... البحر من أمامهم، والبحر من ورائهم.

فلا يستطيعون التقدم إلى الأمام، ولا يستطيعون الترحيح إلى الوراء، ولكن عليهم أن يجمدوا، وليس أمامهم أن أرادوا أن يتقدموا إلا أن يجتازوا البحر الصغير إلى المنصورة.

وها هو اجتياز البحر الصغير أصبح مستحيلًا كذلك...
وأدلم الخطب... فما المخرج؟!

بدء المعركة؟!!

نظر لويس إلى حال جنوده، وما هم عليه من حرج الموقف، فرأى أنه لا مناص من التقدم، ودخول المنصورة مهما كان الثمن، خصوصًا وإن هذا هو الحل الأوحى لإنقاذ جيشه من الورطة التي هو فيها. فلو أنه انتظر أيامًا أخرى فربما هاجمه المصريون وهو في مكانه هذا، فتتحقق إبادة تامة. وجاءه شقيقه أرتوا، يعلمه أن طلائع الاستكشاف في الجيش الفرنسي، اكتشفت مخاضة بالبحر الصغير، يمكن للجيش أن يجتازها إلى المنصورة. قال لويس: وأين المكان يا أرتوا؟!

قال أرتوا: ليست بالبعيدة، ولا بالقربية... على مسيرة سويقات.

قال لويس: نريد مخاضة قريبة... حتى لا تكون على مرمى العدو.

قال أرتوا: على العكس من ذلك... إذا بعدنا شيئًا ما عن هذا المكان، سوف يستحيل على العدو أن ينال منا بقذائفه... أضف إلى هذا أننا إذا اجتزنا البحر من تلك المخاضة فسوف لا يتمكن المصريون من ردنا عن المنصورة، سوف نتدفق منها جميعًا كالسيل الجارف إلى داخل المدينة... ثم صاح أرتوا: لويس... دعني أدخل المنصورة كتجربة، فإن أفلحت فاتبعني.

بسائر جيشك ، وإن مت فلا عليك ...
قال لويس : اذهب ... فافعل ... والله معك .

أرتوا يجتاز البحر ... ويقتل نائب السلطان !؟

خرج أرنوا على رأس فرقة من فرسان الجيش الصليبي ، فيها خيرة شجعانهم ، وسار بها حتى ابتعد عن الجيش ، محاذياً للساحل ، فلما وصلوا إلى المكان الذي به المخاضة ، تقدم بجواده ، وهم من ورائه فاجتازوها ، ووضعوا أقدامهم لأول مرة بساحل المنصورة .

ورأت دوريات الاستكشاف العربية نزول الفرنسيين بالساحل ، فدوى النفر معلناً نزول الأعداء ، فتجاوبت أنحاء المنصورة بصوته ، معلنة أن العدو دخل المدينة .

وهنا انتهت مهمة أقطاي ، وبدأت قيادة فخر الدين .

وكان الأمير فخر الدين في الحمام ، فسمع صوت النفر يدوي ، فخرج معجلاً لم يستكمل عدة حربه .

ونادى في جنده : اتتوني بجوادي ، أريد أن أمحو عن جبيني عار دمياط ..

وجاءوه بجواده العربي الشاهق السامق ، فاعتلاه في حماسة قتالة .

ونادى في جيشه : اخرجوا من ورائي ... لنلقى طلائع الجيش الغازي ...

والله لن يدخلوها علينا أبداً .

وصاحت في أعماق فخر الدين قوة عقيدته ، وحرارة عروبته ، فخرج لا

يلوي على شيء ، على رأس فرقة من جيشه .

وهناك عند مدخل المنصورة ... التقى الجمعان ... واقتتلت الفرقتان ...

فرقة الفرسان الصليبية المعنوية، وعلى رأسها الأمير أرتوا... وفرقة الفرسان
المصريه، وعلى رأسها الأمير فخر الدين...
وكان اروع ما في الموقف منظر فخر الدين، وهو يندفع الى قلب العدو
ومن ورائه جنوده، فيقتل منهم، ذات اليمين وذات الشمال، وينخرع جميع
الأعداء أمام بأسه وشجاعته، ويتضعضعون وهم الآلاف أمام فروسيته
وانطلاقه.

وإذا بفخر الدين وجهًا لوجه مع غريمه أرتوا...
فعاجله فخر الدين بضربة، كادت تكون قاضية، لولا أن أرنوا عاجله هو
الآخر بضربة، فكان فيها القضاء.
وسقط فخر الدين عن جواده شهيدًا... ودمه يشخب فوق أرض الوطن.

المعركة في شوارع المنصورة ... وقصة الفارس الملمم!؟

واهتلها أرنوا فرصة، فاندفع بفرقة إلى شوارع المنصورة.
واشترك الشعب جنبًا إلى جنب مع الجيش، في الدفاع عن مدينتهم
الخالدة.

ودارت المعركة بالسيوف والعصي والحجارة، واشترك فيها الكبار
والصغار، والنساء والرجال.
واندفع فارس ملمم من بين الصفوف على صهوة جواده، يريد أن يقاتل
العدو وحده.

كان ذلك الفارس، لا يريد أن يتكلم، وإنما يريد أن يقتل ويقتل...
وروع العدو من صولته، وجرأته النادرة... فقد اندفع الى فرسان الأعداء

يبارزها، وينازلها، حتى جندل منهم ثلاثة، تم طوح بالرايع عن حصانه، فتدل عن جواده، فبال الفارس الملمم يجهز عليه بسيفه.
فانتهاز أحد الفرسان الصليبية الفرصة، وضره ضربة قاتلة، فسقط الملمم شهيداً.

وما ان رأى المصريون أخاهم شهيداً، حتى اندفعوا يجتزون رقاب العدو، ويعملون فيه قتلاً وتنكيلاً.

كان ذلك الفارس الملمم الشهيد، هو قائد فرقة المقاومة النسائية، السيدة فاطمة الدمياطية التي رأت بعينيها الفرنسيين يقتلون زوجها الحبيب، وأولادها الصغار، يوم دخلوا دمياط منذ شهر .
وكانت قد أقسمت يومئذ لنتقم من زوجها وأولادها ... فبرت بقسمها.

بيبرس يجتز رقبة أرتوا؟!!

والمعركة تنتقل إلى القصر السلطاني؟!!

إلا أن ذلك كله لم يمنع أرتوا من التقدم الى القصر السلطاني، فقد كان يقابل قتال اليائس إذا أحيط به . فكان يبطش ببطش المجانين .

واندفع أرتوا بما تبقى من فرقته، إلى القصر السلطاني، حتى وصل الى ساحة القصر .

ورأت شجرة الدر من وراء النوافذ، الخطر يصل الى مخدعها...
فنادت: بيبرس... بيبرس .

إلا أن بيبرس كان قد سبقها إلى أداء رسالته المقدسة، لا ينتظر أمراً ولا توجيهاً .

فاندفع من ورائه فرقة الحرس السلطاني، إلى أرتوا وفرسانه .

وصال ببيرس وجال في الميدان، يجز الرقاب، ويجندل الفرسان...
وما زال يتقدم، حتى نفذ إلى الشقي أرتوا قائد فرقة الغزاة.
ورفع ببيرس سيفه في عزم من يريد أن يثأر لدينه وعرضه وشرفه
ووطنه، وأهوى به في قوة لو صبت على جبل لشطرته، فاحتز به رقبة
أرتوا...

ورعب ما تبقى من فرسان الغزاة...

ونزل ببيرس وسيفه يقطر دمًا عن جواده، كأنه يتحدى من يجرؤ على
مبارزته من الأعداء.

وارتفع بصره إلى النافذة، حيث تنظر شجرة الدر، وقلبها يكاد ينخلع من
هول ما ترى... فنادته الشجرة من سترها: الله أكبر... الله أكبر...
فردد الجميع ما قالت، ثم نادته الشجرة من عليائها: اتبع الرأس
الذنب...

فانطلق ببيرس ومن ورائه فرقة الحرس السلطاني، يبيدون من تبقى
من الفرنسيين، حتى تضعضعوا وانسحبوا من القصر فارين، هارين على
ظهور خيولهم مذعورين.

أخذ الفارون طريقهم عدوًا، إلى المخاضة التي جاءوا منها.
وتركوا من ورائهم ألفًا وخمسمائة من القتلى. فكانت عودة فلولهم
المنهزمة بشير سوء لملكهم لويس.

بينما استبشر المصريون أيما استبشار.

وأطلقت شجرة الدر الحمام الزاجل إلى القاهرة، تحمل أجنحته أخبار
النصر إلى الأمير حسام الدين، نائب القاهرة.

فهلل الشعب وكبر، وفرح واستبشر، واشتدت رغبته في الإجهاز
على العدو!!!

بيبرس ...

فارس واقعة ...

مقتل تورانشاه ...؟!!

شهدنا في الفصل السابق ... كيف كان بيبرس كوكب الأحداث ...
حين هجم أرتوا قائد قوات الفرسان الانتحارية الفرنسية ...
يريد الوصول الى مقر القيادة المصرية العليا ... الى القصر
السلطاني ... فيستولي عليه ... وبسقوط مركز القيادة العليا ... ينهزم
الجيش المصري وتنتهي المعركة !!!
ولم يكن أرتوا يتخيل يوماً ما أن هناك أسدً ضارياً في انتظاره !!!
فلما جاء الفارس الشيطان الى قصر السلطان ... افسح له بيبرس
الداهية الطريق ... فظنّ أرتوا أن فرسان المصريين يتقهقرون عجزاً
عن مقاومته ... فاندفع حتى وصلت طلائع خيوله الى بهو القصر
السلطاني !!!
هنالك بلغت القلوب الحناجر ... واشرببت الأعناق ... وتطلّع
الجميع ...
وفجأة انقضّ الأسد المصور ... فانقضّ فرسانه معه ...
والتقى أرتوا ... أشجع فرسان الفرنسيين ... وبيبرس أشجع فرسان
المصريين !!!
وتصاولا ... وتجاولا ... وكان التحاماً رهيباً ... انتهى بمصرع
أرتوا ... حين مزّقه البطل المسلم ... المسمّى ركن الدين بيبرس !!!
فكانت فاتحة النصر العام ... على جميع القوات الفرنسية بعد

ذلك ... حيث سقط منهم خمسون ألف قتيل ... ومائة ألف ما بين أسير
وشريد!!!
ذلكم بيبرس ... وتلك طليعة عبقريته العسكرية المبكرة ...
وإليك الآن ... مشهداً آخر ... كان بيبرس فيه أول من يتقدّم لا
يبالي ما يكون بعد ذلك!!!
إنه دائماً يُوجد حيث تكون الحاجة الى بطل خارق ... لا يهاب
الموت!!!
وإن ضحيته هذه المرة ... سلطان عظيم ... سلطان منتصر منذ أيام
على الملك لويس التاسع!!!

☆ ☆ ☆

إنذار إلى شجرة الدر

مرت تلك الأحداث التي غيرت مجرى التاريخ، ورفعت أقواماً وأذلت
آخرين، وشجرة الدر هناك في بيت المقدس، بعيداً عن مجريات الأمور، بعد
أن كان كل شيء بيدها هي لا بيد غيرها.
وكانت الشجرة بابتعادها عن الديار المصرية ترجو أن تفوت العاصفة،
حتى ينتصر تورانشاه، وينسى آلامه، ثم تعود الى مصر كما كانت.
إلا أن تورانشاه، نسي لها كل ما كان منها من حسنات، ولم يعد يذكر
لها إلا أنها امرأة أبيه، التي دفنت أباه دفن الكلاب والجيف. وإلا أنها تلك
المرأة التي كانت دائماً توغر صدر أبيه عليه، حتى اضطر في النهاية الى ابعاده
الى حصن كيفا، تخلصاً منه. وتجسمت تلك السيئات في مخيلته، حتى أصبح لا

يطبق لها صورة أمام عينيه .

وبعث تورانشاه الى شجرة الدر رسلاً يقولون لها: إن عليك أن نردى ما حملت معك من جواهر السلطان الراحل. وعليك أن تحضري الى مصر فوراً ومعك كل ما حملت الى القدس.

ونالت الرسل.. وتوالى إصرار الشجرة على موقفها..

وكانت هي ترتاب منه خيفة، وتخشى أن يقتص منها، وقد أصبح السيد المنتصر، ودوي اسمه في الآفاق.

فأصرت على الرفض... وأبت أن تعود الى مصر..

وأصر السلطان المعظم على عودة الجواهر... وعلى عودة شجرة الدر.. هذا من جهة..

ومن جهة أخرى، كان السلطان قد وعد الفارس أقطاي أن يؤمره، مكافأة له على بلائه في المعركة، حيث كان هو وصاحبه بيبرس من أسباب النصر الأكيدة، إلا أنه لم يوف له. فارتاب منه أقطاي، واختفى عن الأنظار الى حين.

وطاشت خرة النصر بعقل تورانشاه، فبدأ يبدي نحو المماليك ما كان يخفي، فعزل أكابره وولى عليهم أراذلهم، وفعل بهم الأفاعيل. وكانت تلك منه خطة يريد بها أن يقضي عليهم، ويرد السلطة للأيوبيين كما كانت.

هنالك اتفق الطرفان عليه.. فكاتب شجرة الدر فيه.. فاتفقوا، هي

والمماليك على أمر..

مصرع السلطان تورانشاه

واشتدت أفراح النصر بالبلاد المصرية، وكان السلطان الملك المعظم أكثر الناس فرحاً، فإن المعركة منسوبة اليه، والمجد معقود عليه.

وأمر المعظم: فنصبوا له دهليزاً سلطانياً، على شاطئ النيل بفارسكور.

وأقيم الى جانب الدهليز، برج من خشب.

وأعدوا له أسباب المزاح والقصف.

فمدوا البساط، وأوقدوا الشموع، ورسوا القناني.

ودعا السلطان كبراء دولته المظفرة، الى تلك المأدبة الفاخرة.

فأكلوا وشربوا وشملهم البشر والسرور.

كان في تلك الحفلة السلطانية، قادة الجيش، وقادة الممالك، أمثال أقطاي

وبيبرس وطومان، وكان فيها القضاة والسفراء وغيرهم.

وكان تورانشاه يبدو على الغاية من المرح، في ذلك اليوم.

وقد أمر أن يكون الحضور الى المأدبة، بملابس الميدان، تمجيداً لذكرى

المعركة الرهيبة، التي لم تحمد ناراها بعد.

ولعبت الخمر برأس السلطان، وجعل يجمع الشموع الموقدة، ويضرب

رؤوسها بالسيف فيقطعها ويقول: كذا أفعل بالممالك البحرية.

ونظر أمراء الممالك إلى بعضهم البعض، وظنوا أنها مداعبة وملاطفة من

السلطان.

إلا أن السلطان أخذته نشوة النصر مرة أخرى، فكرر فعلته مرة ومرات

على مرأى من الحاضرين جميعاً.

فاشتد غيظ الممالك عليه، ومال بعضهم على بعض، يترادون في الانتقام

منه.

وجعل السلطان ينادي الممالك بأسمائهم، ويهينهم ويسبهم.. فيقول:

أقطاي.. يريد أن يكون أميرًا عليهم.. بيبرس يعتقد أنه سبب النصر، في معركة المنصورة.. كلا.. لن أسمح لهم بالصعود.. لن أسمح للأرقاء بالتطلع إلى مقام السيادة؟!

ثم جمع السلطان عددًا من الشموع، ورصها رصًا.. ثم ضربها بالسيف.. فأطار رؤوسها.. وهو يصيح: كذا أفعل بالبحرية.

فوثب بيبرس وثبته التاريخية التي اشتهر بها في المعارك الكبرى، واستل سيفه.. وضرب به السلطان، ليحتز عنقه، وهو يصيح: بل كذلك نفعل!!!

فتلقاه السلطان بيده، فقطع بعض أصابعه.

فلما رأى المدعوون ما جرى.. انفضوا على خوف ورعب!!!

بينما وقف بيبرس يزار كالأسد: نحن اصطلينا بنارها، وقاتلنا الأعداء، وقهرناهم، ليكون جزاؤنا منك أيها الغادر، قطع الرقاب.. والله لا يهدأ لنا بال حتى نتمم عليك!!!

أما السلطان تورانشاه، فقام من وقته، ودخل البرج الخشب الذي كان قد عمل هناك بفارسكور.. وصاح: من جرحني؟.

قالوا: الخيشية...

فقال: لا والله... الا البحرية، والله الا أبقيت مهم بقية.

واستدعى المزين، فخط يده، وهو يتوعدهم.

فقال بعضهم لبعض: تمموه وإلا أبادكم.

فدخل أمراء المماليك عليه البرج يقاتلونه، فانهزم الى أعلى البرج.

فأوقدوا النيران حول البرج.. ورموه بالنشاب.

فرمى بنفسه، وهرب نحو البرج وهو يقول: ما أريد ملكًا.. دعوني أرجع

إلى الحصن.. ما فيكم من يصطنعني؟.

والعساكر واقفة فما أجابه أحد.

والنشاب تأخذه.. فنعلق بذيل الفارس أقطاي، فما أجاره..
فألقي السلطان بنفسه الى النيل، بعد أن شوته النار، فألقى أقطاي بنفسه
وراءه في اليمّ، فأجهز عليه بالسيف في الماء.
ثم حملت جثته الى الجسر، وبقي على جانب البحر ثلاثة أيام منتفخًا، لا
يجسر أحد أن يدفنه، حتى شفّع فيه رسول الخليفة، فحمل إلى ذلك الجانب
فدفن به.
وكان قتله يوم الاثنين، سابع عشرين المحرم، من سنة ثمان وأربعين
وستائة... وكان قدومه من حصن كيفا إلى المنصورة... في ليلة مستهل
المحرم من السنة المذكورة...
وكان ذلك جزاء استهتاره!!!

وبيرس ...

هو الذي أشار ...

بقتل رُسُل هولاكو...؟!!

رأينا في الفصل السابق... كيف أن ببيرس هو الذي انتفض من
دون سائر أمراء المماليك البحرية...

وانقضَّ فجأة على السلطان المعظم تورانشاه... بسيفه يقتله...

رغم أن السلطان كان يهدد جميع أمراء المماليك...

فلماذا ببيرس بالذات... هو الذي انتفض من بينهم جميعاً...

وانقضَّ يحتزُّ رقبة السلطان!؟

إنها صفة أصيلة في ببيرس... يسارع الى سيفه... اذا رأى شيئاً لا

يعجبه... أو فيه أدنى مساس بحقه في الحياة!!!

وإليك الآن أعظم مشهد من مشاهد الجرأة الخارقة من

ببيرس...

أرسل هولاًكو بعثة تهديد الى السلطان قُطز... ومعهم كتاب فيه

إنذار وقح... إمّا الاستسلام وإمّا الدمار والعار والإبادة...

وشاور السلطان قُطز... أتاك العساكر... ببيرس... وكان اذ

ذاك قائداً عاماً للجيش...

قالوا: وشارو السلطان أتاكه ببيرس...

فأشار ببيرس أن يُقتل رُسُل هولاًكو...

فأمر السلطان بقتلهم جميعاً... إلا واحداً... وأن يُطاف برؤسهم في
القاهرة!!!

فما معنى هذا!!؟

معناه أن القائد العام... بيبرس... يُعلن الحرب على أعظم طاغية
عسكري في العالم آنذاك... على جَبَّار المَعارك الذي لم يُهزَم قطّ...
هولاكو قائد قوات التتار...

فما معنى هذا!!؟

معناه أن بيبرس قد واثته صفته الأصيلة... صفة الانقضاض على
فريسته... أيًا ما كانت تلك الفريسة قوة واقتداراً!!!
وفريسته هذه المرة... شيئاً رهيباً ضخماً... جيشاً خَرَّ العالم كله
أمامه جثياً!!!

ولكن... ليكن... إنه بيبرس... لا يبالي بحجم غريمه...

إنها صفات الأسد... إذا رأى أن يهجم هَجَم!!!

ولقد كانت هذه الصفة من بيبرس... مصدر خير له دائماً...
ومنع الخير للأمة كلها من بعده!!!

إنه حين أشار على قُطز أن يحتز رقاب رُسُل هولاكو... إنما كان
يعلن الحرب في أعنف حالات إعلان الحرب...

وما له لا يفعل... وقد بعث اللعين هولاكو... يخاطبهم على أنهم
حثة لا ينبغي أن تتأبى عليه... بل عليهم أن يسارعوا رُكعاً
ورُعَباً!!!

فكما ينقض عليك الأسد إذا هيَّجته لا يبالي من أنت... فإن بيبرس
هنا حين استثاره هولاكو... انقضض عليه لا يبالي من هُوَ هُوَ هولاكو!!!
فكانت خيراً وبركة ومفتاحاً للنصر في «عين جالوت»... ثم في
جميع معارك بيبرس مع التتار أثناء سلطنته بعد ذلك!!!

وصدق الصديق حين أوصى سيف الله المسلول: احرص على الموت
توهب لك الحياة!!!

وقد كانت هذه الصفة... غريزة وفطرة في تركيب بيبرس...
يؤكد ذلك ما أشار به من قتل رُسل هولوكو...
وما كان منه حين انقض على الأمير أرتوا فسقط يشخب دمًا!!!
وحين انقضى على السلطان تورانشاه... لولا أن اتقى الضربة...
بيده... فأطارت أصابعه...

وحين انقض هاهنا أمرا بقتل الرُسل التريين... فذبحوا كما
أمر... وطاقوا برؤوسهم ليلاً في القاهرة!!!
فكانت إعلاناً للحرب على التتار!!!
وردًا للصفعة بعشر أمثالها!!!
وعزّة... وإقدامًا... وفتحًا... ونصرًا عزيزًا!!!

وبيرس ...

هو البطل الأسطوري ...

في معركة عين جالوت ...!؟

رأينا في الفصل السابق... كيف أشار الأسد الضاري... بقتل رُسُل
هولاكو... فقتلوا!!!

فهل فعل كما يفعل القادة العسكريون الجبناء... حين يصرون
أوامرهم وهم على مكاتبهم... ولا ينزلون بأنفسهم الى الالتحام مع
الأعداء!!؟

كلا... بل قتل رُسُل هولاكو...
وسارع إليه على رأس الجيش...
ليلتقي بنفسه مع جيش هولاكو... هذا الخسيس الذي ظنَّ أنَّ أحدًا
لا يجرؤ على مقاومته في الأرض!!!

فماذا كان من بيبرس في معركة عين جالوت؟!
وأيهما أعظم شجاعة في المعركة... قُطز... أم بيبرس؟!
أمَّا قُطز فقد كان يباشر القتال بنفسه... يبحث عن الموت...
وأمَّا بيبرس فقد كان يبحث عن ضحاياه... ليذيقهم الموت... ولا
مانع أن يموت أثناء ذلك!!!
ولا تستطيع أن تحيب عن هذا السؤال... لأن كليهما كان فارسًا
فيها وشجاعًا ومقدامًا...

وكلاهما انتزع النصر انتزاعًا!!!
كان الفارس الرائع... السلطان قُطز... يقاتل عاري الرأس... قد

ألقى خوذته!!!
وكان الفارس الرهيب بيبرس يصرع الفرسان كأنما هو أسد يطارد
طائفة من الغزلان!!!
إذا اشتد اعجابك بشجاعة قُطز... نازعتك نفسك اعجابا بشجاعة
بيبرس!!!

عملاقان... كل منهما أعظم من أخيه...
تقاسما مجد « عين جالوت »...
وأدارا عجلة التاريخ...
قُطز أدارها بيمينه!!!
وبيبرس أدارها بشماله!!!
قسما مجد في معركة مجيدة!!!

بيبرس في عين جالوت!؟

قالوا:
« فكان الملتقى بمنزلة عين جالوت...
« فلما التقى الجمعان... حمل السلطان الملك المظفر بنفسه...
« وألقى خوذته عن رأسه... »
اقول... حتى هنا الشرف منعقد فوق رأس قُطز... فماذا عن بيبرس؟...
« وحملت الأمراء البحرية...
« والعساكر المصرية... حملة صادقة...
« فكسروهم أشد كسرة...
« وقتل كتبغانوين في المعركة...
« وقتل أكثر التتار »!!!

عبقورية بيبرس؟!!

« وجهزت خيل الطلب وراء مَنْ هَمَّ بالفرار ...
« وكان المقدم عليها ... الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري ...
« فتبع المنهزمين ...
« وأتى عليهم قتلا وأسرًا ...
« حتى استأصل شأفتهم ...
« فلم يفلت أحد منهم ... »!!!
اقول ... هذا بيبرس ... ثم ماذا؟!!

ابادة ألفين آخرين؟!!

« وصادفت طائفة من التتار جاءت من عند هلاون ... مَدَا
لكتبغا ...
« فلما وصلت هذه النجدة إلى بلد حمص ...
« صادفت التتار منهزمين على أسوأ الأحوال ...
« والخيول تجول في طلبهم كل مجال ...
« فلم تمكنهم الهزيمة^(١) ... فكانوا للسيوف غنيمة ...
« وكانت عدتهم ألفين ... فلم يبق لهم أثر ولا عين ... »!!!
اقول ... هذا بيبرس في معركة عين جالوت ... ثم ها هو يُصَفِّي الهاربين
من المعركة في كل مكان ... ثم ها هو يُجهز على المَدَد بأكمله ... ويبيد ألفين

(١) المقصود أنه لم يمكنهم الهرب والفرار .

من قادة التتار وجنودهم !!!
وهو في كل هذه المواطن سباقاً الى العدو بنفسه ... يسبق المهاجمين الى كل
خطر !!!

وبيرس ...
هو أول من ضرب ...
السلطان قُطْرُ ...
بسيفه ...!؟

قال الراوي:

لما قرر السلطان الملك المظفر قُطُز... أمور الشام... سار من دمشق إلى
جهة الديار المصرية...
وفي نفوس البحرية منه... ومن أستاذه قبله... من قتلها الفارس
أقطاي...

واستبادهما بالملك...

وإلجائهم إلى الهرب... والهجاج... والتنقل في الفجاج...
إلى غير ذلك من أنواع الأهوان التي قاسوها... والمشقات التي لابسوها...
وإنما انحازوا إليه لما تعذّر عليهم المقام بالشام...
وللتناصر على صيانة الإسلام...
لا لأنهم أخلصوا له الولاء... أو رضوا له بالاستيلاء!!!

وقد ينبت المرعى على ديمّن الثرى وتبقى حزازاتُ النفوس كما هيا

بيبرس يتفق على قتل قُطز؟!!

فاتفق الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري ...
والأمير سيف الدين أنص الأصفهاني ...
والأمير سيف الدين بلبان الرشدي ...
والأمير بدر الدين بكتوت الجوكانداري ...
والأمير سيف الدين تيدغان ...
ومن معهم ... على قتله!!!
وحعلدا يترصدون له وقتاً لانتهاز فرصتهم ... وإمضاء عزيمتهم ...
فلا يجدون سبيلاً إلى ما هموا بفعله ... ولا تمكننا من الوثوب به وقتله ...
إني أن أفضي بهم السيرُ إلى منزلة القُصيرِ بطرف الرمل ... بينه وبين
لصاحبة مرحلة .
وقد سق الدهليزُ إلى الصاحبة ...
وقالوا: متى فأننا من هذه المنزلة وصل إلى القلعة ... وأعجزنا مرامه ...
وم نأسي انتقامه!!!

فعاجله البندقداري بالسيف؟!!

واتفق انه انفرد عن المواكب لصيد الأرنب ... ساق خلف أرنب عرض
له .. وهم يرمقونه ...
فلما رأوه قد بُعد عن الأطلاب ...
قالوا: الآن ندرك الطلاب ...
وساقوا في إثره ركضا ... وجاءوا يتلو بعضهم ...

فتقدّم إليه أنص الأصفهاني كأنه يشفع عنده في إصلاح حال الركن
بيرس البندقداري... لأنه أقام في الخدمة مُدّة... ولم يعين له عدّة... وخرج
إلى الغزاة برححه... وبذل فيها غاية نصحه...
فأجابه المظفر إلى سُؤاله... ووعدّه بإصلاح حاله...
فأهوى إلى يده كأنه يقبلها...
فأمسكها أنص... وضبطها!!!
فأيقن المظفر أنه قد ختل وخذع... وأن ذلك الأمر قد أبرم
ووضع!!!

وأراد أن يجذب سيفه ليدفع عن نفسه...
فعاجله البندقداري بالسيف!!!
وأخذته السيوف!!!
فخرّ صريعاً... يَمْجُ دَمًا ونَجِيعًا!!!
وذلك في سابع عشر... ذي القعدة من هذه السنة!!!

☆ ☆ ☆

اقول... واضح من هذه الرواية أنّ بيرس هو أوّل من عاجل السلطان
قُطز بسيفه... لم يسبقه أحد الى ذلك الأمر الرهيب!!!
بل الرواية الآتية تؤكد ذلك:
« ويقال: لما أجاب المظفر إلى كلام أنص... أهوى لتقبيل يده...
فقبض عليها...

وحمل عليه بيرس البندقداري حينئذ...
وضربه بالسيف!!!
واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه!!!

ثم قتلوه بالنشاب...»!!!
وهكذا... بيبرس أولاً... هو أوّل من يقتحم المخاطر... لا يسبقه أحد
إلى الأهوال!!!
بل الرواية القادمة... تؤكد أنه ليس فقط كان أوّل من اقتحم... بل
وباشر الجريمة وحده... لم يُشرك معه أحداً!!!
شأنه في ذلك شأن الأسد في الغابة... إذا لمح عن بُعد فريسة ما...
انقضّ عليها وحده... لا يسمح لأحد أن يشاركه تلك اللذة... لذّة التفرد
بالانقضاض!!!
فعل ذلك بيبرس... حين انقضّ على غريمه قُطز...
فكيف كان ذلك؟!
« ذكر ابن عبد الظاهر...
« أن بيبرس هو الذي قتل قُطز بمفرده... فقال:
« وفعل السلطان الملك الظاهر ما فعله بنفسه...
« وبلغ غرضه بمفرده!!!
« وذلك بين العساكر العظيمة... والاحتراز الشديد!!!
« وما قدر أحد أن يتكلم!!!
« ولا جسر أن يمد يده إليه...»!!!
اقول... هذه الرواية صريحة... أن بيبرس كانت فيه هذه الصفة... صفة
الانفراد بالانقضاض على الفريسة... وهي صفة أصيلة في الأسد... ينقضّ
وحده على فريسته!!!
وصدق من لقب بيبرس... بالأسد الضّاري!!!

السلطان ...

الملك الظاهر ...

بيبرس البندقداري ...؟!

قال الراوي:
ذِكْرُ سَلْطَنَةِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ ...
وهو الأسد الضاري ... ببيرس البندقداري ...

مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ؟!!

ولما وصل ببيرس... وهو والجماعة الذين قتلوا الملك المظفر المذكور إلى
الدھليز...

كان عند الدھليز... نائب السلطنة... فارس الدين أقطاي المستعرب...
وهو الذي كان أتابكا لنور الدين علي... ابن الملك المعزّ أيبك التركماني...
بعد الحلبي...

فلما تسلطن قُطُزُ أقرّه على نيابة السلطنة بالديار المصرية...

فلما وصل ببيرس البندقداري مع الجماعة الذين قتلوه...

سأله أقطاي المستعرب وقال: مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ؟ ...

فقال ببيرس: أنا قتلته ...

قال أقطاي: يا خوند... اجلس في مرتبة السلطنة مكانه!!!

فجلس!!!

وتلقَّب بالملك الظاهر؟!!

واستدعيت العساكر للنحليف...
فحلفوا له في اليوم الذي قُتل فيه قُطز!!!
(وهو سابع عشر ذي القعدة... من سنة ثمان وخمسين وستائة)...
واستقر بيبرس في السلطنة...
وتلقَّب بالملك القاهر!!!
ثم بعد ذلك غيَّر لقبه...
وتلقَّب بالملك الظاهر...
لأنه بلغه أن القاهر لقبٌ غير مبارك!!!

استقبال بيبرس... بنفس الزينة... التي أعدت لقُطز؟!!

وكان بيبرس هذا... قد سأل من قُطز نيابة حلب... فلم يُجبه إليها..
ليكون ما قدر الله تعالى!!!
فكأنَّ القَدَرَ قال له حين سأل نيابة حلب: لا تستعجل فإنك عن قريب
تتولى السلطنة!!!
ولما حلف الناس له بالصلاحية...
ساق في جماعة من أصحابه... وسبق العسكر إلى قلعة الجبل...
ففتحت له ودخلها...
واستقرت قدمه في المملكة!!!
وكانت مصر... والقاهرة... قد زِينتا لقدم الملك المظفر قُطز...

فاستمرت الزينة للملك الظاهر بيبرس البندقداري...
فسبحان الله الفعال لما يريد!!!

لماذا عدل بيبرس عن لقب الملك القاهر؟!

وقال ابن كثير:
ولما قتل الأمراء السلطان المظفر قُطِر... حاروا فيما بينهم لمن يملكون
عليهم؟...
وصار كل واحد منهم يخشى غائلة ذلك... وأنه يُقتل سريعاً...
ثم انفقت كلمتهم على أن بايعوا الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري...
ولم يكن من أكابر المقدمين... ولكن أرادوا أن يُجربوا فيه!!!
ولقبوه الملك القاهر!!!
فقال له الوزير: إن هذا اللقب لم يفلح من تلقب به...
فقد تلقب به القاهر بن المعتضد... فلم تطل أيامه حتى خلع وسُمل!!!
وتلقب به القاهر ابن صاحب الموصل... فسُمّ فمات!!!
قيل: لما قتل الأمير بيدرا السلطان الملك الأشرف خليل ابن الملك المنصور
قلاون... تسلطن وتلقب بالملك القاهر... وضربت رقبتة من يومه!!!
ولما سمع بيبرس بذلك...
عدل عن القاهر... إلى الملك الظاهر!!!

في ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨ هجرية

جلس على العرش

وقالوا :

استقرَّ الملك الظاهر في السلطنة ... يوم قُتِل المظفر ...
وهو يوم السبت ... السابع عشر ... من ذي القعدة من هذه السنة ...
وطلع القلعة سحر يوم الاثنين التاسع عشر منه ...
وابتدأ بأخلاف الأمراء ... والأكابر ... وسائر العساكر ... والوزراء ...
والحكام ... وأرباب الوظائف والأقلام ... على الاختلاف في مراتبهم
وطبقاتهم ...

فحلفوا جميعاً !!!

وصرف همته إلى تدبير دولته ... وتمهيد مملكته ...
واستمالة الخواطر ... واستجلاب قلوب الأكابر ...
والتحليل على من تجب الحيلة عليه ...
والترغيب لمن تُمِيله الرغبة إليه ...
وانقضت هذه السنة ... ولم يركب موكب السلطنة حتى وكَّد الأسباب ...
وسدَّ ما يخاف فتحه من الأبواب !!!

مَنْ هو الذي علاه بسيفه ...

وعاجله أوَّلاً بجثته؟!!

وقالوا :

لما قتلوا قُطز ... كانت أوائل العسكر قد وصلت الى المنزلة ...

ولم يشعروا بما كان... ولا علموا بعدم السلطان!!!
ثم لما نزل الأمراء الذين قتلوه... وتشاوروا فيمن يقوم بالأمر... وتردد
الكلام بينهم...

فمنهم من يظهر الامتناع... ومنهم من يأبى الاستماع!!!
فقال لهم الأمير فارس الدين أقطاي... الأتابك المستعرب:
من هو الذي علاه بسيفه... وعاجله أولاً بحتفه؟...
فقالوا: الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري!!!

الضارب الأول أولى؟!!

فقال: الضارب الأول أولى... ونحن نراه للملك أهلاً!!!
فأجمعوا رأيهم عليه...
وأجلسوه على الطراحة الملوكة...
ووقفوا بين يديه!!!
ورأوا أن المصلحة في السرعة... وطلوع القلعة قبل أن يَفُش الأمر...
ويشعر به خوشداشيه المظفر وإلزامه... فربما ينتقض ما أبرم احكامه...

السباق إلى القلعة...

قبل أن ينتشر الخبر؟!!

فركبوا مسرعين... وساروا سابقين...
وقدموا الأمير عز الدين أيدمر الحلبي... ليسبقهم إلى القلعة...

فيستفتح لهم الأبواب ... ويستصلح النّواب ...
فسبق وطلع إليها ...
وتحدث مع الأمراء المقيمين بها ...
وأعلمهم أن المظفر قد قُتل ..
والبندقاريّ قد مَلَكَ ... ووَصَلَ !!!
وأن انفقوا على الرضى به والحلف له !!!
فاستحلفهم الأيمان المؤكّدة ... وقرر معهم القاعدة ...
وأقبل الركن البندقاريّ ...
فتوقل غارب قلّتها^(١) ... وتسّم كاهل ذروتها ...
بغير ممانع يمانعه ... ولا معارض يعارضه !!!
ورحل العسكر من نلك المنزلة على الإثر ... وقد تنسّموا أنفاس الخير ...
فوصلوا إلى القاهرة والحلّ قد استتم ... والظاهر قد استقرّ له الملك
وانتظم !!!

(١) أي صعد إلى أعلى مكان بالقلعه .

أنا مع مَنْ ...

يملك الديار المصرية ...

كائناً مَنْ كان ...!؟

قال الراوي:^(١)

ذِكْرُ سَلْطَنَةِ الْمَلِكِ الْمُجَاهِدِ فِي دِمَشْقٍ ...

قد ذكرنا أن السلطان الملك المظفر قُطُز... لما انتصر على التتار... ودخل

دمشق...

ولّى عليها الأمير علم الدين سنجر الحلبي... أحد الأتراك...

ولما استقر فيها نائباً شرع في العشر الأخير من ذي القعدة في عمارة قلعة

دمشق...

وجمع لها الصنائع وكبراء الدولة والناس... وعملوا فيها حتى عملت النساء

أيضاً...

وكان عند الناس بذلك سرور عظيم...

(١) الاقتباس في هذا الفصل والفصول القادمة من كتاب «عقد الجاهل... في تاريخ أهل الزمان».

الأمير يدعو الى نفسه ويتسلطن؟!!

ثم في العشر الأول من ذي الحجة من هذه السنة... دعا الناس إلى نفسه... ولقّب نفسه بالملك المجاهد!!!
وذلك لما بلغه مقتل المظفر قُطز...
ودخل القلعة... واستقرّ فيها زاعماً أنه سلطان!!!
قال ابن كثير:
ولما جاءت البيعة للملك الظاهر بيبرس... خطب له يوم الجمعة السادس من ذي الحجة...
فدعى الخطيب للظاهر أولاً... ثم للمجاهد ثانياً...
وضربت السكة باسمها معاً أيضاً!!!

الملك المجاهد؟!!

وفي تاريخ المؤيد:
ولما بلغ علم الدين سنجر الحلبي الذي استنابه المظفر قطز على دمشق قتلُ قُطز...
جمع الناس وحلّفهم لنفسه بالسلطنة!!!
وذلك في العشر الأول من ذي الحجة... من سنة ثمان وخمسين وستائة...
فأجابته الناس الى ذلك... وحلفوا له... ولم يتأخّر عنه أحد!!!
ولقّب نفسه بالملك المجاهد!!!
وخطب له بالسلطنة!!!
وضربت السكة باسمه!!!

وكاتب الملك المنصور صاحب حماة في ذلك فلم يجبه وقال:
أنا مع مَنْ يملك الديار المصرية... كائناً مَنْ كان!!!

☆ ☆ ☆

أقول... كان هذا أول المتاعب التي واجهت بيبرس...
إلا أنه واجهها بجزم وعزم... فكيف كان مسار الأحداث؟

هزيمة ...

ساحقة ...

للتَّار...!؟

قال الراوي:
ذِكْرُ عَوْدِ التتارِ إلى الشام...
وفي هذه السنة تحرك التتار... وتوجهوا إلى جهة الشام...
وفي يوم الجمعة خامس المحرم من السنة الآتية... وهي سنة تسع
وخمسين وستائة...
كانت كسرة التتار على حمص...

كيف هُزِمَ التتار؟!؟

وكانت التتار ساروا اليهم...
فاجتمعت العساكر الحلبية والحموية والحمصية... مع صاحب حمص الملك
الأشرف...
وانفقوا على ملاقاتة التتار...
فالتقوا بظاهر حمص... في نهار الجمعة المذكور...
وكان التتار أكثر من المسلمين بكثير...
ففتح الله عز وجل على المسلمين بالنصر!!!
وولت التتار منهزمين!!! وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون منهم

كيف شاءوا!!!
وقال ابن كثير:
وكانت كسرة التتار على حمص... قريباً من قبر خالد بن الوليد
رضي الله عنه...
وكانت أعظم من كسرة عين جالوت بكثير... لكثرة التتار...
وقلة المسلمين...
وكانت التتار في ستة آلاف...
والمسلمون ألف وأربعمائة!!!
وبعد أربعة أشهر توجه التتار من حلب الى الشرق!!!

لعبة سياسية بارعة ...

بيبرس يلغي الضرائب ...

التي فرضها قُطز ...!؟

قال الراوي:
ذكر بقية الحوادث في هذه السنة:
منها: أن السلطان الملك الظاهر بيبرس ...
كتب للناس مسموحًا ... بما كان الملك المظفر قُطز قد قرّره
عليهم ...
وهو ستائة ألف دينار في كل سنة ... تحيي من الناس بغير سبب!!!

بيبرس يلغي جميع الضرائب!؟

ذكر المقرئ أن قُطز:
«أحدث في هذه السنة حوادث كثيرة عند حركته لقتال التتر:
منها تصقيع الأملاك وتقويمها ...
وأخذ زكاتها من أربابها ...
وأخذ من كل واحد من الناس ... من جميع أهل إقليم مصر ...
دينارًا ...
وأخذ من الترك الأهلية (التركات) ثلثها ...

فأبطل الملك الظاهر جميع ما أحدثه قُطْزُ « !!!

☆ ☆ ☆

أقول ... هذا دليل على عبقرية بيبرس السياسية ...
والسياسة لعبة مكر ودهاء والأعيب ...
وهذه لعبة بارعة ... ينتزع بها بيبرس تصفيق جميع المصريين ...
لقد أثقلهم قُطْزُ بالضرائب لزوم المعركة مع التتار ...
وقد انتهت المعركة ... وجاء النصر بأغاريده ...
وها هو بيبرس يلغي جميع الضرائب التي فرضها قطز !!!
فينتزع بذلك حُبَّهم ... وترتفع أيديهم بالتصفيق له طويلاً !!!
إنَّ بيبرس رجل دولة من الطراز الأعظم !!!
إنه يعلم كيف يسوس الشعوب ... وكيف ينال إعجابها !!!

بيبرس ...

يقضي على الثورة ...

ويصلب القائمين بها ...!؟

ومنها :
أنَّ جمعًا من السودان ...
اجتمعوا بالقاهرة ... والركبديَّة^(١) ... والغلمان^(٢) ...
وخرجوا بليل ... في وسط المدينة ينادون « يا آل عليّ » !!!

الثوَّار يستولون على الأسلحة؟!

وفتحوا دكاكين السيوفيين بين القصرين ...
وأخذوا ما فيها من السلاح !!!
وأخذوا خيل الجند من بعض الإصطبلات !!!

(١) هم الدين يحملون العاشية بين يدي السلطان في المواكب ... وهم تابعون للركاب خاناة أي بيت الركاب ...

(٢) العلمان: جمع علام ... وهو الصبي الصغير والمملوك .. ثم غلب على من يقوم بخدمة الخيل من أرباب الخدم.

الزعيم المتمشيخ؟!

وكان الباعث لهم علي ذلك شخص يعرف بالكوراني ...
تظاهر بالزهد والمشيخة ...
وعمل له قبة على الجبل الأحمر ... وأقام بها ...
وتردّد بعض الغلمان إليه ... وأقبلوا عليه!!!
فأجرى معهم هذا الأمر ... ووعدهم بالإقطاعات!!!
وكتب لبعضهم رقاعاً ببلاد معينة!!!
فثاروا هذه الثورة!!!

الشوار معلّقين ... ومُصلّبين على باب زويلة؟!

فركبت جماعة من العسكر ... وأحاطوا بهم ...
وأخذوا أخذاً وبيلاً!!!
فأصبحوا مصّلبين على بابي زويلة!!!
وسكنت الفتنة!!!

★ ★ ★

اقول ... واجه بيرس هذه الثورة في عنف شديد ...
وقتلّ القائمين بها تفتيلاً وبيلاً ...
وصلّبهم على بابي زويلة!!!
إنه أسد ... إذا آنس خطراً من بعيد ... انقضّ عليه بكل ما أوتي من
قوة!!!

السلطان ...

يباشر ...

سُلطاته ...!؟

في السنة التاسعة والخمسين بعد الستائة ...

موكب السلطان!؟

في سابع صفر من هذه السنة ...
ركب بشعار السلطنة ... وأظهر المهابة المتمكنة ...
وشقّ المدينة ... وقد زخرفت بالزينة ...
ونثرت عليه الدنانير والدراهم ...
وأفيضت الخلع على الأمراء ... والمقدمين ... والوزراء ...
والمتمممين ... على تفاوت أقدارهم ...
وكتب إلى صاحب المغرب ... وصاحب اليمن ... وملك الشام ...
وشغور الإسلام ... بما قدره الله له من القيام بأمر عباده ... وإيالة
بلاده ...
واستبشرت به القلوب ... وانجلت بدولته الكروب !!!

اعادة تنظيم الدولة؟!!

واستمرّ بالصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير بُرْهَةً يسيرة... ثم
عزله وولى الصاحب بهاء الدين علي بن عماد الدين محمد الوزارة...
وولى القاضي تاج الدين عبد الوهاب بن الأعز خلف الحُكْم...
وقرّر قواعد الدولة على النظام...
وأظهر عزمًا أرهف من حدّ الحسام!!!
وراعى القواعد الصالحية... وتبع الآثار النجمية!!!

القبض على أعضاء مؤامرة لقلب نظام الحُكْم؟!!

ومنها في ربيع الآخر:
قبض الملك الظاهر... على جماعة من الأمراء بلغه عنهم أنهم
يريدون الوثوب عليه!!!

بناء مشهد عين جالوت؟!!

ومنها: أن الظاهر أمر ببناء مشهد على عين جالوت...
لما شاهد من بركة ذلك المكان...
فبني هناك مشهد!!!

السلطان يغري بركة خان بهولا كو؟!

ومنها: أنه كتب إلى بركة بن صاين قان... صاحب البلاد الشمالية... كتابًا يغريه بهلاون... ويعرفه أن جهاده واجب عليه... لتواتر الأخبار بإسلامه... ويلزمه إذا دخل في دين الإسلام أن يجاهد الكفار!!!
اقول... إن بيبرس ليس مجرد سلطان... إنه داعية إلى الله... يعلم ما عليه نحو دينه!!!

تعيين أمير العربان؟!

ومنها: أن الظاهر كتب منشور الإمرة على جميع العربان... للأمير شرف الدين عيسى بن مهنّا... وأحضر أمراء العرب... وأجرى اقطاعاتهم... وسام إليهم خفر البلاد... وألزمهم حفظها إلى حدود العراق!!!
اقول... هذا خبر خطير جدًا... إن حفظ الأمن... في المملكة كلها... موكول إلى العربان... لما يتميزون به من الجرأة والشهامة... وسلطتهم ممتدة بطول البلاد وعرضها إلى حدود العراق... أي إلى آخر حدود الديار الشامية والديار المصرية... حيث إن مملكة بيبرس كانت تشمل بلاد الشام كلها (سوريا ولبنان

وفلسطين والأردن اليوم) فضلًا عن الديار المصرية كلها الى آخر النوبة!!!
هناك تنظيم خطير... اعمال الأمن من اختصاص العربان!!!

هدية الى الامبراطور!؟

ومنها: أن الظاهر جهّز إلى الأتبرور^(١) هدية من جملتها الزراف...
وأرسل إليه جماعة من التتار الأسارى... المأخوذون في نوبة عين
جالوت بخيولهم التتيرية وعُدّتهم!!!
اقول... هذه ليست هدية وانما هي تهديد غير مباشر الى هذا
الامبراطور... كأنه يريد أن يقول له: هذا ما حدث للتتار على أيدينا...
ولست أعزّ علينا منهم!!!

اسلوب بيبرس في مواجهة خصومه!؟

ومنها: أن السلطان كتب الى عام الدين سنجر الحلبي... الذي كان الملك
المظفر قُطز ولاء نيابة دمشق... ثم أنه ركب في دمشق بشعار السلطنة...
وخطب له على المنابر وتلقّب بالملك المجاهد... وذلك حين بلغه مقتل الملك
المظفر...

(١) يقصد بها الامبراطور... والمقصود هنا هو مانفريد بن فردريك الثاني الذي حكم صقلية
وجنوب ايطاليا في الفترة من ١٢٥٨ - ١٢٦٦ م.

فكتب إليه الظاهر يتبَّح هذا الفعل عليه... ويتلطف به في الرجوع عنه...
ثم جرّد إليه الأمر جمال الدين المحمدي ليستمبله ويردّه إلى الصواب...
وأرسل إليه صحبته مائة ألف وخمسة وعشرين ألف درهم...
أنعامًا... وحوائن ذهب... وخلعًا نفيسة...
فأشهد على نفسه بأنه قد نزل عن الأمر... وأنه نائب من نواب
السلطان!!!
ثم لم يلبث أن رجع إلى ما كان عليه من الخلاف...
وركب بشعار السلطنة!!!

بيبرس يرسل جيشًا لسحق الملك المجاهد!؟

فجهز السلطان إليه جيشًا صحبة الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار...
وهو أستاذ السلطان الملك الظاهر...
فوصلوا إلى دمشق في ثالث صفر من هذه السنة...
فخرج إليهم سنجر الحلبي لقتالهم...
وكان صاحب حماة... وصاحب حمص بدمشق... لم يخرجوا مع سنجر
الحلبي... ولا أطاعاه لاضطراب أمره...
ووقع القتال بينهم بظاهر دمشق... في ثالث عشر صفر...
فانهزم الحلبي!!!
وولّى وأصحابه معه... ودخل إلى قلعة دمشق حتى أجنّه الليل...
فهرب من قلعة دمشق إلى جهة بعلبك...
فتبعه العسكر... وقبضوا عليه...
وحمل إلى الديار المصرية...

فاعتقله الظاهر بها ... ثم أطلق!!!
اقول... هذا اسلوب من اساليب الظاهر في مصارعة خصومه... استماله
أولاً باللين والملاطفة والذّهب... فلما لم يفلح معه اسلوب اللين أخذه أخذاً
وبيلاً!!!

قال الراوي:

واستقرت دمشق في ملك الظاهر بيبرس...
وأقيمت له الخطبة بها وبغيرها من الشام مثل حماة وحمص وحلب
وبغيرها...

واستقرّ أيديكين البندقدار الصالح في دمشق لتدبير أمورها...
ولما استقرّ الحال على ذلك... رحل الملك المنصور صاحب حماة...
والأشرف صاحب حمص... وعادا الى بلادها... واستقرّا بها...
وقال بيبرس في تاريخه:

وقرر السلطان الظاهر أن يكون حديث القلعة بدمشق... وأمر
الأموال للأمير علاء الدين طيبرس الوزير الحاج...
ثم رتبته في نيابة السلطنة!!!
وهكذا... صفت البلاد الشامية كلها لبيبرس... فضلاً عن الديار
المصرية!!!

بيبرس ...

يقيم الخلافة العباسية ...

في مصر ...؟!!!

ومنها :

نصب السلطان الملك الظاهر ... الخليفة للمسلمين !!!
وأصل ذلك أن في رجب من هذه السنة قدم الى مصر جماعة من
العرب ...

ومعهم شخص أسمر اللون اسمه أحمد ...
زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله ... ابن الناصر لدين الله ...
وأنه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها التتار ...
فعقد السلطان الملك الظاهر بيبرس مجلساً ...
حضر فيه جماعة من الأكابر ...
منهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام ...
والقاضي تاج الدين عبد الوهاب بن خلف ... المعروف بابن بنت
الأعز ...

فشهد أولئك العرب أن هذا الشخص المذكور ...
هو ابن الظاهر محمد ... ابن الإمام الناصر لدين الله ...
فيكون عم المستعصم بالله ... الذي قتله هلاون^(١) !!!
وأقام القاضي جماعة من الشهود واجتمعوا بأولئك العرب وسمعوا

(١) هلاون: هو هولاكور.

شهادتهم ...
فشهدوا بالنسب بحكم الإستفاضة ...
فأثبت القاضي تاج الدين نسب أحمد المذكور ...
ولقبوه بالمستنصر بالله ... أبا القاسم ... أحمد بن الظاهر بالله محمد ...
وبايعه الملك الظاهر والناس بالخلافة!!!

بيبرس يبايع الخليفة؟!

م اهتم الظاهر بأمره ... وعمل له الدهليز ... والجمدارية ... والسلاح
دارية ... وآلات الخلافة ... واستخدم له عسكرياً ...
وعزم على تجهيزه جملة طائلة ...
قيل : كانت جملتها ألف ألف دينار!!!
وفي تاريخ بيبرس :
وفي التاسع من رجب وصل الإمام أبو العباس أحمد ابن الإمام الظاهر
بالله ... ابن الإمام الناصر لدين الله ... من العراق إلى الديار المصرية ...
وركب السلطان الظاهر للقائه في موكب مشهود ... ومحفل
محفود ...
وأنزله في القلعة ... وبالغ في إكرامه ...
وقصد إثبات نسبه ... وتقرير بيعته ...
لأن الخلافة كانت قد شغرت منذ قتل الإمام المستعصم بالله ...
فسر السلطان باتصال اسبابها ... وتجديد أئوارجها ... وإقامة
منارها ... وإظهار شعارها ...
لتكون ثابتة الأساس ... متصلة في بني العباس ... كما سبقت

الوعود النبوية بأنها خالدة... تالدة في هذه الذرية!!!
فأحضر الأمراء الكبار... ومقدمي العساكر... والوزير... وقاضي
القضاة... ونواب الحكم... والفقهاء... والعلماء... والصلحاء...
وأكابر المشايخ... وأعيان الصوفية...
فاجتمع المحفل بقاعة الأعمدة بقلعة الجبل...
وحضر الخليفة!!!
وتأدّب السلطان معه في الجلوس بغير مرتبة ولا كرسي...
وأمر بإحضار العربان الذين حضروا مع الخليفة من العراق...
فحضروا وحضر خادم من البغاددة... فسئلوا عنه...
هل هو الإمام أحمد بن الظاهر بن المستنصر؟...
فقالوا: إنه هو...
فشهدت جماعة بالاستفاضة وهم:
جمال الدين يحيى... نائب الحكم بمصر...
وعلم الدين بن رشيق...
وصدر الدين موهوب الجزري...
ونجيب الدين الحرّاني...
وسديد الدين التزمّتي... نائب الحكم بالقاهرة...
عند قاضي القضاة... تاج الدين عبد الوهاب...
فأسجل على نفسه بالثبوت...
فقام قاضي القضاة... وأشهد على نفسه بثبوت النسبة..
وسمّي الإمام أحمد بالمستنصر بالله...
وبايعه السلطان على:
كتاب الله...
وسنة رسوله عليه السلام...

والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ...
والجهاد في سبيل الله ...
وأخذ أموال الله بحقها ... وصرفها في مستحقها !!!

الخليفة يُقلد السلطان بيبرس البلاد الإسلامية؟!

وبعد البيعة له ... قلّد الخليفة ... السلطان البلاد الإسلامية ... وما
يضاف إليها ... وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار ...
ثم بايع الناس الإمام على اختلاف طبقاتهم ...
فتمت له الخلافة ... وصحت له الإمامة ...
وكتب السلطان إلى البلاد بأخذ البيعة له ...
وأن يخطب له على المنابر ...
وتنقش الصكّة باسمه ... واسم الملك الظاهر !!!
ولما كان يوم الجمعة السابع عشر من رجب خطب الخليفة بالناس في
جامع القلعة !!!
وقال ابن كثير:
وكان منصب الخلافة شاغراً ثلاث سنين ونصفاً ...
لأن المستعصم بالله قتل في أوائل سنة ست وخمسين وستائة ...
وبويع هذا في يوم الاثنين الثالث عشر من رجب من هذه السنة ...
أعني سنة تسع وخمسين وستائة !!!

الخليفة...

... يُقَدِّد السلطان ...

في حفل مشهود...؟!!

وقال ابن كثير:
ولما كان يوم الاثنين... الرابع من شعبان...
ركب الخليفة... والسلطان...
والوزير... والقضاة... والأمراء...
وأهل الحلّ والعقد...
إلى خيمةٍ عظيمة... قد ضربت بظاهر القاهرة...
فألبس الخليفة... السلطان بيده... خلعةً سوداء...
وطوقاً في عنقه...
وقيداً في رجله... وهما من ذهب!!!
وصعد فخر الدين... إبراهيم بن لقمان... رئيس الكتاب منبراً...
فقرأ عليه تقليد السلطان...
وهو من إنشائه وخط نفسه...
ثم ركب السلطان بهذه الأبهة... والقيد في رجله... والطوق في
عنقه...
والوزير بين يديه... على رأسه التقليد...
والأمراء... والدولة في خدمته... مشاة... سوى الوزير...

فشقَّ القاهرة!!!

وقد زينت له!!!

وكان يوماً مشهوداً!!!

ونسخة التقليد المكتتب عن الخليفة للسلطان:

« الحمد لله الذي اصطفى الإسلام بملابس الشرف... وأظهر بهجة
دُرِّه... وكانت خافية بما استحکم عليها من الصدَف... وشيّد ما
وهي من علّائه حتى أنسى ذكر ما سَلَف... وقبض لنصره مُلوکاً اتفق
على طاعتهم من اختلفَ.

أحمده على نِعَمِهِ التي رتعتُ الأعين منها في الروض الأنف...
وألطافه التي وَقَّتُ للشكر عليها... فليس له عنها مُنصَرَف...

وأشهد أن لا إله إلا الله... وحده لا شريك له، شهادةً توجبُ من
المخاوف أمناً، وتُسَهِّلُ من الأمور ما كان حَزَنًا. وأشهد أن محمداً عبده الذي
جبر من الدين وَهَنًا، ورسوله الذي أظهر من المكارم فنونًا لا فَنًا، صلى الله
عليه وعلى آله. الذين أضحت مناقبهم باقية لا تَفنى، وأصحابه الذين أَحسنوا
في الدين فاستحقُّوا الزيادة في الحُسنى، وسام تسليمًا كثيرًا.

وبعد: فإنَّ أولى الأولياء بتقديم ذكره، وأحقهم أن يُصنح القلمُ ساجدًا
وراكعًا في تسطير مناقبه وبرّه، من سعى فأضحى بسعيه الجميل مُقدِّمًا، ودعا
إلى طاعته فأجاب من كان مُنجدًا ومُتهمًا، وما بدت يدٌ من المكرمات إلا
وكان لها زندًا معصمًا، ولا استباح بسيفه حِمى وغى إلا أضرمه نارًا وأجراه دمًا.

ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصةً بالمقام العالي المولوي السلطاني
الملكي الظاهري الركني، شرفه الله وأعلاه، ذكره الديوانُ العزيزُ النبوي
الإماميُّ المستنصريُّ، أعز الله سلطانه، تنويهاً بشرف قدره، واعترافاً بصنيعه
الذي تنفذ العبارةُ المسهبة ولا تقوم بشكره، وكيف لا؟ وقد أقام الدولة
العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان، وأذهب ما كان لها من محاسن

وإحسان، وعتب دهرها المسيء لها فأعتب، وأرضى عنها زمانها، وقد كان صال عليها صولة مفضب، فأعاده لها سلماً بعد أن كان عليها حرباً، وصرف إليها اهتمامه فرجع كل متضايقٍ من أمورها واسعاً رحباً، ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنوًّا وعطفًا، وأظهر له من الولاء رغبة في ثواب الله ما لا يخفى، وأبدى من الإهتمام بأمر [الشرعية و] البيعة أمرًا لو رامه غيره لامتنع عليه، ولو تمسك بجبله متمسك لانقطع به ٤٦٥ قبل الوصول إليه، لكن الله تعالى ادخر هذه الحسنه ليثقل بها في الميزان ثوابه ويخفف بها يوم القيامة حسابها، والسعيد من خفف حسابها، فهذه منقبة أبي الله إلا أن يخلدها في صحيفة صنعه، ومكرمة قضت لهذا البيت الشريف بجمعه، بعد أن حصل إياس من جمعه.

وأمر المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع، ويعترف أنه لولا اهتمامك بأمره لاتسع الخرق على الراقع، وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية، والديار البكرية، والحجازية، واليمينية، والفراتية، وما يتجدد من الفتوحات غورًا ونجدًا، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت في المكارم فردًا، ولا جعل منها بلدًا من البلاد، ولا حصنًا من الحصون مستثنى، ولا جهة من الجهات تعد في الأعلى ولا الأدنى.

فلاحظ أمور الأمة، فقد أصبحت لها حاملًا، وخلص نفسك من التبعات اليوم ففي الغد تكون مسئولًا ولا سائلًا، ودع الاغترار بأمر الدنيا فما نال أحد منها طائلًا، وما رآها أحد بعين الحق إلا رآها خيالًا زائلًا، فالسعيد من قطع منها آماله الموصولة، وقدم لنفسه زاد التقوى، فتقدمة غير التقوى مردودة لا مقبولة، وابسط يدك بالإحسان والعدل، فقد أمر الله بالعدل والإحسان وكرر ذكره في مواضع من القرآن، وكفر به عن المرء ذنوبًا كتبت عليه وآثامًا، وجعل يومًا واحدًا فيه كعبادة العابد ستين عامًا، وما سلك أحد سبيل العدل إلا واجتنت ثماره من أفنان، ورجع الأمر به بعد تداعي أركانه

وهو مشيد الأركان، وتحصن به من حوادث زمانه، والسعيد من تحصن من حوادث الزمان، وكانت أيامه في الأيام أهدى من الأعياد، وأحسن في الصيون من الفرر في أوجه الجياد، وأحلى من العقود إذا حلي بها عطل الأجياد.

وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نواب وحكام، وأصحاب رأي من أصحاب السيوف والأقلام، فإذا استعنت بأحد منهم في أمورك فنقب عليه تنقيباً، واجعل عليه في تصرفاته رقيباً، وسل عن أحواله ففي يوم القيامة تكون عنه مسئولاً، وبما أجرم مطلوباً، ولا تول منهم إلا من تكون مساعيه حسنات لك لا ذنوباً، وأمرهم بالإناة في الأمور والرفق، ومخالفة الهوى إذا ظهرت لهم أدلة الحق، وأن يقابلوا الضعفاء في حوائجهم بالثغر الباسم، والوجه الطلق، وأن لا يعاملوا أحداً على الإحسان والإساءة إلا بما يستحق، وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعية إخواناً، وأن يوسعوهم برّاً وإحساناً، وأن لا يستحلوا حرمتهم إذا استحل الزمان لهم حرماناً، فالمسلم أخو المسلم ولو كان أميراً عليه أو سلطاناً، والسعيد من نسج ولاته في الخير على منواله، واستنوا بسنته في تصرفاته وأحواله، وتحملوا عنه ما تعجز عن حمل أثقاله.

ومما يؤمرون به أن يمحي ما أحدث من سيء السنن، وجدد من المظالم التي هي على الخلائق من أعظم المحن، وأن يشتري بإبطالها المحامد، فإن المحامد رخيصة بأعلى ثمن، ومهما جبي منها من الأموال فإنما هي باقية في الذمم، وإن كانت حاصلة، وأجياد الخزائن وإن أضحت بها خالية، فإنما هي على الحقيقة منها عاطلة، وهل أشقى ممن احتقب إثمًا، واكتسب بالمساعي الذميمة ذمًا، وجعل السواد الأعظم يوم القيامة له خصمًا، وتحمل ظم الناس فيما صدر عنه من أعماله، ﴿وقد خاب من حمل ظلماً﴾^(١).

وحقيق بالمقام الشريف، المولوي، السلطاني، الملكي، الظاهري، الركني،

(١) سورة طه، آية ١١١.

أن تكون ظلامات الأنام مردودة بعدله، وعزائمه تخفف عن الخلائق ثقلاً لا طاقة لهم بحمله، فقد أضحي على الإحسان قادراً، صنعت له الأيام ما لم تصنعه لمن تقدم من الملوك وإن جاء آخرًا، فاحمد الله على أن وصل إلى جنابك إمام هدى يوجب لك مزية التعظيم، وينبه الخلائق على ما خصك الله به من هذا الفضل العظيم، وهذه أمور يجب أن تلاحظ وترعى، وأن يوالى عليها حمد الله فإن الحمد لله يجب عليها عقلاً وشرعاً، وقد تبين أنك صرت في الأمور أصلاً وصار غيرك فرعاً.

ومما يجب أيضاً تقديم ذكره، أمر الجهاد الذي أضحي على الأمة فرضاً، وهو العمل الذي يرجع به مسود الصحائف مبيضاً، وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم، وأعد لهم عنده المقام الكريم، وخصهم بالجنة التي ﴿لَا لَعْوُ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ﴾^(١)، وقد تقدمت لك في الجهاد يد بيضاء أسرع في سواد الحساد، وعرفت منك عزيمة وهي أمضى مما تجننه ضائر الأعداء، واشتهرت لك مواقف في القتال هي أشهر وأشهى إلى القلوب من الأعياد، وبك صان الله حى الإسلام من أن يبتدل، وبعزمك حفظ على المسلمين نظام هذه الدول، وسيفك أثر في قلوب الكافرين قروحاً لا تندمل، وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه في الأيام الأول.

فأيقظ لنصرة الإسلام جفناً ما كان غافياً ولا هاجعاً، وكن في مجاهدة أعداء الله إماماً متبوعاً لا تابعاً، وأيد كلمة التوحيد فما تجد في تأييدها إلا مطيعاً سامعاً.

ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها، تبتسم له الثغور، وإحتفال يبدل ما دجي من ظلماتها بالنور، واجعل أمرها على الأمور مقدماً، وشيد منها كل ما غادره العدو متهدماً، فهذه حصون بها يحصل الإنتفاع، وبها تحسم الأطماع،

(١) سورة الطور، آية ٢٣.

وهي على العدو داعية افتراق لا اجتماع، وأولاها بالإهتمام ما كان البحر له مجاوراً، والعدو إليه ملتفتاً ناظراً، لا سيما ثغور الديار المصرية، فإن العدو وصل إليها راجحاً وراح خاسراً، واستأصلهم الله فيها حتى ما أقال منهم عاثراً .
وكذلك أمر الأسطول الذي ترى حبله كالأهلة، وركائبه سائقة بغير سائق مستقلة، وهو أخو الجيش السلجاني، فإن ذاك غدت الرياح له حاملة، وهذا تكلفت بحمله المياه السائلة، وإذا لحظها الطرف جارية في البحر كالأعلام، وإذا شبهها قال: هذه ليال تطلع بالأيام.

وقد سنى لك الله من السعادة كل مطلب، وآتاك من أصالة الرأي الذي يريك المغيب، وبسط بعض القبض منك الأمل، ونشط بالسعادة ما كان من كسل، وهداك إلى مناهج الحق، وما زلت مهتدياً إليها، وألزمت المرشد فلا تحتاج إلى تنبيه عليها، والله تعالى يمدك بأسباب نصره، ويوزعك شكر نعمه، فإن النعمة تستم بشكره إن شاء الله تعالى .

★ ★ ★

وركب السلطان، وشق المدينة، وحمل التقليد الأمير جمال الدين النجيبى أستاذ الدار والصاحب بهاء الدين في بعض الطريق، فكان السلطان في موكبه هذا كما قيل:

خَلَعَ خَلَعَنَ مِنَ الْعِدَاةِ قَلُوبَهُمْ وَمَلَأْنَ بِالْإِشْرَاقِ أَبْصَارَ الْمَلَا
لَمَّا طَلَعَتْ بِهَا بَهْرَتَ فَلَمْ تُطَقْ طَرَفَ إِلَيْكَ مِنَ الشَّجَاعِ تَأْمَلَا

★ ★ ★

اقول ... وهكذا جُمع لبيبرس المجد من أطرافه ...
مُلْك يمتد الى ما بعد حلب شمالاً ... الى أقصى النوبة جنوباً ...
ومن الفرات شرقاً ... الى البحر الأبيض المتوسط غرباً !!!
وها هو الخليفة يُقلِّده أمر البلاد كلها ... البلاد الاسلامية ... وما
ينضاف اليها ... وما سيفتحه الله على يديه ...
وها هو يلبسه الخليفة بيده الخلعة السوداء المباركة !!!
وإنك اذا تأملت نصوص التقليد الذي أذيع على ملأ من السادات
والكبراء والعلماء والأمراء ...
أنستَ بلاغةً رائعة ... وبياناً جميلاً ... أخاذاً جذاباً ...
ثم هو بعد ذلك نصيحة خالصة للسلطان ... في قول هينّ ليين ...
وتلمس في ثناياه حرصاً من الجميع ... على نصرة هذا الدين ...
وإشاعة العدل ... وتحقيق المساواة بين الجميع !!!
لقد كان القوم أولى بقية من دين !!!

السلطان بيبرس ...

يتوجه الى الشام ...

ويحكم من دمشق ...!؟

ومنها: أن السلطان الملك الظاهر بيبرس توجه الى الشام... خارجاً
من مصر في السادس من شوال من هذه السنة...
وصحبه العساكر... والخليفة... وحاشيته...
وكان قصد الظاهر تقرير ما تغير من القواعد... وإعادة الأحوال
بدار السلام...

وقال ابن كثير:

وكان سبب خروج السلطان الى الشام...
أن البرلي كان قد استحوذ على حلب...
فأرسل اليه الأمير علم الدين سنجر الحلبي الذي كان قد تغلب على
دمشق... فطرده عن حلب وتسلمها منه... وأقام بها نائباً عن السلطان...
ثم لم يزل البرلي حتى استعادها منه واستولى عليها كما كان...
فاستتاب السلطان على الديار المصرية عز الدين أيدير الحلبي...
وجعل تدبير المملكة بها إلى الوزير بهاء الدين بن حنا...
واستصحب ولده فخر الدين بن الحنا وزير الصحبة...
وجعل تدبير العسكر والجيوش معه إلى الأمير بدر الدين بَيْلَبَك
الخزندار...

اقول... هذا هو بيبرس... أنس في الشام خطراً محتملاً من جهة البرلي

الذي عاد واستولى على حلب...
فسارع بنفسه الى الشام... يدبر أمرها... ويحفظ ثغورها!!!

بيبرس يدخل دمشق ومعه الخليفة!؟

وكان دخول السلطان إلى دمشق... يوم الاثنين سابع ذي القعدة من هذه
السنة...

وكان يوماً مشهوداً!!!
وصلى هو والخليفة الجمعة بجامع دمشق...
وكان دخول الخليفة إلى الجامع من باب البريد...
ودخول السلطان من باب الزيادة...
وكان يوماً مشهوداً!!!

السلطان يرسل جيشاً لمحاربة البرلي!؟

وقدم إليه صاحب حمص... الملك الأتريف... فخلع عليه...
وأطلق له... وكتب له تقليداً ببلاده...
ثم جهز جيشاً صحبة الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار إلى حلب
لمحاربة البرلي... المتغلب عليها المفسد فيها...

بيبرس يعزل الفجّار ويُوَلّي الأبرار!؟

وفي يوم الخميس... ثامن ذي الحجة...
عزل عن قضاء دمشق... النجم بن الصدر بن سني الدولة...
وتولى الحكم القاضي شمس الدين أحمد بن بهاء الدين... بن
خلكان... الذي كان نائباً في الحكم بالقاهرة سنين كثيرة... وجلس
مكان النجم وابنه بالمدرسة العادلية...
ثم وكل على النجم... وأمره بالسفر الى الديار المصرية...
وكان حاكماً جائراً فاجراً ظالماً متعدياً!!!
فاستراح منه البلاد والعباد!!!
ثم سافر القاضي المعزول إلى مصر... تحت الحوطة يوم الخميس
خامس عشر ذي الحجة...
والدعاء عليه كثير... والتظلم منه شائع... والدعاوى عليه
كثيرة!!!

اقول... هذا هو بيبرس... لم يذهب الى الشام للنزهة كما يفعل كثير من
الملوك... كلا وإنما لنزع الطغاة أمثال البرلي بالقوة... وتقرير العُدول في
ممالكهم أمثال صاحب حصص الملك الأشرف... وفصل الجبابرة المجرمين أمثال
هذا القاضي المرتشي الظالم النجم بن الصدر!!!
وهذه هي عبقرية الحُكْم...

ينبغي أن يكون الحاكم... رأس الدولة... حسّاساً غاية الحساسية... يشعر
بمتاعب الجماهير من بُعد... ويسارع الى اتخاذ القرارات اللازمة لتصحيح
الأوضاع... أما أن يكون الحاكم بليداً عديم الإحساس بآلام الجماهير... فإنه
يكون مصيبة يتعوذ الناس من شرورها!!!

العدل يرفرف على بلاد الشام!؟

وفي الغد... يوم الجمعة... قُرَيْءَ بالشبّاك الكمالي بجامع دمشق...
تقليد القضاء للقاضي شمس الدين بن خلكان الإربلي...
ويتضمن أنه فوض إليه الحُكْم في جميع بلاد الشام... من العريش
إلى سلمية...

يستنيب فيها من يراه!!!

وفوض إليه النظر في أوقاف الجامع... والمصالح... والمارستان...
والمدارس وغيرها... مما كان تحت يد الحاكم المعزول...
وفوض إليه تدريس سبع مدارس... كانت تحت يد المعزول
أيضاً...

وفي تاريخ النويري:

ولما سار السلطان الملك الظاهر من مصر إلى الشام...
أمر القاضي شمس الدين بن خلكان... أن يسافر في صحبته من
مصر إلى الشام... فسافر...
ولما دخل السلطان دمشق... عزل عن قضاء دمشق... نجم الدين بن
صدر الدين بن سني الدولة... وولى عوضه القاضي شمس الدين بن
خلكان!!!

ملوك الفرنج يطلبون المثول بين يديه؟!!

ومنها:

أنه جاءت الرسل من جهة جُوانٍ دِلين كُنْد يافا^(١) ...

وغيره من الفرنج الذين بالساحل ...

إلى السلطان الملك الظاهر ... والسلطان في منزلة ماء العوجاء ...

يسألون السلطان الإذن لصاحبهم في حضوره الى الأبواب الشريفة!!!

فأذن لكُنْد يافا المذكور!!!

فأكرمه السلطان ... وأقبل عليه ... وأجاب سؤاله ... ورسم بتقدير

الهدنة له!!!

وصاحب بيروت يُقبَل الأرض أمام بيبرس؟!!

ورسم بتقرير الهدنة له ...

ولصاحب بيروت على حكم القاعدة التي كانت مقررة في الأيام

الناصرية ...

وكتب له منشورا بما في يده من البلاد ...

فقبَل الأرض شكراً ... على هذه النعمة!!!

وعاد!!!

وكثرت الأجلاب ... وأمنت السبل ... وترددت التجار ... وسلكت

السفار ... واندفعت عن أهل السواحل المضار!!!

(١) هو - جون إبلين John of Ibelin صاحب يافا .

اقول... ما معنى هذا ١٩

معناه أن بيبرس أوتي من عبقرية السياسة حظًا عظيمًا!!!
لا مركزية عنده في الحُكْم... كما يفعل مهاويس الديكتاتوريين حين
يصرون على الرجوع اليهم في كل صغير وكبير من الأمور...
كَلَّا... وإنما هو يعزل قاضي قضاة الشام المجرم... ويُعيّن مكانه ابن
خلبان القاضي العادل الرحيم... ثم يطلق له حرية التصرف في سائر بلاد
الشام... من اعلاها الى ادناها بالعرش... يتصرف كما يشاء!!!
وهذا يدل على عبقرية من بيبرس... إنه ينزع الفاسد... ويُؤلّي
الصالح... ثم يترك للصالح حرية التصرف فيما تحت يده!!!
وبهذا انزاح كابوس... وجاء مكانه رحمة واسعة... رحمة العدل بين
الناس!!!
ليس هذا وحده... وإنما هو يدع لكل حاكم إقليمه أو بلده التي يجبها
وتحبه...

حتى الفرنجة الذين كانوا ما زالت بأيديهم بعض بلاد ساحل الشام...
جاءوا يلتمسون منه الصفح وأن يتركهم وبلادهم!!!
جُون... صاحب يافا... يحضر بعد الإذن له... ويكرمه السلطان...
ويُقبل عليه ويلطفه... ويرسم له بتقدير الهدنة السابقة!!!
وصاحب بيروت... يكتب له منشورًا بما في يده من البلاد!!!
ولم يتألك الرجل... فقَبّل الأرض بين يدي بيبرس... شكرًا على
هذه النعمة!!!

إن بيبرس ليس ديكتاتورًا... وإنما يحكم بالعدل... ومن العدل ان
يترك كل أمير حيث هو لأنه أعرف الناس بما يصلح بلده وولايته...
فعل ذلك مع أمراء المسلمين حين جاءوه من فجاج الشام...
وقَعله مع أمراء الفرنج... حين التمسوا المثول بين يديه!!!

فماذا كانت نتيجة ذلك؟!
« وكثرت الأجلاب... وأمنت السبل... وترددت التجار...
وسلكت السفار... واندفعت عن أهل السواحل المضار!!!
وليس كالعذل أساس للرخاء والأمن والاستقرار!!!

الملوك يتوافدون ويعلمون الولاء؟!!

ومنها:
أنه وصل إلى السلطان رسول الأشكري^(١)... ببذل المودة
والمساعدة!!!

ومنها:
أنه حضر إلى خدمة السلطان... وهو في الشام...
الملك المنصور...
والملك الأشرف صاحب حمص...
فتلقاها بالإكرام... وحبها بالإنعام!!!
وأرسل إليها شعار السلطنة!!!
فركب كل منها... وكتب لها التقاليد بمالكها!!!
وزاد كل منها على ما بيده!!!
فزاد المنصور صاحب حماة بلاد الإسماعيلية!!!
والملك الأشرف تل باشر!!!
وأعادها إلى مستقرها!!!
أقول... هكذا كانت عبقريته السياسية...

(١) المقصود الامراطور البيزطي وهو الامراطور ميخائيل الثامن باليولوجس.

يُعطي كلاً مما يُحبّ... لا يستأثر لنفسه بشيء!!!
وإنما يجمع حوله الرجال... ويرضيههم ويؤمن عليهم... فيطوّق أعناقهم
بالجميل!!!

وأعيان الدولة الأيوبية يعاملهم بالإنعام الجزيل!؟

وحضر لخدمته الملك الزاهد... أسد الدين شيركوه...
والملك الأعمد... بن العادل صاحب بعلبك...
والمنصور والسعيد... ولدا الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ابن
الملك العلال الكبير...
والملك الأعمد بن الملك الناصر داود...
والملك الأشرف بن الملك المسعود...
والقاهر بن المعظم...
فعاملهم بالجميل... والإنعام الجزيل!!!
وهؤلاء من أعيان الذرية الأيوبية...
وفدوا إلى خدلته!!!
ومثلوا بحضرتة!!!
ووطنوا بساطه!!!
وأكلوا سباطه!!!
فكان هذا من أمارت الإقبال... وسعادة جد دولته الآمنة من
الزوال!!!

اقول... عبقرية أخرى من فنون عبقرية بيبرس!!!
ملوك وأمراء الأسرة المالكة السابقة... أسرة بني أيوب...

وما أدراك ما تلك الأسرة!!!
مؤسسها البطل الخالد صلاح الدين الأيوبي...
وتسلسل الملك في أبنائه وإخوته وأحفاده... يُظلل الشام ومصر وما حولها
فحوا من تسعين عامًا!!!
ثم جاء من بعدهم حكم المماليك...
عز الدين أيبك... ثم قُطز...
ثم بيبرس هذا...
وكان المفروض لو أنّ بيبرس كان من الملوك الأخسّة أن ينكل بأمراء
تلك الأسرة ويتوجس منهم خيفة على عرشه...
ولكن لم يفعل... وإنما أنزلهم منازلهم... وأكرمهم إكرامًا عظيمًا...
ولم ينس أنه كان عبدًا مملوكًا... اشتراه آخر ملوكهم السلطان الملك
الصالح نجم الدين أيوب... ثم أعتقه...
فعاملهم أجل معاملة... وبالغ في الحفاوة بهم... تعظيمًا لشأنهم... ورحمةً
بهم!!!
إنّ معدن بيبرس معدن كريم!!!
يزداد صفاء كلما صادف واقعة تبرز حقيقته!!!
« وارجحوا عزيز قوم ذكّ »!!!

مِن أحداث ...

السنة الستين ...

بعد الستائة ...

المثيرة...!؟

قتل الخليفة المُستنصر بالله!؟

قد ذكرنا أنه بويغ له في رجب من السنة الماضية... وذكرنا أنه ما أقامه إلا السلطان الملك الظاهر بيبرس... وسافر به الى الشام... وجهزه من الشام الى بغداد...

وأنه لما عبر الفرات بمن معه من العسكر ظن أن التتار قد انتزحوا من العراق... وفارقوها على عادتهم أنهم يخربون ويذهبون ولا يقيمون... ولم يدر أنهم في البلاد... فسار على ما هو عليه... واتصل بالتتار قدومه لأخذ الثأر...

فجردوا إليه عسكرا صحبة هُلاجو وأزدان... فأدر كوه وقد بلغ عانا^(١)... فحاربوه حرباً عواناً... فصابروهم جهده... وثبت لصدمتهم وكده... ثم تكاثروا عليه وتبادروا إليه... فلم يكن له قبل بكثرتهم... ولا طاقة بمنعهم لمنعتهم... فأخذته السيوف... وأدر كته الختوف... فمات شهيداً وتولى حميداً... وقتل أكثر من كان معه... وتفرق من نجا

(١) عانة: بلد مشهور من أعمال الجريرة... مشرفه على الفرات.

بنفسه... وكان قتله في ثالث المحرم من هذه السنة... أعني سنة ستين

وستائة!!!

وشغرت البلاد من الخليفة العباسي!!!

لم يعلم أحدٌ ماذا يريد؟!!

ولما عاد السلطان من الشام الى الديار المصرية في السنة الماضية...
جرد الأمير بدر الدين الأيدمري ومعه جماعة...
ولم يُعلم أحدًا جهة مقصده...

لأن الملك الظاهر كان حازمًا في أمره... كأنما لسهه مقتديًا بقول

القائل:

إذا ضاق صدرُ المرء عن سرِّ نفسه فصَدْرُ الذي يَسْتودِعُ السرَّ أضيقُ
فسار الأمير المذكور ومن معه الى الشوبك... وتسلمها يوم الأحد وقت
العصر في العشر الأواخر من شهر ذي الحجة!!!

القبض على نائب السلطان بدمشق لظلمه؟!!

وفي ذي القعدة... قبض الملك الظاهر على نائبه بدمشق... وهو علاء
الدين طبرس الوزيري... وكان قد تولى دمشق بعد مسير الأمير علاء الدين
أيدكين البندقدار عنها...

وسبب القبض عليه أنه بلغ الملك الظاهر عنه أمور كرهها...
فأرسل إليه عسكريًا مع عز الدين الدمياطي... وعلاء الدين الركني

وغيرهما من الأمراء ...
فلما وصلوا إلى دمشق ... خرج طيرس للقائهم ...
فقبضوا عليه ... وقيدوه ... وأرسلوه الى مصر ...
فحبسه الملك الظاهر ... واستمر في الحبس سنة وشهراً ... وكانت
مدة ولايته بدمشق سنة وشهراً أيضاً !!!
وكان رديء السيرة في أهل دمشق ...
حتى نزع منها جماعة كثيرة من ظلمه ...
وقبض الله عليه من جازاه بمثله !!!
اقول ... نتأمل ملياً هذا التصرف الحازم من بيبرس ... كان نائب
السلطان في دمشق ... مجرمًا ظالمًا ... فماذا يفعل بيبرس !!؟
فوراً ... أرسل اليه من يقبض عليه !!!
وفوراً ... سيق الى القاهرة مقيداً !!!
وفوراً ... حبسه سنة وشهراً !!!
هكذا يكون الضرب على أيدي اصحاب المناصب اذا انحرفوا ...
أمّا أن يتركوا (يُبرطعون) كيف شاؤوا في المحافظات ... والشعب يئن ولا
مُغيث !!! ... فهذا هو الضياع والظلم والفوضى !!!

القضاء على فوضى العربان!؟

ومنها: أن السلطان جرد الأمير عز الدين ... أمير جاندار ... إلى
الصعيد ... ليردع العربان ...
فإنهم كانوا قد طمعوا بتغير الممالك ... وناقضوا وقتلوا عز الدين
الحواش والي قوص ...

فحسم مادتهم ... وبدد شملهم !!!
اقول ... سيرس هو سيرس !!!
حسم سريع ... وفضاء نام على أي ظاهرة من ظواهر الفوضى أو الخروج
على النظام !!!

الغارة على أنطاكية؟!

ومنها: أن السلطان رسم للعساكر التي بالشام بالغارة على بلد
أنطاكية ...
فتوجه الأمير شمس الدين سنقر الرومي ... بمن كان قد جرد معه لتشييع
الخليفة الذي قُتِل ...
توجه صاحب حماة وحصص ...
فأغاروا عليها ... وأخذوا ميناءها ... ونهبوا وغنموا ...
وعادوا سالمين غانمين إلى مصر ... ومعهم أزيد من ثلاثمائة أسير ...
فقابلهم السلطان بالإحسان والإنعام !!!

تعيين قضاة من المذاهب الأربعة؟!

ومنها: أن السلطان عزل عن القضاء بمصر والقاهرة القاضي بدر
الدين السنجاري ...
وأعيد القاضي تاج الدين بن بنت الأعز ...
وفي هذه السنة أمر السلطان للقاضي تاج الدين هذا ... بأن يستنيب

من المذاهب الثلاثة ...

فاستتاب صدر الدين سليمان ... الحنفي ...
والشيخ شرف الدين عمر السبكي ... المالكي ...
والشيخ شمس الدين محمد بن الشيخ العماد ... الحنبلي !!!

وفاة سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام!؟

الشيخ الإمام العالم العلامة ... عز الدين بن عبد العزيز بن عبد
السلام ... بن أبي القاسم ... الحسن ... بن محمد ... بن المهذب ... أبو
محمد السلمي ... الدمشقي ... الشافعي ...
شيخ المذهب ... ومفيد أهله ... وصاحب المصنفات الحسان منها:
التفسير ... واختصار النهاية ... والقواعد الكبرى والصفار ...
وكتاب الصلاة ... والفوائد الموصلية ... وغير ذلك ...
ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسة ...
وسمع كثيراً ... واشتغل على الشيخ فخر الدين بن عساكر ...
وغیره ...
وبرع في المذهب ... ودرّس بعدة مدارس بدمشق ... وولي
خطاباتها ...
ثم انتقل عنها الى الديار المصرية ... بسبب إنكاره على الصالح
إسماعيل تسليمه صفد والشقيف إلى الفرنج وغير ذلك ...
ووافق الشيخ ابو عمرو بن الحاجب المالكي ...
فأخرجها من بلده ...
فسار أبو عمرو بن الحاجب إلى الناصر داود صاحب الكرك ...

فأكرمه ...

وسار عز الدين إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر ...
فأكرمه وولاه قضاء مصر وخطابة الجامع العتيق ...
ثم انتزعهما منه وأقره على تدريس الصالحية ...
فلما حضره الموت أوصى بها للقاضي تاج الدين بن بنت الأعز ...
وكانت وفاته في العاشر من جمادى الأولى من هذه السنة ...
وقد نيف على الثمانين ... ودفن من الغد بسفح جبل المقطم ...
وحضر جنازته الملك الظاهر ... وخلق من الأئمة !!!

أهمّ أحداث ...

السنة الحادية والستين ...

بعد الستائة ...!؟

خلافة الحاكم بأمر الله!؟

لما كان يوم الخميس ثاني المحرم من سنة إحدى وستين وستائة ...
جلس الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ... وأمرأؤه ... وأهل الحل
والعقد ...

في الإيوان الكبير بقلعة الجبل ...
وجاء الخليفة الحاكم بأمر الله راكباً حتى نزل عند الإيوان ...
وقد بسط له إلى جانب السلطان ...
وذلك بعد ثبوت نسبه ... فقرئ نسبه على الناس ...
ثم أقبل عليه الملك الظاهر فبايعه ... وبايعه الناس بعده ... وكان
يوماً مشهوداً!!!

الخليفة يُقلد السلطان أمور البلاد والعباد!؟

ثم أقبل الخليفة على السلطان ... وقلده أمور البلاد والعباد ...
ووكّل إليه تدبير الخلق ...
وجعله قسيم نفسه في القيام بالحق ... وفوض إليه سائر الأمور ...

وغدق^(١) به صلاح الجمهور...
ثم أخذ الأمراء والوزراء والقضاة والأجناد والفقهاء والناس على اختلاف
طبقاتهم في المبايعة... فتمت هذه البيعة المباركة!!!
وهذا الخليفة هو التاسع والثلاثون من خلفاء بني العباس!!!

خطبة الخليفة يوم الجمعة؟!!

ولما كان يوم الجمعة الثانية... خطب الخليفة للناس خطبة بليغة... وصلى
بالناس بالقلعة...

الخطبة الأولى التي خطب بها:

الحمد لله الذي أقام لآل العباس رُكنًا ظهيرًا... وجعل لهم من لدنه
سلطانًا نصيرًا... أحده على السراء والضراء... وأستعينه على شكر ما
أسبغ من النعماء... واستنصر به على دفع الأعداء، وأشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ﷺ، وعلى آله
وصحبه، نجوم الإهتداء، وأئمة الإقتداء الأربعة الخلفاء، وعلى العباس عمه
وكاشف غمه، أبي السادة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، وعلى بقية
أصحابه أجمعين والتابعين بإحسان إلى يوم الدين.

أيها الناس أعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام، والجهاد محتوم
على جميع الأنام، ولا يقوم علم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد، ولا سيّبت
الحرم إلا بانتهاك المحارم، ولا سفكت الدماء إلا بارتكاب المآثم، فلو شاهدتم
أعداء الإسلام حين دخلوا دار السلام، واستباحوا الدماء والأموال، وقتلوا
الرجال والأبطال والأطفال وسبوا الصبيان والبنات، وأيتموهم من الآباء

(١) غدق العيش: انسع.

والأمهات، وهتكوا حرم الخلافة والحريم، وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم، فارتفعت الأصوات بالبكاء والعيول، وعلت الضججات من هول ذلك اليوم الطويل، فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه، وكم من طفل بكى فلا رحم لبكائه، فشمروا عباد الله عن ساق الإجتهد في إحياء فرض الجهاد، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ واسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ، وَمَنْ يُوقِ شَخْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

فلم تبق معذرة في القعود عن أعداء الدين والمحاماة عن المسلمين. وهذا السلطان الملك الظاهر السيد الأجل العالم العادل المجاهد المؤيد ركن الدنيا والدين قد قام بنصر الإمامة عند قلة الأنصار، وشرذ جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار، فأصبحت البيعة باهتامة منتظمة العقود، والدولة العباسية منكاثرة الجنود، فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة، وأخلصوا نياتكم تنصروا، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا، ولا يروعنكم ما جرى، فالجرب سجال ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢) والدهر يومان، والآخر للمؤمنين جمع الله على التقوى أمركم، وأعز بالإيمان نصركم، واستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين، فاستغفروه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٣).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، حمدًا يقوم بشكر نعمائه، ويشهد بوحدانيته عدة عند لقائه، والصلاة على محمد خاتم أنبيائه، عدد ما خلق في أرضه وسمائه. أوصيكم عباد الله بنقوى الله، إن أحسن ما وعظ به الإنسان كلام الملك الديان، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾^(٤) الخ...

(١) سورة التغان، آية ١٦.

(٢) سورة الأعراف آية ١٢٨.

(٣) سورة الرمر، آية ٥٣.

(٤) سورة النساء، آية ٥٩.

مسير السلطان الى عكا والإغارة عليها!؟

وفيها:

ركب من الطور... وسار الى عكا جريدة... ومعه من كل عشرة فارس واحد...

وكان ركوبه نصف الليل من ليلة السبت رابع جمادي الآخرة...

فأصبح بالوادي الذي دون عكا...

ثم أحاط بها من ناحية البر...

وكان بالقرب منها برج فيه جماعة من الفرنج...

فسير إليه طائفة من الجند... فحاصروه... وخرج من فيه

مستأمنين... وحرق ما حولها من الأخشاب... وقطع ما هنالك من

الأشجار...

وناوشوا الفرنج القتال... فقتل منهم أقوام...

وأحضر إليه جندي يسمى حيش من أصحاب أطلس خان... فارسا

خيالة من الفرنج... طعنه ورماه عن فرسه وأسره... فأنعم عليه

ووعده بعدة...

وعاد إلى الدهليز بالطور...

فرتب الأمير ناصر الدين القيّمري نائب السلطنة بالفتوحات

الساحلية...

ورحل وتوجه إلى القدس الشريف...

وزار... ورسم بعمارة المسجد الأقصى... ثم خرج طالبًا الكرك!!!

اقول... هذا المشهد وحده يُعطي فكرة واضحة عن أسلوب حياة

بيبرس...

فهو فارس... بطل... فاتح... أحبّ شيء إليه حياة الغزو والقتال...

خرج الى الطور... أولاً... وخرج بجيوشه وجموعه...
ثم ركب من الطور... ومعه طائفة من فرسانه... من كل عشرة فارس
واحد...

وخرج نصف الليل!!!
منظر رائع بهيج... يحبه الله!!!
الفارس الأول... البطل الأول... بيبرس على رأس الفرسان...
ثم ها هو يتحرك على رأس الكتيبة التي أعدها وانتقاها من الفرسان...
في نصف الليل البهيم... فأصبح بالوادي الذي دون عكا...
هكذا... اذا انشق الفجر... والعدو يغط في نومه...
كان بيبرس على صهوة جواده... يقود فرقة الفرسان... يحيط بعكا من
ناحية البر...

وناوشوا الفرنج القتال... وقتل منهم أقواماً!!!
إنه استعراض قوة... وتحطيم لمعنويات الأعداء من الفرنج...
حتى اذا هاجهم فيما بعد الهجوم الكاسح الماسح... استسلموا خوفاً
ورعباً!!!

شخصية بيبرس في هذا المشهد على الغاية من الجمال!!!
فارس مغوار مقدام... يتقدم فرقة من الفرسان الأبطال...
يناوشون عكاً... تمهيداً للاستيلاء عليها... ونزعها من الفرنج...
ثم يعود الى الدهليز بالطور...
ثم يرحل الى القدس الشريف...
ثم خرج طالباً الكرك!!!
مشهد جميل... لبطل مهيب... يتقدم الى الموت قبل ان يتقدم إليه
أصحابه!!!

السلطان يتوجه الى الكرك!؟

ولما خرج السلطان من القدس الشريف ... سار نحو الكرك ... ونزل
عليها في الثالث عشر من جمادي الآخرة ...
فنزل إليه أولاد الملك المغيث ... وقاضي المدينة ... وخطيبها ...
وجاعة من أهلها ...
يطلبون العفو ... فأحسن إليهم ...
وأعطاهم حتى رضوا ...
وتسلم القلعة ... وطلع اليها ...
وأحضر دواوينها ... ورتب أمر جيشها ...
وأعطى رجالها جامكية ثلاثة أشهر من خزائنه ...
وعين لها خاتماً ...
وأعطى أولاد الملك المغيث ما كان فيها من المال والأثاث ...
وخلع على العزيز فخر الدين عثمان ولد المغيث ... وعلى خادمه
وأتابكه ...
وكتب مناشير عُرِّبَها ...
وأحلفوا له ... وأحلف مقدمو المدينة ... ونصاراها ... وجميع أمراء
بني مهدي وبني عقبة ...
وترك بها بما كان معه من الخزانة سبعين ألف دينار ... ومائة
وخمسين ألف درهم ... والزردخانة التي صحبتته ...
ورحل عنها عائداً الى القاهرة!!!
اقول ... هذا هو بيبرس ... حركة دائبة ... وعقل مدبر ... سريع
التصرف ... سريع التنظيم ...
لقد حوّل القلعة الى حركة دائبة ... وتركها وقد رضيت عنه تمام

الرضى... والألسنة تلهج بالثناء عليه!!!
فهو إمامًا مقاتل على رأس جيشه...
وإمامًا منظمًا لأمر البلاد والعباد!!!

عَوْدُ السُلْطَانِ إِلَى الْقَاهِرَةِ!؟

لما قضى السلطان شغله في الكرك...
رحل عنها عائداً الى القاهرة...
فوصلها في سابع عشر رجب... فكانت مدة سفرته هذه خمسة
وتسعين يوماً...
وأحضر أولاد المغيث وحرمة إلى الديار المصرية... وأعطى ولده
فخر الدين عثمان إمرة بمائة طواشي بالديار المصرية...
أقول... إن السلطان لا وقت عنده ليلعب ويعبث...
إنه عيون مفتوحة... يرقب ما حوله في حذر!!!

وَصُورُ رُسُلِ بُرْكَه خَان^(١) مَلِكِ التَّتَارِ فِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ!؟

وفي هذه السنة...
وصلت رُسُل... بُرْكَه خَان... وهم: الأمير جلال الدين بن
القاضي... والشيخ نور الدين علي... وغيرهما...

(١) هو ابن عم هلاون - هولاكو -

مُخْبِرِينَ بِإِسْلَامِهِ ... وَعَلَى أَيْدِيهِمْ كِتَابٌ مِنْهُ يَتَضَمَّنُ ذِكْرَ مَنْ أَسْلَمَ
مِنْ بِيوتِ التَّتَارِ ... وَخَرَجَ عَنْ زُمْرَةِ الْكُفَّارِ ...
وَتَفْصِيلَهُمْ بِقَبَائِلِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ ... وَأَنْفَارِهِمْ وَعَسَاكِرِهِمْ ...
وَصَغِيرِهِمْ وَكَبِيرِهِمْ !!!
قَالَ: وَدَخَلَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ ... إِخْوَانُنَا الْكِبَارِ ... وَإِخْوَاتُنَا
الصَّغَارِ ... وَذُرَارِيهِمْ ...
أَوْلَادَ بُوْدَاكُورِ ... بِجِسْمِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ !!!
بِلَادِ كُوكَاخُورِ يَنْشُو نَوْقًا ... وَمَنْ فِي بِلَادِهِمْ: قُودَعُومَ ...
وَقِرَاجَارِ ... وَتَشَّ بَغَا ... وَشَرَامُونَ ... وَبُورَبَاكُومَ ... وَمَنْكَقْدَارِ ...
بِجِيوشِهِ وَسَوَادِهِ !!!
وَبِكَ قُدَاقُ بَايْنَالِ ...
وَتُقُوزَا غُولَ ...
وَقَتْلُغَ نَيْمُورَ ...
وَآجِي وَذُرَيْتِهِ ...
وَدُرْبَايَ ...
وَالتُّومَانَ الَّذِي تَجَرَّدَ إِلَى خُرَاسَانَ ...
وَكَلِّ مَنْ تَوَجَّهَ صَحْبَةً بَايْجُومَ ... مِثْلَ بَانِيَالِ نُومِينَ ... وَايكَاكُومَا ...
كُلِّ هَؤُلَاءِ أَسْلَمُوا بِأَسْرِهِمْ !!!
وَأَقَامُوا بِالْفَرَائِضِ وَالسَّنَنِ !!!
وَالزَّكَاةِ وَالغَزَاةِ !!!
وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... وَقَالُوا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا
لنَهْتَدِي لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ (١).
وَقَرَأْنَا ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ

(١) سورة الأعراف، آية ٤٣.

بالله ﴿١﴾ الآية ...
 فليعلم السلطان أنني حاربت هلاون الذي من لحمي ودمي ... لإعلاء
 كلمة الله العليا!!!
 تعصباً لدين الإسلام!!!
 لأنه باغ... والباغي كافر بالله ورسوله...
 وقد سيرت قصادي ورُسُلي صحبة رسل السلطان وهم: أربغا...
 وأرتيمو... وأوناماس...
 ووجهت ابن شهاب الدين غازي معهم... لأنه كان حاضرًا في الوقعة...
 ليحكي للسلطان ما رآه بعينه من عجائب القتال...
 ثم لنوضح لعلم السلطان أنه موفق للخيرات والسعادات... لأنه أقام
 إماما من آل عباس... في خلافة المسلمين... وهو الحاكم بأمر الله...
 فشكرت همته... وحمدت الله تعالى على ذلك...
 لا سيما لما بلغني توجُّهه بالعساكر الإسلامية إلى بغداد...
 واستخلاص تلك النواحي من أيدي الكفار!!!
 اقول... امبراطور من أباطرة التتار... يدخل الإسلام!!!
 ليس هو وحده... بل ومعه قبائل التتار... وعشائهم... وبيوناتهم...
 وجيوشهم... وأولادهم!!!
 دخل عن طواعية لا عن إكراه...
 وها هو يبعث الى السلطان بيبرس يبشره بما حدث...
 ويعلن إليه أنه حارب هولاء في سبيل اعزاز دين الله!!!
 وهذا شيء عجيب من أمر هذا الإسلام... إنه يجتذب إليه أعدى
 أعدائه... ويحتويهم ويحوّطهم من قوى مضادة له... الى قوى مدافعة عنه...
 تغار عليه أشد من غيرة المسلمين القدامى!!!

(١) سورة البقرة، آية ٢٨٥.

السلطان يرسل الى بُركة خان أعظم الهدايا!؟

فأكرم السلطان رسل بُركة خان... ورسّل الأشكري... الواصلين معهم...
وجّهز لبُركة من الهدايا من كل شيء مستحسن وهي:
ختمة شريفة... ذكر أنها بخط عثمان بن عفان رضي الله عنه...
بمراوقات...

وسجادات للصلاة متنوعة الألوان... الخ...
وخدام سود... وجواري طباخر... وخيل سوابق عربية... وهجن
نوبية... ودواب فارهة... ونسانيس... وبغابغ... وغير ذلك...
وألبس رسله الفتوة... وأعادهم في شهر رمضان!!!

الحرب بين الامبراطور بُركة خان والامبراطور هولوكو!؟

قال الراوي:
أما إسلام بُركة خان... فقد ذكرنا أنه كان في سنة اثنتين وخمسين
وستائة...
وأما الحرب الذي وقع بين بُركة خان وهلاون...
فكان حرباً عظيماً... انكسر فيها هلاون كسراً شنيعاً... وقُتل
أكثر أصحابه... وغرق أكثر من بقي!!!
وهرب هو في شردمة قليلة من أصحابه!!!
وبعد فراغ بُركة خان من الحرب عاد على بلاد القسطنطينية...
وصانعه صاحبها...
وأرسل إلى السلطان الملك الظاهر الرسل المذكورين...

وأرسل السلطان إليه الهدايا المذكورة!!!
اقول... قوة جبارة قهارة... أرعبت العالم كله سنين طويلة... ها هي
ننقسم على نفسها... بل ويُحطم بعضها بعضاً...
ويعلن الملك التتري المنتصر على هولاءكو الذي لا يُقهر... يعلن ذلك الى
السلطان بيرس!!!

توجّه السلطان إلى الاسكندرية!؟

وفي شوال منها:
سافر السلطان الظاهر الى الاسكندرية... ونظر في أحوالها وأمورها...
وعزل قاضيها وخطيبها...
وحطّ عن أهل الثغر ما كان مقداراً من الفائدة... وهو ربّع دينار على كل
قنطار يباع ويبتاع...
وسدّ أبواب المظالم!!!
وأنعم على الأمراء الذين معه بالقماش والخلع...
وعاد إلى قلعة الجبل المحروسة في الحادي عشر من ذي القعدة الحرام!!!

الف من التتار!؟

وفيها: في سادس ذي الحجة...
وصلت جماعة كبيرة من التتار... مستأمنين... وفي الإسلام
راغبين...

فكانوا زهاء ألف نفس... وفيهم من أعيانهم... وهؤلاء كانوا من أصحاب بركة... وكان قد أرسلهم الى هلاون نجدة... فأقاموا عنده مدة...

فلما وقع بينه وبين بركة... وتمكنت العداوة... كتب بركة إليهم بأن يفارقوا هلاون ويحضروا إليه... وإن لم يتمكنوا من التوجه إليه... فينحازوا إلى عساكر الديار المصرية...

الألف يعلنون إسلامهم!؟

ولما وصلوا أسلموا... وطهروا... وقدم كبرائهم وأمروا... وعينت لهم الإقطاعات... والعلبखانات... وأفيضت عليهم الصلات والخلع والهبات وأنزلهم باللوق...

فقال في ذلك القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر:

يا مالك الدنيا الذي	أضحى صلاحًا للأمم
يا من يحا بالعدل ما	للظلم فينا من ظلم
يا من تساق له التنا	ر غنيمته مثل الغنم
خافوا سيوفك أنها	ستسوقهم نحو النقم
فأتوا لبابك كلهم	ياوون منه الى حرم
أمنوا مما يخافوا	ف من البلايا والسقم
جعلوا جنابك جنة	وثرى خيولك مستم
بسطوا يمينًا للهدا	ية طالما خضبت بدم

أعطيتهم ما للمؤثرف لفة القلوب من القسمة
لا زلت يا ملك الزمان لك الملوك من الخدم

عمارة المسجد النبوي

ومنها: أن الملك الظاهر جهز صناعات وأخشاباً وآلات كثيرة لعمارة المسجد النبوي بعد حريقه، فطيف بتلك الأخشاب والآلات فرحة بها، وبعضها لشأنها، ثم ساروا بها إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلوات. اقول... أصبحت مملكة الملك الظاهر ملاذا للناس من كل الأقطار... يأمنون فيها... ويعلنون إسلامهم... ويجدون فيها الترحيب والأرزاق والتكريم!!!

أحداث...

السنة الثانية والستين...

بعد الستائة...؟!!

انشاءات متتابعة؟!!

منها: أن الظاهر توجه إلى الغربية، ومنها إلى ثغر دمياط، وزار البرزخ، ورسم بعمل فم بحر الدمياط وردمه بالقرايس وتضييقه، ليمنع سفن العدو الكبار من دخولها، وأمر بجفر أشمون.

ومنها: أنه رسم بعمارة بير اللبونة غربي الإسكندرية، وحفر منافسها، وأنشأ بستاناً فيها، لأنها منزلة من المنازل عند توجهه إلى الحمامات للصيد، فشرع فيها.

ومنها: أنه عمر مسجداً مجاوراً لمشهد الحسيني، رضي الله عنه.

ومنها: أنه عمر بالقدس الشريف خاناً، ووقف عليه أوقافاً للنازلين به في إصلاح نعالهم وأكلهم وغير ذلك، وبنى به طاحوناً وفُرناً.

ومنها: أنه ندب عز الدين الأفرم لحفر فم الخليج للإسكندرية، فحفر وبنى هناك مسجداً.

ومنها: أنه ندب الأمير جمال الدين موسى بن يغمور إلى جزيرة بني نصر للاهتمام بريتها.

ومنها أنه سامح ما كان مقرراً على ولاية مصر من رسوم الولاية.

كيف عالج مشكلة الغلاء!؟

ومنها: أنه لما غلت ديار مصر أمر بالتسعيرة طلبًا للرفق، ورسم بأن يباع من أهرائه خمسمائة أردب كل يوم، بما قسمه الله عز وجل من السعر. وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة غلت أسعار الغلال بالديار المصرية، وبلغ القمح قريب مائة درهم نقرة الإردب، فرسم السلطان بالتسعير طلبًا للرفق بالفقير، والجبر للكسير، واشتد الحال، وقلت الأقوات، وكاد الخبز يعدم من أسواق القاهرة ومصر، فأمر بالنداء في الصعاليك والفقراء أن يجتمعوا تحت القلعة، فاجتمعوا ونزل إلى دار العدل، وأبطل التسعير، ورسم بأن يباع من أهرائه خمسمائة أردب كل يوم، بما يقدره الله تعالى من السعر، ويوزع على الضعفاء والأرامل من ويبتين فما دونهما، وأمر بإحضار كل من بالقاهرة ومصر وحواضرها من الفقراء وأفرد منهم ألوفاً يقوتهم من ماله، ووزع منهم لولده الملك السعيد جماعة، وفرق على كل أمير نظير عدة جنده، وفرق على مفاردة الحلقة بنحسب أحوالهم، وعلى المقدمين والبحرية والوزير والأكابر والتجار والشهود والمتعممين، ورسم أن كل من خصه فقير يعطيه مؤنته لثلاثة أشهر.

مطابخ لفطر الصائمين!؟

ومنها: أنه اهتم بتجهيز كسوة الضريح النبوي، على ساكنه أفضل الصلوات، صحبة الطواشي جمال الدين محسن الصالحي في شهر رمضان، وأجرى في هذا الشهر الصدقات على الفقراء بالقاهرة ومصر، ورتب لهم مطابخ لفطر الصائمين.

استعراض القوات المسلحة؟!!

ومنها: أنه عزم على ظهور ابنه الملك السعيد ناصر الدين بركة، فعرض الجيوش المنصورة لابسي عُدَدِ الحروب، وعبروا عشرة عشرة وهو جالس على الصُّفَّة التي بجانب دار العدل تحت القلعة، ثم طهر ولده المذكور، وطهر معه جماعة من أولاد الأمراء الكبار، ولم يقبل السلطان من أحد من الأمراء
تقدمة:

ملك نَعُود أَنه	يهب البلادَ مع الممالك
ويجود بالمدن العظام	وبالحصون وما هنالك
حاشاه يَسْلُك مِن	قبول هدية تلك المسالك
أو أنه مع جوده وعطا	ئهِ يرضى بذلك

إلزام عرب برقة بالزكاة؟!!

ومنها: أنه توجه إلى ثغر الإسكندرية متصيِّدًا، ووصل إلى الكش، وهي قريب العقبة الصغرى التي غربي الحمامات، وعند عوده جعل سيف الدين عطاء الله بن عزاز مقدما على عرب برقة، وقرر عليهم الزكاة، وألزمهم باستخراجها منهم وحلها.

ومنها: أنه بلغه أن جماعة من التتار واصلون مستأمنون، فأخذ بالعزم، وعزم على الخروج بالعساكر لأجل تواتر الأخبار بمجيء هلاون مع التتار، وعزم على تقرير السلطنة لابنه ناصر الدين بركة.

ولاية العهد للملك السعيد ناصر الدين بركة

ولما كان يوم الخميس ثالث عشر شوال من هذه السنة، أركب السلطان ولده الملك السعيد بشعار السلطنة ومشى في ركابه حاملاً له الفاشية، وأخذها الأمراء الكبار واحداً بعد واحد، وعليهم الخلع الفاخرة، والحلل الزاهرة، وزينت المدينة زينة تامة، واستبشر بذلك الخاصة والعامة، وتقرر أن يكون أتابعه الأمير عز الدين أيدير الحلي.

وكتب تقليده الشريف، وقرئ في السابع عشر من الشهر وهو: الحمد لله مُنمي الغُرُوس، ومبهبج النفوس، ومزين سماء المملكة بأحسن الأهله وأضواء البُدر، وأشرق الشموس الذي شد أزر الإسلام بملوك يتعاقبون مصالح الأنام، ويتناوبون تدبيرهم كتناوب العينين واليدين في مهات الأجساد ومُلِمَّات الأجسام.

نحمده على نعمه التي أيقظت جفن الشكر المتغافي، وأوردت منهل الفضل الصافي، وخولت الآلاء حتى تمسكت الآمال منها بالوعد الوفي، وأخذت بالوزن الوافي.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة عبد كثر الله عدده وعدده، وأحد أمسه ويومه، ويُحمدُ إن شاء الله غده، ونصلي على سيد محمد الذي أطلع الله به نجم الهدى، وألبس المشركين به أردية الردى، وأوضح به مناهج الدين، وكانت «طرائق قَدَدَا» صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة دائمة لا تنقضي أبداً.

وتعدُّ فإننا لما ألهمنا الله من مصالح الأمم، وخولناه من الحرص على مهمات العباد التي قطع بها شافة الكفر وحسن، وأتى بنا والشرك قد علم كل أحد اشتعال ناره، فكان علما بنارٍ مُضَرَمَةٍ، لا ناراً على علم، وقدره من دفع الكفر من جميع الجوانب، وقمعهم من كل جهة حتى رميناهم بالختف الواصل

والعذاب الواصب، فأصبح الشرك من الإبادة في شرك، والإسلام لا يخاف من فتك ولا يخاف من درك، وثغور الإسلام غالبية المبتنى نامية المقتنى، جانبة ممار الادخار من هنا ومن هنا، تزاخم بروجها في السماء البروج، ويشاهد الأعداء منها سماء بنيت وزينت وماها من فروج، وعساكر الملة المحمدية في كل طرف أطراف الممالك تجول، وفي كل واد تهيم حين تُشعِرُ بالنصر ولكنها تفعل ما تقول، قد دوخت البلاد فقتلت الأعداء تارة بالإمام وتارة بالأوهام، وسلت سيوفها فراعتهم يقظة بالقراع ونومًا بالأحلام، نرى أنا قد لذنا هذا الأمر التذاذ المستطيب، وحسن لدينا موقعه فعكفنا عليه عكوف المستجيد ولبيناه تلبية المستجيب، وشغلنا فيه جميع الأوقات والحواش، وتقسمت مباشرته ومؤامره سائر الزمن حتى غدا أكثر تردادًا الى النفس من الأنفاس، واستنفدنا الساعات في امتطاء الضمير الشوس، وإدراع محكم الدلاص التي كأنها ومضات برق أو شعاع شمس، وتجريد المرهفات التي قد حفت لحاظها الأجنان، وجرت فكًا لمياه واضطربت فكا لنيران، وتفويق السهام التي قد غدت قسيها من اتعابنا لهاتن، واعتقال السمهرية التي تفرع الأعداء سنّها ندمًا كلما قرعت هي السن، الى غير ذلك من كل غارة شعواء تُسيء للكفار الصباح، وتصدم كالجبال ونسير كالرياح، ومنازلات كم استكبت من موجود، وم استنجزت من نصر موعود، وم مدينة أضحت لها مُدنيّة ولكن أخرها الله إلى أجل معدود.

وكانت شجرتنا المباركة قد امتدّ منها فرع تفرّسنا فيه الزيادة والنمو، وتوسمنا منه حسن الجناء المرجو، ورأينا أنه الهلال الذي أخذ في ترقى منازل السعود إلى الإبدار، وإنه سيرنا الذي صادف مكان الاختيار له حسن الاختيار، أردنا أن ننصبه في منصب أحلنا الله فسيح غرّفه، ونشرفه بها خوّلنا الله من شرفه، وأن تكون يدنا ويده يقتطفان من ثمره، وجيدنا وجيده متحليان بجوهره، وأنا نكون للسلطنة الشريفة السمع والبصر،

وللمملكة المعظمة في التناوب بالاضاءة الشمس والقمر، وأن تصول الأمة منا
ومنه بخدين، ويبطشون من أمرنا وأمره بيدين، وأن نربيه على حسن سياسة
تحمد الأمة إن شاء الله عاقبتها عند الكبر، وتكون الأخلاق الملوكية منتشية
معه ومنتشبة به من الصغر، ونجعل سعي الأمة حيداً، ونهب لهم منه سلطاناً
نصيراً، وملكاً سعيداً، ونقوي به عضد الدين، ونریش جناح المملكة،
وننجح مطالب الأمة بياالته، وكيف لا ينجح مطلب يكون فيه بركة.

وخرج أمرنا، لا برح مسعداً ومسعداً، ولا عدمت الأمة منه خلفاً منيلاً
ونواء مخلفاً، بأن يكتب هذا التقليد لولدنا الملك السعيد ناصر الدين بركة
خاقان محمد، جعل الله مطلع سعده بالإشراق محفوقاً، وارى الأمة من منامه
ما يدفع للدهر صرفاً ويحسن بالتدبير تصريفاً بولاية العهد الشريف على
قرب البلاد وبعدها، وغورها ونجدها، وعساكرها وجندها، وقلاعها
وثغورها، وبرورها وبحورها، وولاياتها وأقطارها، ومدنها وأمصارها، وسهلها
وجبلها، ومعطلها ومعتملها، وما تحوي أقطاره الأقاليم، وما ينسب للدولة
القاهرة من يمن وحجاز ومصر وغرب وسواحل وشأم بعد شام، وما يتداخل
ذلك من قنار ومن بيد في سائر هذه الجهات، وما يتحللها من نيل وملح
وعذب قرات، ومن يسكنها من حقير وجليل، ومن يحتلها من صاحب رغاء
وثغاء، وصليل وصهيل، وجعلنا يده في ذلك كله المبسوطة، وطاعته
المشروطة، ونواميسه المضبوطة، ولا تدبير ملك كلي إلا بنا أو بولدنا يُعمل،
ولا سيف ولا رزق إلا بأمرنا هذا يُسلّ وهذا يُسأل، ولا دسّ سلطية إلا
بأحدنا يتوضح منه الإشراق، ولا غض قلم في روض أمر ونهي إلا ولدنا أو
لديه وتمتد له الأوراق، ولا منبر خطيب إلا باسمينا يميس، ولا وجه درهم
ولا دينار إلا بنا يشرق ويكاد تبرجاً لا بتهرجاً يتطلع من خلال الكيس.

فليتقلد الولد ما قلّدناه من أمور العباد، وليشركنا فيما نباشره من مصالح
الثغور والقلاع والبلاد، وسنعاهد الولد من الوصايا بما سينشأ معه توأماً،

ويمتزج بلحمه ودمه حتى يكاد يكون ذلك إلهامًا لا تعلمًا، وفي الولد بحمد الله من نقاء الذهن وصحة التصوّر ما يتشكل فيه الوصايا أحسن التشكيل، وتظهر صورة الإبانة في صفاته الصغيلة، فلذلك استغنينا عن شرحها مسرودة، وفيه بحمد الله من حسن الخليقة ما يحقق أنها بشرف الإلهام موجودة، والله لا يعدمنا منه إشفاقًا وبرًا، ويجعله أبدًا للأمة سندًا وذخرًا.

المدرسة التي بناها السلطان الظاهر بالقاهرة!؟

وفي أول هذه السنة، كملت المدرسة الظاهرية التي بين القصرين، ورتب لتدريس الشافعية بها القاضي تقي الدين محمد بن الحسين بن رزين، ولتدريس الحنفية محمد الدين عبد الرحمن بن كمال الدين عمر بن العديم، ولمشيخة الحديث بها الشيخ شرف الدين الدمياطي عبد المؤمن بن خلف الحافظ.

وكان الإجماع بها في الخامس من صفر من هذه السنة، واجتمع بها أهل العلم والأدباء والفقهاء، ودرس المدرسون، واندفع الشعراء يمتدحون، فأنشد السراج عمر الوراق:

مَلِيكَ لَه فِي الْعَلَمِ حَبٌّ وَأَهْلُهُ فَلِلَّهِ حَبٌّ لَيْسَ فِيهِ مَلَامٌ
فَشَيْدَهَا لِلْعَلَمِ مَدْرَسَةٌ غَدَا عِرَاقٌ إِلَيْهَا شَيْقٌ وَشَامٌ
فَلَا تَذْكُرْنَ يَوْمًا نِظَامِيَةَ لَهَا فَلَيْسَ يَضَاهِي ذَا النِّظَامِ نِظَامٌ
وَلَا تَذْكُرْنَ مَلَكًا وَبَيْرَسُ مَالِكًا وَكُلُّ مَلِيكَ فِي يَدِهِ غُلَامٌ
وَمُذَبَّرَزَتْ كَالرُّوْضِ فِي الْحَسَنِ أَنْبَاتٌ بَأَنَّ يَدِيهِ فِي النَّوَالِ غَمَامٌ
وَأَنْشَدَ الْجَمَالَ يَوْسُفَ بْنَ الْخَشَابِ:

قَصْدَ الْمَلُوكِ حَاكٍ وَالْخُلَفَاءِ فَافْخَرْ فَإِنْ مَحَلَّكَ الْجُوزَاءُ
أَنْتَ الَّذِي أَمْرَاؤُهُ بَيْنَ الْوَرَى مِثْلَ الْمَلُوكِ وَجَنْدُهُ أَمْرَاءُ

وتحملت مدينته الفصحاء
حللت بها العلماء والفصحاء
ساق له ولحاسديه فناء
رسل منها العفو والإعفاء
وطريقهم للاده عذراء
ما أقبل الإصباح والإساء

ملك نزينت المالك باسمه
وترفعت لغلاه خير مدارس
يبقى كما يبقى الزمان وملكه
كم للفرنج وللتتار بباسه
وطريقه لبلادهم موطوءة
دامت له الدنيا ودام مخلداً

وأشده الأديب أبو الحسن الجزار:

ومن يتغالى في الثواب وي الثنا
بها اليوم في الدارين قد بلغ المساء
فراقت قلوبنا للأمام وأعينا
النفيسة منها في سرور وي هنا
له في غد فاختار بعجلها هنا

ألا هكذا يبني المدارس من بني
لقد ظهرت للظاهر الملك همة
تجمع فيها كل حسن مفرق
ومذ جاورت قبر الشهيد فنفسه
وما هي إلا جنة الخلد أزلفت

فشرّف الشعراء المذكورون ووصّلوا.

تلقين الأرمن درساً قاسياً؟!!

منها: أن هيثوم بن قسطنطين متملك الأرمن وصل من جهة السلطان
هلاون إلى حضرة السلطان ركن الدين قليج أرسلان صاحب الروم،
واستصحب معه قاضي هلاون، وجماعة من التتار، فالتقاء صاحب الروم
مترجلاً، وجاء إلى هرقله، وتحالفا واتفقا، واهتم الأرمني بجمع عساكره لقصد
البلاد الإسلامية، وسار إلى قلعة صرفند كار، ومعه ألف فارس من بني
كلاب، وقصدوا عينتاب.

فجهز السلطان عسكري حماة وحمص إلى حلب، وأمرهم بالإغارة على
عسكر الأرمن، فأغاروا عليهم، وقتلوا منهم ثلاثين نفرًا، وأسروا أمراء من
أمرائهم، وأخذوا مائة حمل من البخاتي، وجرح بارون بهرام، وهو صاحب
حمص، وقرابة الملك، جراحة شديدة، وانهمزوا راجعين.

فرنسا تتملق ببييرس؟!!

منها: أنه وصلت جماعة من عسكر شيراز إلى الخدمة، مقدمهم الأمير
سيف الدين بكلك، ومعهم سيف الدين اقتبار جدار جلال الدين خوارزم
شاه، وغلمان أتابك سعد، وهم: شمس الدين سنقرجاه ورفقته، ووصل معهم
حسام الدين حسين بن علاج أمير العراق، ومظهر الدين وشاح بن شهري،
وجماعة من أمراء خفاجة، فأحسن إليهم وجهزهم إلى بلادهم.
ومنها: أنه وصل رسول من الأمير شارل أخى الفرنسيس بهدية.

استلام خيبر

ومنها: أنه وصلت إلى السلطان كتب أصحاب خيبر عبيد الإمام علي بن
أبي طالب رضي الله عنه، يبذلون الطاعة، ويسألونه إرسال من يتسلم خيبر،
فندب أمين الدين موسى بن التركمان، وكتب إلى نائب الكرك، بأن يجرد معه
جماعة من البحرية الذين بالكرك، فتوجه إليها وتسلمها.
ومنها: أنه وصل الأمير جلال الدين شكر ولد الدوادار مجاهد الدين
دوادار الخليفة ببغداد، فأعطاه السلطان طبلخاناه ومعها عشرة عقبان، فأطلقها
وفرقتها.

فقال في ذلك الأمير جمال الدين بن الإمام الحاجب:
جاءت ملوك الطير في يد آسِرٍ قهراً إلى ملك الأنام الظاهر
أضحى سليمان الزمان فملكه يَسْمُو به لقياصر وأكاسر
ملك الزمان سيأتينك مثلهم في أسر خادمك الزمان الجائر

قصة غازية الخناقة!؟

ومنها: أنه وجدت بظاهر القاهرة، خارج باب الشعرية، امرأة تتحيل على الناس، وتدخلهم بيتاً لها هناك، وقد أعدت فيه رجالاً يطابقونها على سوء فعلها، فيخنقون من تأتي به فقتلت خلقاً كثيراً من رجال ونساء، فأمر بها فسُمرت.

وكان اسم هذه المرأة السيئة غازية الخناقة، وكانت ذات حسن وجمال، وكانت تمشي بالمدينة ومعها عجوز تطمع الناس في نفسها، وكان من طمع فيها وطلبها تقول له العجوز: إنها لا يمكنها التوجه إلى أحد، ولكن تعال أنت إلى بيتها، فيجيء، فيطلع له رجلان، فيقتلانه ويأخذون ما معه، وكانوا ينتقلون من مكان إلى مكان، فاتفق أن العجوز أتت إلى بعض المواشط، وأمرتها أن تأخذ ما تقدر عليه من الحلى والحلّ، وتمضي معها لعروسة عندها، ففعلت الماشطة، واستصحبت معها جارية لها، ولما دخلت الماشطة منزلهم، رجعت الجارية إلى مكانها، فقتلوا الماشطة، وأخذوا ما معها، فاستبطأتها جاريته، فجاءت إليهم وطلبتها، فأنكروها وادعوا أنها خرجت من يومها، فمضت وأنتهم بصاحب الشرطة، فاحتاط عليهم وعذبهم، فأقروا بما كانوا يفعلون، وأطلعوا في بيتهم على حفرة فيها خلق عظيم مقتولين، وكان بعض الطوابين قد اتفق معهم، وجعلوا يحضرون إليه القتل مخفياً،

فيحرقهم في أقمنة الطوب، فأمسكوا جميعًا وسُمِّروا، وكانوا خمسة أنفس،
وأما المرأة فإنها بعد التسمير أطلقت، فأقامت يومين، ثم ماتت، عليها ما
تستحق.

☆ ☆ ☆

اقول... هذه أهم أحداث السنة الثانية والستين بعد الستائة...
والملاحظ أن السلطان في صعود... يزداد يومًا بعد يوم تألقًا!!!
والذي يستوقف الباحث هنا... هو موقف السلطان من مشكلة الغلاء
ونقص المواد التموينية...

لجأ أولًا الى التسعير لانقاذ الشعب...
ثم أبطل التسعير... وأمر أن يباع من خزائنه خمسمائة أردب يوميا... بسعر
اليوم...
ثم أمر بإحضار فقراء مصر والقاهرة... فحضر منهم ألوف يطعمهم من
ماله الخاص!!!

بل وأبرع من ذلك « وفرَّق على كل أمير عدّة جنده»!!!
فمن كان أمير ألف فارس... يلتزم بإطعام ألف من الفقراء...
وهكذا!!!

وعلى المقدمين والبحرية والوزير والأكابر والتجار والشهود
والمتعممين... ورسم أن كل من خصه فقير يعطيه مؤنته لثلاثة
أشهر!!!

ما هذا؟!... هذا بيبرس العبقرى العادل!!!
هناك غلاء... هناك مجاعة!!!
فلينزّل بنفسه الى المشكلة...

وأخرج من خاصته كل يوم خمسمائة أردب تباع بالسعر الرخيص...
لتهبط الأسعار في الأسواق نتيجة عرض هذه الكمية يومياً!!!
ثم أوامر متابعة إلى الأمراء والأغنياء... والزامهم جميعاً ببذل
العون إلى الفقراء!!!
وعلى رأس الجميع... تجدد السلطان يتقدم الصفوف في البذل
والتضحية...
أما هؤلاء الرؤساء... الذين يدعون الناس إلى شدّ الأحزمة على
البطون... وهم يرفلون في القصور والنعيم... فهؤلاء ليس أحد أعظم
منهم اجراماً!!!
وكان من أهم أحداث ذلك العام هو مرسوم ولاية العهد لابنه
الملك السعيد ناصر الدين بركة!!!
ثم أمره بالإغارة على الأرمن!!!
ثم إرسال الأمير شارل أخي ملك فرنسا هدية إلى بيبرس تقرباً
وتملقاً!!!
إنَّ السلطان في صعود!!!

البطل بيبرس...
يبدأ تدمير التّار...
والصليبين... في وقت واحد...!؟

همة خارقة!!!

تذكرنا بهمة سيف الله المسلول... حين ألقاه أبو بكر على الفرس ثم
على الروم ليدمرهم في وقت واحد!!!
ها هو بيبرس... يشن على التتار... فلما هربوا أمامه...
شنَّ الهجوم بنفسه على بلاد الساحل التي بأيدي الصليبيين... في
نفس الوقت الذي كان يهاجم فيه التتار!!!
فكيف كان ذلك!!؟

في السنة الثالثة والستين بعد الستائة

استهلت هذه السنة، والخليفة: هو الحاكم بأمر الله، وهو مقيم بالقاهرة.
وسلطان الديار المصرية والشامية: الملك الظاهر بيبرس البندقداري، وتوجه
الظاهر إلى أعراس والعباسة للصيد، ثم عاد إلى قلعة الجبل، وكان سبب عوده
وصول الأخبار إليه بأن مقدّمًا من مقدمي التتار يُسمّى دُرْبَاي قد قصد
البيرة بَتْمَان من التتار وشرع في المنازلة والحصار، فأسرع العود إلى القلعة،
وجرد الأمير عز الدين يوغان الملقّب سم الموت بمقدمة العساكر، ومن جُرد

معه من الجنود المنوجهين جرائد، فنوجهوا في ربيع الأول من هذه السنة،
تم جرد السلطان.

سَفَرُ السُّلْطَانِ الظَّاهِرِ إِلَى الشَّامِ!؟

ولما جهز السلطان العسكر المذكورين، وخرجوا في التاريخ المذكور، شرع
هو أيضاً في التجهيز، ورحل في سادس ربيع الآخر من هذه السنة.
قال بيري: شرع في التجهيز وإحضار الخيول من الربيع، وطرده الجنود
المتفرقين بالديار المصرية، ورحل في سابع ربيع الآخر، فوصل إلى غزة في
العشرين منه، فوردت إليه مطالعة الأمير جمال الدين أقوش النجيبى نائب
السلطنة بالشام، معطوفة على بطاقة وصلت إليه من الملك المنصور صاحب
حماة، وكان قد توجه صحبة الأمير عز الدين يوغان والأمراء المجردين إلى
البيرة، مضمونها أنهم لما وصلوا إليها، وشاهدتهم التتار النازلون عليها،
انهزموا، وكان درباي المذكور قد نصب على البيرة سبعة عشر منجنيقاً، فلما
ولوا هاربين عدى العسكر الفرات ونهبوا المجانيق، وسائر الآلات، فلما
وردت هذه الأخبار بهزيمة التتار، استبشر السلطان، وثنى العنان قاصداً بلاد
الفرنج، فنزل على قيسارية.

فَتْوحُ قَيْسَارِيَّةِ الشَّامِ!؟

نزل السلطان عليها يوم الخميس تاسع جمادي الأولى، وللوقت نصبت
عليها المجانيق وأطافت بها العسكر، وعمدوا إلى سكك الخيل فجعلوها

أوتادًا، وتعلقوا فيها من كل جانب وطلعوا إليها، ونصبوا السناجق السلطانية عليها، وحرقت أبوابها، وهتك حجابها، فهرب أهلها إلى قلعتها، فجد العسكر في الحصار، فلما كانت ليلة الخميس منتصف جمادي الأولى هربت الفرنج، وأسلموا القلعة بما فيها، فتسلق المسلمون إليها من الأسوار واستولوا عليها، ورسم السلطان بهدم مبانيها، فهدمت وهي أول فتوح السلطان الملك الظاهر رحمه الله!!!

فتح حيفا؟!

ثم توجه السلطان إلى جهة عثليث جديدة، وبث عساكره تشن الغارات وتقول يا للثارات، وجرّد عسكريًا إلى حيفا، فدخلوها، فنجا الفرنج بأنفسهم إلى المراكب، وأخربت المدينة وقلعتها في يوم واحد. ووصل إلى عثليث وعاد عنها، وقد ترك أهلها في حبس منها، فنزل على أرسوف.

فتح أرسوف؟!

وكان نزول السلطان عليها في مستهل جمادي الآخرة من هذه السنة، ورامتها العساكر بالسهم والمجانيق، وضيقوا عليها أنواع التضيق، وتمكنوا منها، وأطلعوا السناجق السلطانية عليها، فما أحسّ الفرنج إلا وقد خالطهم المسلمون، وأنشبت فيهم برائتها المنون، قبل أن يسألوا الأمان، ويبدلوا الطاعة والإذعان، فتسلمها السلطان في يوم الخميس، وأسر أهلها وأرسلهم إلى الكرك مصفدين.

قال بيبرس رحمه الله: وحضرت هذه الغزاة مع الجيش وكنت إذ ذاك الوقت في خدمة الأمير سيف الدين المخدوم، وأراد به قلاون لأنه مملوكه، قال: كنت في سنّ المراهق أو قريباً منه، وكنت أجزّ الجنيب، ولما ملكها قسم أبراجها على الأمراء ليهدموها، وجعل هدمها دستورهم.

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر أبياتاً يصف فيها هذه الفتوح منها:
لا يحسب الناس قيساريّة ضعفت وأسلمت نفسها من خبقة رهبا
لكنها بذبول النصر قد علقّت وقد أته لعكا تطلب الحسبا
كذاك أرسوف لما حاز غايتها ما جاء مختطبا بل جاء مُختطبا
لئن غدا أخذ الدنيا ومُعطيها فإنه أحسن التعميم مُحتسبا

البلاد التي ملكها للأمراء لما ملكها؟!!

ولما استولى السلطان على هذه الفتوح، جعلها لأمرائه من إنعامه الممنوح، فقسمها عليهم بتواقيع بأيديهم، وكتب بالتمليك توقيعاً جامعاً نسخته:
أما بعد حمد الله على نصرته المتناسقة العقود، وتمكينه الذي رفلت الملة الإسلامية منه في أصفى البرود، وفتحته الذي إذا شاهدت العيون مواقع نفعه وعظيم وقعه، علمت لأمر ما يُسوّد من يسود، والصلاة على سيدنا محمد الذي جاهد الكفار، وجاهرهم بالسيف البتار، وأعلمهم لمن عقبى الدار، وعلى آله وصحبة صلاة تتواصل بالعشي والإبكار، فإن خير النعم نعمة وردت بعد اليأس، وأقبلت على فترة من تخاذل الملوك وتهاون الناس، فأكرم بها نعمة وصلت للملة المحمدية أسباباً، وفتحت للفتوحات أبواباً، وهزمت من التتار والفرنج العدوّين، ورابطت من الملح الأجاج والعذب الفرات بالبرين والبحرين، وجعلت عساكر الإسلام تُذلّ الفرنج بغزوهم في عقر الدار،

وتجوس من حصونهم المانعة خلال الديار والامصار، وتقود من فضل عن
 شع السيف الساعب إلى حلقات الإسار، ففرقةً منها تقتلع للفرنج قلاعاً
 وتهدم حصوناً، وفرقة تبني ما هدم التار بالشرق وتعليه تحصيناً،
 وفرقة تتسلم بالحجاز قلاعاً شاهقة، وتتسم هضاباً سامقة، فهي بحمد الله
 البانية الهادمة، والقاسية الراحمة، كل ذلك بمن أقامه الله سيفاً ففري، وحملت
 رياح النصره بركابه تسخيراً، فسار إلى مواطن الظفر وسرى، وكونته السعادة
 ملكاً إذا رأته في دستها قالت: ما هذا بشراً، وهو السلطان الملك الظاهر
 ركن الدنيا والدين أبو الفتح بيبرس، جعل الله سيوفه مفاتيح البلاد،
 وأعلامه أعلاماً على رأسها من الأسنه نار لهداية العباد، فإنه آخذ البلاد
 ومعطيها، وواهبها بما فيها، وإذا عامله الله بلطفه شكر، وإذا قدر عفا
 وأصلح، فوافقه القدر، وإذا أهدت إليه النصره فتوحات قسمها في حاضرها
 لديه متكرماً وقال: الهدية لمن حضر، وإذا خوّه الله تخويلاً وفتح على يديه
 قلاعاً، جعل الهدم للأسوار، والدماء للسيف البتار، والرقاب للإسار، والبلاد
 المزدرة للأولياء والأنصار، ولم يجعل لنفسه إلا ما تُسطره الملائكة في
 الصحائف لصفاحه من الأجور، وتطوى عليه طويات السير التي غدت بما فتحه
 الله من الثغور بإسمه، باسمه الثغور:

فأعطى المدن واحتقر الضياعها	فتى جعل البلاد من العطايا
عياناً ضعف ما فعلوا سماعاً	سمعنا بالكرام وقد أراناً
جيلاً كان ما فعل ابتداعاً	إذا فعل الكرام على قياس

ولما كان بهذه المثابة، وقد فتح الفتوحات التي أجزل الله بها أجره،
 وضاعف ثوانه، وله أولياء كالنجوم ضياء، وكالأقدار مضاء، وكالعقود
 ناسقاً، وكالويل نلاحقاً إلى الطاعة وتسابقاً، رأى أن لا ينفرد عنهم
 بنعمة ولا يتخصص، ولا يستأثر بمنحة غدت بسيوفهم تستنقذ وبعزائمهم
 تستخلص، وأن يؤثرهم على نفسه، ويقسم عليهم الأشعة من أنوار شمس،

ويبقى للولد منهم وولد الولد، ما يدومُ إلى آخر الدهر ويبقى على الأبد، ويعيش الأبناء في نعمته كما عاش الآباء، وخبر الإحسان ما شمل وأحسنه ما خلد، فخرج الأمر العالي، لا زال يشمل الأعقاب والذراري، وينبر إنارة الأنجم الدراري، أن يملك أمراءه وخواصه الذين يذكرون، وفي هذا المكتوب يسطرون، ما يعين من البلاد والضياع^(١)، على ما يشرح ويبين من الأوضاع وهو:

- الأتابك فارس الدين أقطاي الصالحيّ، عتّيل بكهاها.
- الأمير علاء الدين أيدغدي العزيزي، نصف زيتا.
- الأمير بدر الدين تيسري الشمسي، نصف طور كرم.
- الأمير سيف الدين الدكر الكركي، ربع زيتا.
- الأمير سيف الدين قليج البغدادي، ربع زيتا.
- الأمير ركن الدين بيبرس خاص نرك الكبير، أفراسين.
- الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار نامة الشريفة.
- الأمير عز الدين أيدمر الحلبي، نصف قلنسوة.
- الأمير شمس الدين سنقر الرومي، نصف قلنسوة.
- الأمير سيف الدين قلاون الألفي، نصف طيبة الإسم.
- الأمير عز الدين يوغان سم الموت، نصف طيبة الإسم.
- الأمير جمال الدين أقوش النجيب، أم الفحم بكهاها.
- الأمير علم الدين سنجر الحلبي، تبان بكهاها.
- الأمير جمال الدين أقوش المحمدي الصالحي، نصف بورين.
- الأمير علاء الدين أيدغدي الحاجب، نصف نيرين.
- الأمير فخر الدين الطوينا الحمصي، نصف نيرين.
- الأمير بدر الدين بيليك الأيدمري، نصف بورين.

(١) هي جميعاً قرى وضيع حول قيسارية وأرسوف.

الأمير فخر الدين عثمان بن الملك المغيث، ثلث حلبة.
الأمير شمس الدين سلار البغدادي، ثلث حلبة.
الأمير صارم الدين صراغان، ثلث حلبة.
الأمير ناصر الدين القيمري، نصف البرج الأحمر.
الأمير سيف الدين بلبان الزيني، نصف البرج الأحمر.
الأمير سيف الدين أيتمش السعدي، نصف تيا.
الأمير سيف الدين آقسنقر السلحدار، نصف تيا.
الملك المجاهد سيف الدين إسحاق، نصف ذنابة.
الملك المظفر «علاء الدين أخوه»، نصف ذنابة.
الأمير بدر الدين محمد بن بركتخان دير العصفور.
الأمير عز الدين أيبك الأفرم نصف شويكة.
الأمير سيف الدين كرمون أغا التتري، نصف شويكة.
الأمير بدر الدين بيليك الوزير، نصف طرس.
الأمير ركن الدين منكورس الدواداري، نصف طرس.
الأمير سيف الدين فشتمر العجمي، علاّر بكهاها.
الأمير علاء الدين أخو الدوادار، نصف عرعرآ.
الأمير سيف الدين بيجق البغدادي، نصف عرعرآ.
الأمير علم الدين سنجر الأركشي، نصف قرعور.
الأمير سيف الدين دكاجك البغدادي، نصف قرعور.
الأمير علم الدين سنجر طرج الأمدي، سباها.
الأمير سيف الدين أيتمش بن أطلس خان، سيّدآ [بكهاها].
الأمير علاء الدين كندغدي الظاهري أمير مجلس، الصير القوما.
الأمير عز الدين أيبك الحموي، نصف أرتاح.
الأمير شمس الدين سنقر الألفي، نصف أرتاح.

الأمير علاء الدين طيبرس الظاهري، نصف باقة الغربية.
الأمير علاء الدين التنكزي، نصف باقة الغربية.
الأمير عز الدين «أيدمر الفخري»، الفصير بكماها.
الأمير علم الدين سنجر الصيرفي الظاهري، أخصاص بكماها.
الأمير ركن الدين بيبرس العزي، نصف قفير.
الأمير شعاع الدين طفريل الشبلي، نصف كفرراعي.
الأمير علاء الدين كندغدي الحبيشي، نصف كفرراعي.
الأمير شرف الدين يعقوب بن أبي القاسم، نصف كسفا.
الأمير بهاء الدين يعقوب الشهرزوري، نصف كسفا.
الأمير جمال الدين موسى بن يغمور، نصف ابرويله.
الأمير علم الدين سنجر الحلبي، نصف برويله.
الأمير علم الدين سنجر أمير جاندار، نصف حانوتا من أرسوف.
الأمير سيف الدين بينعان الركني افراد، نسيفا.
الأمير عز الدين أيدمر الظاهري نائب الكرك، ثلث حَبْلة من أرسوف.
الأمير شمس الدين سنقرجاه الظاهري، ثلث حَبْلة.
الأمير جمال الدين أقوش، ثلث حَبْلة.
الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح، ثلث جلجولية.
الأمير «سيف الدين بجكا الرومي»: ثلث جلجولية.
الأمير علاء الدين كشتغدي الشمسي، ثلث جلجولية.
ولما فرغ السلطان من ذلك عاد إلى الديار المصرية مظفراً منصوراً، فدخل
المدينة يوم الخميس حادي عشر شعبان من هذه السنة.

☆☆☆

اقول... لقد بدأ الأسد الضاري هجماته... ليثأر من التتار... فلما ولّوا
الأدبار...
أقبل على البلاد الباقية بأيدي الفرنج بالساحل... يستخلصها من أيديهم
ثغراً ثغراً... وبلداً بلداً...
فكانت أول فتوحاته قيسارية وما حولها...
ثم حيفا وما حولها...
ثم أرُسوف وما حولها!!!
إلا أنّ أروع أخلاقه... أنّ ما فتحه من بلاد الفرنجة... وزعها
كلها على أمرائه... ولم يستبق لنفسه شيئاً!!!
وهذا دليل جديد على عبقرية بيبرس!!!
إنه جواد كريم... واسع الإنعام على من حوله...
وهذا أمضى سلاح يجمع القلوب على الحاكم... ويثبت عرشه تثبيتاً!!!

بيبرس ...

وعبقرية ...

الحُكْم والسياسة ...!؟

قطع أيدي الولاة والمستولين؟!!

ومنها:

أنه قطع أيدي جماعة من نواب الولاة... والمقدمين...
والحقراء... وأصحاب الرباع... بالقاهرة...

وسببه أنه نزل القاهرة بالليل متنكراً... ليرى أحوال الناس...
فرأى بعض المقدمين... وقد أمسك امرأة وعراها سراويلها
بيده... ولم يجسر أحد أن ينكر عليه!!!

اقول... هاهنا وقفة طويلة للتاريخ!!!

إن السلطان الفاتح المنتصر... لا تشغله انتصاراته الحربية وفتوحاته
العسكرية... عن الجبهة الداخلية!!!

إنه يتنكر ليلاً... وينزل بنفسه ليشهد أحوال الجماهير...

فرأى مسئولاً يمسك امرأة... وعراها سراويلها بيده!!!

فثارت ثورة بييرس... وهاج هياج الأسد الضاري...

وعلى الفور أمر بقطع أيدي مجموعة من نواب الولاة والمقدمين والحقراء!!!

وهذه هي عبقرية الحكم... وليس الحكم أن يجلس الحاكم مَيِّتاً على كرسيه

لا يشعر بالآلام الناس... ولا يبطش بمجرم ولا ينكل بوغد أثم!!!

وانظر حين يفعل بيبرس ما فعل من قطع أيدي المستهترين... هل يجرو
كلب أن معندي على أحد؟!!

السلطان يُوتّي قضاة من بقية المذاهب!؟

ومنها: أن السلطان ولي من بقية المذاهب قضاة بالديار المصرية...
مستقلين... يولون من جهتهم في البلدان أيضًا... كما يسولي
الشافعي...

فكان قاضي الشافعية تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز...
وقاضي الحنفية شمس الدين بن سليمان...
وقاضي المالكية شرف الدين السبكي...
وقاضي الحنابلة شمس الدين محمد بن ابراهيم المقدسي...
وكان ذلك يوم الاثنين الثاني والعشرين من ذي الحجة بدار
العدل...

وكان سبب ذلك كثرة توقف القاضي تاج الدين...
فأشار الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي على السلطان الملك الظاهر...
بأن يولي من كل مذهب قاضي قضاة استقلالاً...
وكان السلطان يحب رأيه ومشورته...
فأجاب إلى ذلك...
وكذلك فعل بدمشق في السنة الآتية!!!

مقتل خمسة وأربعين ألف مقاتل في المغرب!؟

ومنها: أنه ورد خبر من بلاد المغرب بأنهم انتصروا على الفرنج...
وقتلوا منهم خمسة وأربعين ألف مقاتل!!!
وأسروا عشرة آلاف!!!
واسترجعوا اثنتين وثلاثين بلدة... منها سرين وأشبيلية وقرطبة
ومرسية...
وكانت النصره يوم الجمعة الرابع عشر من رمضان... سنة ثنتين
وستين وستائة...

هَرَمَ من رءوس القتلى!؟

وقال أبو شامة:
ورد الى دمشق كتاب ينضمن أنه ورد إلى القاهرة في جمادي الآخرة من
هذه السنة... كتاب من المغرب... يتضمن نصر المسلمين على النصارى في بر
الأندلس...
ومقدّم المسلمين سلطانهم... أبو عبدالله بن أحمـر... رحمه الله...
وكان الفُنس^(١) ملك النصارى قد طلب منه الساحل من طريف إلى
الجزيرة ومالقه إلى المرية...
فاجتمع المسلمون ولقوهم... فكسروهم مراراً...
وأخذ أخو الفُنس أسيراً!!!

(١) هو الموسو العاشر ملك فشتالة وليون...

ثم اجتمع العدو في جمع كثير على غرناطة...
فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة...
فجمع من رءوسهم نحو خمسة وأربعين ألف رأس...
فعملوها كوماً!!!
وطلع المسلمون عليها وأذّنوا!!!
وراح الفُنس إلى أشبيلية منهزماً!!!

☆ ☆ ☆

اقول... قد رأينا بيبرس حازماً قاطعاً كالسيف... اذا رأى انحرافاً عاجله
على الفور...
رأى في تجسسه ليلاً متنكراً هذا العرييد يحاول أن ينزع سراويل امرأة
بالقوة... فتعقب السلطان الأمر على الفور... وأمر بقطع أيدي كل من كان
على صلة بالحادث من قريب أو بعيد!!!
ورأيناه ييسر للناس قضاياهم...
فلا احتكار للقضاء بأيدي الشافعية وحدهم...
وانما هناك قضاة لكل مذهب... تخفيفاً عن الناس وتيسيراً!!!
فهو يتطور دائماً نحو الأحسن...
لا جهود ولا تسيب... وانما تطور وتيسير!!!

وفاة طاغية الزمان...

هولاكو...

حفيد جنكيزخان...؟!!

هَلَاوُنْ!؟

الكلام فيه على أنواع:

الأوّل في نسبه ومبدأ أمره: هو هَلَاوُنْ قان بن طلوخان بن جنكزخان ملك التتار، وهو بفتح الهاء واللام وضم الواو وفي آخره نون مثل قلاوُنْ، وقد يقال بضم الهاء، ويقال له أيضاً: هُلاكو بالكاف بعد اللام بغير نون في آخره، ويقال له أيضاً: هَلَاوُ باللام موضع الكاف.

وكان باطوخان والد هلاون استولى على بلاد العجم، بعضها في حياة والده جنكزخان، ولما مات جنكزخان استولى باطوخان على الجميع، وأفسد وقتل في البلاد، ثم لما هلك استولى ولده هلاون على البلاد، ولكن كان تحت حكم أخيه منكوقان، وكان منكوقان هو المالك للبلاد كلها، ولما هلك منكوقان في سنة ثمانية وخمسين وستائة استبدَّ هلاون بالمملكة، ولم يبق له معارض، فأفسد في بلاد الإسلام ما لا يمكن وصفه، فطغى وتجرى إلى أن أهلكه الله تعالى على ما نُبيئُهُ عن قريب.

الثاني في سيرته: كان ملكاً جباراً عنيداً، سفاكاً للدماء، لا يتدين بدين من الأديان، وكانت زوجته طغرختون قد تنصرت، وكانت تعضد النصراني، وكان هلاون يترامى على محبة المعقولات، ولا يتصور منها شيئاً، وكان أهل المعقولات من أفراح الفلاسفة عنده، لهم وجاهة ومكانة، وكان

تصير الدين الطوسي العالم في العقليات - صاحب التصانيف منها: التجريد في الكلام - عنده، خصيصًا به، يشاوره في مصائبه، وكان الطوسي شيعيًا خبيثًا، وكان معه حين أخرج هلاون بغداد وقتل الخليفة، وكان هو أحد الأسباب لذلك، عليه ما يستحق، وكانت همة هلاون في تدبير المملكة وملك البلاد شيئًا فشيئًا حتى أباده الله تعالى في هذه السنة

الثالث في هلاكه:

مات في تاسع ربيع الآخر من هذه السنة، بالقرب من كورة مراغة بمرض الصدع.

وقال ابن كثير: مات بمدينة مراغة. قيل: حملوه إلى قلعة تَلَا ودفنوه بها، وبنوا عليه قبة، وكان عزمه أن يجمع عساكره من البلاد ويقصد بلاد الشام ومصر، ولكن الله أهلكه وأراح البلاد والعباد منه، ولما بلغ السلطان الملك الظاهر بيبرس خبر هلاكه فرح فرحًا عظيمًا، وعزم على جمع العساكر ليأخذ بلاد العراق، فلم يتمكن من ذلك لتفرق العساكر.

الرابع: في مدة مملكته وبيان عددها وأولاده:

أما مدة مملكته فكانت نحو عشر سنين. وأما بيان عدد مملكته: فإنها البلاد التي كانت بيد والده حال وفاته وهي: إقليم خراسان وكرسيها نيسابور، ومن مدنها المشهورة: طوس وهرارة وترمز وبلخ.

وعراق العجم: وكرسيه أصبهان، ومن مدنه قزوين وقم وقاشان وسهرورد وسجستان وطبرستان وكيلان وبلاد الإسماعيلية. وعراق العرب: وكرسيه بغداد، ومن مدنه واسط والكوفة والبصرة والدينور وغيرها.

وأذربيجان: وكرسیها تبریز، ومن مدنها خوی وسلهاس ونقجوان.
وخوزستان: وكرسیها ششتر، ومن مدنها الأهواز وغيرها.
وبلاد فارس: ومدینتها شیراز، ومن أعمالها كتشن وكرمان وكازرون
والبحرين.

وديار بكر: وكرسیها الموصل، ومن مدنها میافارقین ونصيبین وسنجار
واسعرد ورأس العين ودنيسر وحران والرها وجزيرة بني عمر.
وبلاد الروم: وكرسیها، قونية، ومدنها كثيرة.
وأما أولاده فخمسة عشر ذكرا وهم^(١):

جماغار: وهو أكبرهم سنًا، وأبغا: بالغين ويقال بالقاف، ويصمت،
وتبشين، وتكشي، وتكدار وهو الذي يقال له أحد، وآجاي، وألاجو،
وسبوجي، ويشودار، ومنكوتر، وقنفرطاي، وطرغاي، وطغاي، وتمر وهو
أصغرهم.

ولما هلك هلاون جلس موضعه أبغا بن هلاون.

ذكر جلوس أبغا في كرسي المملكة:

ولما استقر في المملكة بعد وفاة والده هلاون، جهز جيشًا لحرب عساكر
بركة خان ملك بلاد الدشت والجهة الشمالية، وبركة هو ابن صاين خان بن
دوشي خان بن جنكزخان، وهو ابن عم هلاون، ولما بلغ بركة ذلك جهز
جيشًا وقدم عليه بيشو نوغان بن ططر بن مغل بن دوشي خان بن جنكزخان،
فسار في المقدمة، ثم أردفه بركة بمقدم آخر اسمه يَسُنَتاي في حُسين ألف

(١) وكان لهولاكو خان أربعة عشر ولدًا وسبع بنات.

فارس، فسبق يشو نوغا فيمن معه، وتقدم إلى عسكر أبغا وردفه يستاي على الأثر، فاستشرفت عساكر أبغا على يستاي وهو مقبل في سواده العظيم، كقطع الليل البهيم، فتكردسوا وتجمعوا للهزيمة فبصر بهم يستاي، وقد تحلفوا فظنهم أحاطوا بينوغا ومن معه، فام يلبث أن انهزم راجعًا وفر مسارعًا، وأما نوغا فإنه تبع عسكر أبغا وساق عليهم، وتواقع معهم، فكسرهم وقتل منهم جماعة وظفر بهم، وعاد إلى بركة فعظم أمره وارنفع قدره، وقدمه بركة على عدة تمانوت، وصار معدودًا في الخانات، وأما يستاي فعظم ذنبه عند بركة.

☆ ☆ ☆

اقول... وهلك الطاغية الأكبر... والهمجي الذي لا يعرف رحمة ولا شفقة!!!

مات كما يموت الجبارون... مية الكلاب!!!
فيتحولون إلى جيف منتنة... تعافها الكلاب!!!
مات من كان اسمه يثير الرعب والهلع في الكبار والصغار!!!
مات فكان مونه هدية من القدر الضاحك ملء فمه... الى الملك الظاهر بيبرس!!!

كأن المقادير تتولى افساح المجال لبيبرس شرقًا وغربًا...
لينتفض عملاقًا وحده...
أما أعدى أعدائه بالشرق... هولاكوا... فقد مات!!!
وأما بقايا أعدائه بالغرب بلاد الصليبيين بساحل الشام... فهي نتهوى تحت قدميه!!!
قالوا:

« ولما بلغ السلطان الملك الظاهر بيبرس خبر هلاكه فرح فرحًا

نظيماً «!!!

وقالوا:

«وكان عزمه - اي هولاكو - أن يجمع عساكره من البلاد ويقصد بلاد الشام ومصر... ولكن الله أهلّكه وأراح البلاد والعباد منه»!!!

البطل...

السلطان الملك الظاهر...

يواصل الفتوحات...!؟

في السنة الرابعة والستين بعد الستائة...
استهلت هذه السنة والخليفة... هو الحاكم بأمر الله... ولكنه غير
مرجوع إليه... ولا إليه الأمر والنهي... وإنما هو باسم الخليفة!!!
وسلطان البلاد المصرية والشامية والحلبية: الملك الظاهر بيبرس...
وقضاة مصر أربعة من أربع مذاهب مستقلين...
ونائبه في دمشق: الأمير جمال الدين النجيب...
وقاضي القضاة الشافعية بها شمس الدين بن خلكان...
وقاضي القضاة الحنفية شمس الدين عبد الله...
وقاضي القضاة المالكية زين الدين بن عبد السلام...
وقاضي القضاة الحنابلة شمس الدين... بن قدامة....
وكان هذا الصنيع لم يسبق الى مثله... وتجدد هذا في دمشق في هذه
السنة... وأما في ديار مصر ففي السنة الماضية!!!

سفر السلطان الى جهة الشام!؟

وفي هذه السنة قصد السلطان... فتح صفد... من أيدي الفرنج الكفار... وما حولها من البلاد... فتوجه إلى الشام... واستناب بالقلعة الأمير عز الدين أيدير الحلبي... في خدمة ولده الملك السعيد... وكان خروجه من القاهرة مستهل شعبان... ولما وصل إلى غزة جرد الأمير سيف الدين قلاون الألفي... والأمير جمال الدين أيديغدي العزيزي... لمنازلة الحصون التي حول طرابلس!!!

★ ★ ★

فَتْحُ القَلِيعَاتِ وَحَلْبَاءِ وَعَرَقًا فِي شَعْبَانَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ!؟

قال بيبرس: ولما أشرفنا على القليعات، سأل أهلها الأمان، فأمنهم قلاون، وتسلم الحصن، وحمل الأسرى المأخوذين منه على جمال أرسلها السلطان إليه، وحمل بهم على جسر يعقوب بحيث يراهم أهل صفد، فانقطعت قلوبهم خوفًا وفرقًا، وشاهدوا أصحابهم على تلك الحال، والعساكر تسوقهم مصفدين على الجبال، فأيقنوا بالتلف، هذا والسلطان قد نازلهم، فانضم هذا العسكر إليه، واجتمعوا لديه.

فتح صفد؟!؟

في تاسع عشر رمضان منها، أعني من سنة أربع وستين وستائة، نزل السلطان الملك الظاهر على صفد في الثامن من شهر شعبان، وقد جمع لحصارها العساكر المصرية والشامية، وأحضر إليها المجانيق، فحملتها الرجالة على أعناقهم وحاصرها حصاراً شديداً، وأخذت النفوس، واستمر القتال، فسلموا الباشورة في خامس عشر الشهر، واشتد على الفرنج الحصار، وامتد للمسلمين الإستظهار، فأرسلوا في طلب الأمان، فأجيبوا إليه في تاسع عشر الشهر، وفتحت أبوابها، وطلعت عليها السناجق، وتسلمها السلطان، وأخرج أهلها، وأمر بأن يجمعوا على تل هناك كانوا يجتمعون فيه لقطع الطريق على المسلمين، وأن تسفك دماؤهم حيث كانوا يسفكون الدماء الحرام، فأذيقوا هنالك طعم الحمام.

ونقل السلطان إليها ما يحتاج إليه من الآلات والزرذخانات، وأحضر جماعة من الرجالة الدمشقيين، فرتبهم بها، وقرر لهم الجامكيات والجرايات، ورتب للقلعة كفايتها من النفقات، وعمر فيها جامعاً في ربضها للمصلوات، ورحل عنها متوجهاً إلى دمشق ودخلها في الخامس من ذي القعدة وأقام بها.

غزو سيبس

ولما استقر ركاب السلطان في دمشق جرد العساكر للإغارة على سيبس، صحبة الملك المنصور صاحب حماة، وقدم على العسكر الأمير سيف الدين قلاون، والأمير عز الدين يوغان الركني سمّ الموت، فساروا ودخلوا

دريساك^(١)، ومنه إلى الدررند^(٢)، وكان الملك هشوم بن قه طنطين بن ناه الك قد ملك ولده ليفون وانقطع مترهبًا، وبنى ليفون أبراجًا لينفج بها، فكانت كقول الشاعر:

وإن يبئن حيطانًا عليه فإنما أولئك عقالاته لا معاقله
ولما خرجت العساكر من الدررند، وجدوا الأرمن على سطح الجبل، قد صفوا الصفوف، واستعدوا للوقوف؛ بل للحتوف، فالتقوا معهم، وصدموهم صدمة كانت الكسرة فيها عليهم، وأخذوا ليفون أسبروا وولده معهم، وقتلوا عمه وأخاه، وانهزم عمه الآخر المسمى كنداسيطيل، وصاحب حموص^(٣)، وتمزقت منهم جماعة، وقتلت أكابرههم، وأغارت العساكر على كرنجيبيل وسرفندكار، ونل حمدون، ونهرجان، ونزلوا من هنالك إلى مكان قريب من قلعة تسمى العمودين^(٤)، فأصابوا جماعة كثيرة من التتار وغيرهم، وقتلوا ما شاء الله منهم، وسبوا سباياهم، وأخربوا القلعة وأحرقوها، ودخلوا إلى سيسى فأخربوها، وتركوها خاوية على عروشها، وهدموا قلعة الديوية المعروفة بالساب، وغنمت العساكر في هذه الغزاة ما لا يحصى كثرة، وبيع الرأس البقر بدرهمين لكثرة المواشي التي أصابوها، وأرسلوا إلى السلطان يخبرونه بالنصرة، ويبشرونه بأن له الظفر ولأعدائه الكسرة.

وكان الذي بعث به الأمير عز الدين سمّ الموت جنديًا من أجناده اسمه كرجي، فسبق إلى الدهليز، وبشر السلطان وعرفه صورة الغزاة وكيفية الغارات، فرأى فيه شهامة، ولح منه نقمة وصرامة، فسأله عن شأنه فأخبره

(١) دريساك=دريساك: حصن شمال غرب أطاكية.

(٢) الدررند: لفظ فارسي بمعنى المضائق والطرقات، والمعابر الضيقة، والمقصود هنا الطرق المؤدية إلى سيس.

(٣) حموص=حصص. قلعة حصينة بالقرب من قصر جيحان.

(٤) قلعة العمودين: قلعة حصينة للداوية بأرمينية الصغرى.

أنه من أجناد الأمر المشار إليه ، فأنعم عليه وأمره بطبلخانة ، ولم يزل مستمراً على الإمرة إلى حين وفاته في الدولة الأشرفية .

رحيل السلطان من دمشق؟!!

ولما سمع السلطان من الجندي المذكور بشارة الفتح رحل من دمشق نحو حماة ، ومنها إلى أفامية للدمقي العسكر ، وعاد ودخل دمشق ، وملوك الأرمن قدامه راكبين ، وأسراهم مساقين أمامه ، والعساكر الشامية والمصرية قد طلبت وتجمعت .

وقال أبو شامة : وكان دخول السلطان دمشق في الخامس والعشرين من ذي الحجة ، فدخلها وبين يديه ابن صاحب سيس ، وسائر الملوك الذين أسرهم لما أخذ بلادهم على نهر جيحان ، وكان يوماً مشهوداً .

قال أبو شامة : وفي بكرة يوم الاثنين السادس والعشرين من ذي القعدة قرئ بجامع دمشق كتاب ورد من بلاد الأرمن السيس وما يجاورها ، يتضمن أن المسلمين من عسكر صاحب الشام ومصر الملك الظاهر بيبرس الذين سيرهم إليها في هذه السنة دخلوها عنوة ، واستولوا عليها قتلاً ونهباً ، وأسروا ملكها ، وقتل أخوه وجماعة من ملوك الأرمن ، وكان ذلك يوم الثلاثاء العشرين من ذي القعدة سنة أربع وستين وستائة ، وكان هذا الملعون قد فتك في المسلمين ، وظاهر عليهم العدو من التتار ، وعمل في حلب لما فتحها التتار أموراً منكراً ، واستولى على أكثر نساها وأطفالها أسراً ، وتقدم إلى بلاد الإفرنج والروم براً وبحراً تحت الذل والهمغار ، فأمكن الله منه ومن بلاده وأخذ بثأر الاسلام .

إيقاع السلطان بأهل قارا؟!!

لما خرج السلطان من دمشق للقاء العسكر المجرى إلى سيس نزل على قارا^(١)، فشكى إليه أهل الضياع التي حولها أن أهلها يعدون عليهم، ويتخطفونهم، ويبيعون من وقع لهم إلى الفرنج بخصم عكار؛ فأمر العسكر بنهبهم، فنهبوا، وقتل كبارهم، وسبي نساؤهم وصغارهم. قال أبو شامة: وفي رابع ذي الحجة من سنة أربع وستين وستائة، أوقع السلطان الظاهر بأهل قارا النصارى، فقتل وسبي وغنم، وكانوا كما شاع عنهم يأخذون من قدروا عليه من المسلمين، ويصبحون بهم إلى بلاد الفرنج، وكان بعض الأسارى الذين خلصوا من قلعة صنفد أخبروا أن سبب وقوعهم في الأسر أهل قارا، ففعل السلطان بهم ذلك.

توجه السلطان إلى مصر؟!!

ولما فرغ شغله في دمشق خرج منها، وفارق العسكر على الدرب، وتوجه جريدة إلى الكرك، وعاد منها إلى الديار المصرية، فتقنطر عن فرسه قريباً من زيزا فأقام هناك أياماً، وركب محفة في الطريق بسبب ألم تألم في وركه، ولما وصل إلى مسجد التبر، الذي تقوله العامة مسجد تبين، لم يرد أن يدخل إلى القاهرة على تلك الحال، فأقام ليالي إلى أن صح وركه، وزال وعكه، وطلع القلعة ممتطياً صهوة جواده، مكمدًا قلوب حسّاده، ففك عن ليفون ابن صاحب سيس قيده وأحسن إليه، وأخذته صحبته وتوجه لرمي البندق ببركة

(١) قارا: قرية على الطريق من دمشق إلى حمص.

الجب، وكتب له موادة على بلاده.
وقال ابن كثير رحمه الله: وطلب صاحب سيس أن يفادي ولده من
السلطان فقال: لا نفاديه إلا بأسير لنا عند التتار يقال له: سنقر الأشقر،
فذهب صاحب سيس إلى ملك التتار، فتذلل له وتخضع حتى أطلق له سنقر
الأشقر، فأطلق السلطان ابن صاحب سيس.

ومنها: أنه قدم ولد الخليفة المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن العباسي
واسمه عليُّ إلى دمشق، وأنزل بالدار الأسيديّة تجاه المدرسة العزيزية، وقد كان
أسيراً في أيدي التتار، فلما كسر بركة خان لهلاون تخلص منهم وصار إلى
ههنا.

اعظم انجاز للسلطان!؟

ومنها: أن السلطان أمر بإراقة الخمر وإبطال المنكرات، وتعفية آثار
المسكرات، ومنع الحانات والخواطي بجميع أقطار مملكته بمصر والشام!!!

يحضر زواج الأمير قلاون!؟

ومنها: أنه عَقِدَ عَقْدَ الأمير سيف الدين قلاون الألفي على ابنة سيف
الدين كرمون التتري الوافد، وهي والدة الملك الصالح علاء الدين علي، وكان
يوماً مشهوداً، وحضر السلطان، وجلس على الخوان، وكان ذلك في الدهليز
بسوق الخيل^(١).

(١) سوق الخيل: تحت قلعة الجبل بالقاهرة.

قال ببيرس: وقدم السلطان للأمير قلاون نقدمة من خيل، وتعالي قماش وأربعة من المالك السلطانية، فقبل التقدمة، واستعفى من قبول المالك، وقال هؤلاء خوشداشيتي في خدمة السلطان، وشكر ما أولاه من الإحسان، وقدم كل أمير من الأمراء ثلاثة رءوس خيلاً وثلاث بقج قماشاً.

حوادث متفرقة!؟

ومنها: أنه وصلت رسل الأنبرور، والفرتش^(١)، وملوك الفرنج، واليمن، بالهدايا إلى صاحب الإسماعيلية، فأمر السلطان بأن تؤخذ الحقوق الديوانية من هذه المراكب إفساداً لنواميس الإسماعيلية، وتعجزاً لمن اكتفى شرهم بالهدية. ومنها: أنه جمع، البرنس بيمند بن بيمند صاحب طرابلس جماعة من الديوية والاسبتار، وقصد مخاضة بلاله، طالباً جهة حصص، وكان النائب بها الأمير علم الدين سنجر الباشقردي، فبلغه الخبر، فسبق الفونسن إلى المخاضة فلما داناها عدت العساكر، فجرّ ذبول الهزائم، وكان يأمل أملاً، فخاف، وقنع من الغنيمة بالإياب.

ومنها: أن السلطان رسم بعمارة مراكب بدمشق وحلها إلى البيرة، فعمرت وحلت إليها.

ومنها: أنه رسم ببناء جسر على الشريعة^(٢)، وكان ماؤها قوي التيار، فاقتضت سعادته أن جاء سيل كثير فحدر صخوراً كباراً فصارت كالسكر^(٣)، فوقفت جرية الماء وبني الجسر.

(١) هكذا بالأصل، والسلوك، ولعل المقصود الرنس صاحب طرابلس.

(٢) الشريعة: مهر الشريعة

(٣) سكر النهر. أي جعل له سداً.

ومنها: أنه بلغه أن خليج الاسكندرية قد ارندم فتوجه بنفسه لحفره.
ومنها: أنه رسم لمنولي قوص وهو علاء الدين الخزندار بأن يتوجه إلى
سواكن^(١)، ويساعد تجار الكارم على المجيء، ويروع علم الدين اسنبغاني
صاحبها عن التعرض إليهم، فتوجه وصحبته عدة مراكب، وجهاز إليه من
القصر خمسة «...»^(٢) فيهم الرجال المقاتلة، فدخلها وفعل ما رسم له
وعاد.

مؤسسة لأهل العاهات!؟

ومنها: أنه أمر بجمع أهل العاهات فجمعوا بخان السبيل، وأمر بنقلهم إلى
الفيوم، وأفرد لهم بلدًا ليكونوا فيه، ويجري عليهم ما يحتاجون إليه، فلم
يستقروا ونفروا، وعاد أكثرهم إلى القاهرة ومصر.
اقول... هذا حصاد عام ٦٦٤ هجرية في حياة الملك الظاهر بيبرس...
اسلوب حياته هو هو!!!
فارس على صهوة جواده... ينتقل في ربوع مملكته غازيًا في سبيل الله!!!
وهذا أعلى وأرقى اسلوب... يمكن أن يرقى اليه انسان!!!
فلا شيء هو أكرم على الله... من مقاتل يقابل في سبيله... أعداء الله!!!
إلا أن أروع أفعاله كان أمره بإراقة الخمر... وإبطال المنكرات...
وتعفيه آثار المسكرات... ومنع الحانات... والخواطي... بجميع أقطار
مملكته بمصر والشام»!!!?
هذا في رأيي هو أعظم انجاز في هذا العام لذلك السلطان العظيم...

(١) سواكن - مياء مسهور على ساحل البحر الأحمر، يتبع حاليًا جمهورية السودان.

(٢) «...» موضع كلمه غير مقروءة، وبدل السياق على أنها سمن حربية بحرية.

فإن القتال في سبيل الله شيء ليس أعظم منه ...
ولكن الأعظم منه هو النهي عن المنكرات ... وتطهير جميع البلاد
من نجاساتها ...

لأنه لا قيمة لجيش مخمور تشيع فيه الفحشاء ...
إن امرأة حسناء لعوب متهتكة واحدة ... تتلاعب أمام عيون جنود
سكاري ... كفيلا أن تدفعهم جميعاً إلى الزنى ...

ولا تنتظر من جندي سكير ... زان ... أن يقاتل قتال الشجعان !!!
ثم إن المسألة ليست مسألة تطهير للمجتمع من خبائث الخمر والزنى
فقط ... وإنما المدلول العظيم الذي تلاً من السلطان العظيم حين منع
المسكرات والحانات وبنات الهوى ... هو امتثاله لأمر ربّه ...

أمره الله بتحريم الخمر ... وتحريم الزنى ... فأطاع واستعمل السلطات
المطلقة التي في يديه ... في تنفيذ ذلك ...

فلا خمر ... ولا زنى ... ولا حانات ... ولا راقصات عاهرات ...
والويل لمن يعصي أوامر بيبرس !!!

إن أعظم انسان على الأرض ... حاكم آتاه الله مُلكاً ... فحكّم بما
أنزل الله ... وعدل في الناس ... وأمر بالمعروف ... ونهى عن
المنكر !!!

وقد كان بيبرس كذلك !!!

بطل ... لا يتوقف عن الفتوحات واذلال التتار شرقاً ...
والصليبيين غرباً ...

وفي الداخل ... مارد عملاق يرعب المجرمين ... ويرهب
الداعرين ... ويبطش بالمفسدين !!!

وهذا أقصى ما يُطلب من حاكم يحكم الناس !!!

انظر الى جمال عبقرية بيبرس !!!

أراقه الخمر... فوراً يُحطَّم أواني الخمر في جميع أنحاء المملكة
المتدة من السودان جنوباً... الى ما بعد حلب شمالاً!!!
إبطال المنكرات... فوراً كل شيء حرمه الله ممنوع... في جميع
أنحاء المملكة!!!

وتعفية آثار المسكرات... المخدرات... الحشيش...
المشمومات... كل أنواع الإدمان القذر... ومجتمعاته تُدمَّر فوراً في
جميع أنحاء البلاد!!!

ومنع الحانات... جميع أنواع الصالات... والمراقص... وسهرات
الليل... تُدمَّر فوراً...

والخواطي... جمع خاطئة... أي امرأة عاهرة... تتعاطى
الفاحشة... جميع هؤلاء يُقضى عليهن فوراً... وان اقتضى الأمر
إعدامهن فليُعدَّمن فوراً!!!

ذلكم بيبرس!!!

أسد ضار... في الخارج... يزأر في الأعداء فتترنح مفاصلهم ما
بين قتيل وأسير!!!

ويزأر في الداخل... فيبَدِّد المجرمين والقوَّادين والمخمورين
والمدمنين... فإمَّا تابوا وأقلعوا... وإمَّا تعقبهم بالإبادة والقتل!!!

إنه مثال رائع... للمعنى الجامع... للحاكم في الإسلام!!!

فلا فصل بين الدين والدولة... وإنما هما وحدة واحدة لصالح

الإنسان والمجتمع!!!

وأخرى من أعظم إنجازاته... «أنه أمر بجمع أهل العاهات...
فجمعوا بخان السبيل... وأمر بنقلهم إلى الفيوم... وأفرد لهم بلدًا

ليكونوا فيه... ويجري عليهم ما يحتاجون إليه»!!!

لم تشغله فتوحاته الخارجية... عن اصلاح الداخل...

حتى أصحاب العاهات يعالج موضوعهم...
أمرٌ عام... يُجمع جميع أصحاب العاهات في أنحاء المملكة...
ثمّ يُنقلون الى الفيوم...
ومنها الى بلدٍ خاصٍ لهم...
مؤسسة عامة... فيها جميع ما يحتاجون اليه في معيشتهم...
وعلاجهم... ويحقق السعادة لهم ولذويهم!!!
ذلكم بيبرس!!!
وكم في تاريخنا من أمجاد وأماجد لا نعرف عنهم شيئاً!!!

رسالة السلطان...

الملك الظاهر بيبرس...

الى القاضي ابن خلكان...

لما أخذ حصن صغد...!؟

رسالة السلطان الظاهر بيبرس إلى القاضي ابن خلكان
سنة ٦٦٤ هـ لما أخذ صفد من إنشاء كمال الدين أحمد بن
العجمي؟!!

سر الله خاطر المجلس السامي وأطلع عليه وجوه البشائر سوافر، وأمتع
نواظره باستجلاء محاسنها النواضر، وواصلها إليه متوالية تواجهه كل يوم
بمراتبها الزواهي الزواهر، وأمائلها لديه متضاهية الجبال متناسبة في حسن
المبادي والأواخر، ولم تزل وجوه البشائر أحسن وجوه تستجلي، وألفاظه
أعذب ألفاظ تسنعد وتسحلي. وإذا كررت على المسامع أحاديث كتبها لا
تم بل تستملي، لا سيما إذا كانت بإعزاز الدين وتأييد المسلمين، ونباً فتح
نرجو أن يكون طليعة فتوحات كل فتح منها هو الفتح المبين، فإن أنباءها
تجل وقعاً وتعظم في الدنيا والآخرة نفعاً، وتود كل جارحة عند حديثه أن
تكون سمعاً لحديث هذا الفتح الذي كرم خبراً وحسن أثره في الإسلام ورداً
وصدرًا، وطابت أخبار ذكره فشغل به السارون حياءً والسامرون سمرًا. وهو
فتح صفد واستنقاذه من أسره واسترجاعه إلى الإسلام، وقد طالت عليه في
النصرانية مدة من عمره، واقرار عين الدين بفتحه، وكان قذى في عينه
وشجى في صدره. وقد كنا لما وصلنا الشام بالعزم الذي نفرته دواعي الجهاد،
وأنقذته عوالي الصغد وقربته أيدي الجياد ملنا على سواحل العدو المخذول،

ففرقناها ببحار عساكرنا الزاخرة، وشنينا بها من الغارات ما ألبسها ذلاً رفل
بها الإسلام في ملابس عزه الفاخرة. وهي وإن كانت غارة عظيمة شنت في
يوم واحد على جميع سواحله واستولى بها النهب والتخريب على أمواله
ومنازله، واستبيح من حرمة وحرمة مصونات معاقله وعقائله، إلا أنها كانت
بين يدي عزائمنا المنصورة نشيطة نشطنا بها الغازين واسترهننا بها همم
المجاهدين، وقدمناها لهم كاللهنة قبل الطعام للساغبين، واعقبنا ذلك بما
رأيناه أولى بالنقد والمجرب، ونبينا أشد وطأة على الإسلام وأعظم ضرراً،
وهي صفة التي باء بإثمها حاملها على النصرانية ومسلطها بالنكاية على البلاد
الإسلامية، حتى جعلها للشرك مأسدة آساده ومراد مراده ومجر رماحه ومجرى
جواده، كم استبيح سببها للإسلام من حمى، وم استرق الكفار بواسطتها
مسلمة من الأحرار ومسلماً، وم تسرب منها جيش الفرنج إلى بلاد المسلمين
فحازوا مغنماً وقوضوا معلماً، فنازلناها منازل الليل بانعقاد القساطل،
وطالعتها مطالعة الشمس بريق المرهفات وأسنة الذوابل، وقصدناها بجحفل لم
يزحم بلدًا إلا هدمه ولا قصد جيشًا إلا هزمه، ولا أم ممتنعًا طغى جباره إلا
سهله وقصمه، فلما طالعتها أوائل طلائعنا منزلة، وقابلتها وجوه كماننا المقاتلة
اغتر كافرنا فبرز للمبارزة والقتال، ووقف دون المنازلة داعيًا للنزال. فتقدم
إليه من فرساننا كل حديد الشبا جديد الشباب يهوي إلى الحرب فيرى منه
ومن طرفه أسد فوق عقاب، ويخف نحوها متسرعًا فيقال: إذا لقاء أعداء أم
لقاء أحباب؟! فهم فوارس كمناصلهم رونقًا وضياء، تجري بهم جياذ
كذوابلهم علائًا ومضاء، إذا مشوا إلى الحرب مزجوا المرح بالتيه فيظن في
أعظافهم كسل، وهزوا قاماتهم مع الذوابل فجهلت الحرب من منهم الأسل.
فحين شاهد أعداء الله آساد الله تصول من رماحها بأساودها، وتبدي ظمًا لا
ينقعه إلا أن ترد من دماء الأعداء محمر مواردنا، وأنها قد أقبلت نحوهم
بجحافل تضيق رجب الفضاء، وتحقق بنزولها ونزالها كيف نزول القضاء، وأنه

جيش بعثه الله بإعزاز الجمعة وإذلال الأحد، وعقد برأيته مذ عقدها أن لا قبل بها لأحد، وأن الفرار ملازم أعدائه ولا قرار على زار من الأسد، ولوا مدبرين وأدبروا على أعقابها ناكسين، ولجأوا إلى معقلهم معقلين لا متعقلين. فعند ذلك زحفنا إليه من كل جانب حتى صرنا كالنطاق بخصره، ودرنا به حتى عدنا كاللثام بثغره، وأمطرنا عليه من السهام وبلاً سحبت ذيول سحبه المتراكمة، وأجربنا حولها من الحديد بجرأ غرقه أمواجه الملائمة وضايقتها حتى لو قصد وفد النسيم وصولاً إليه لما تخلص، أو رام ظل الشمس أن يعود عليه فيئاً لعجز لأخذنا عليه أن يتخلص. ثم وكلنا به من المجانيق كل عالي الغوارب عاري المناكب، عبل الشوى سامي الذرى، له وتبات تحمل إلى الحصون البوائق، وثبات تزول دونه ولا يزول. الشوايق، ترفع لمروها السنائر فتدخل أحجاره بغير استئذان، ونوضح لنزوله رؤوس الحصون فتخر خاضعة للأذقان فلم يزل يصدع بثبات أركانه حتى هدمها، وتقبل ثنيات ثغره حتى أبدى ثرمها. وفي ضمن ذلك لصق الحجارون بجداره وتعلقوا بأذيال أسواره ففنحوها أسراباً، وأججوها جحيماً يستعر جمرها النهاباً، فصلي أهل النار بنارين من الحريق والقنال، ومنوا بعدابين من حر الضرام وحد النصال، هذه نستعر عليهم وقوداً، وهذه تجعل هامهم للسيف غموداً.

فعند ذلك جاءهم الموت من فوقهم ومن أسفل منهم، وأصبح ثغرم الذي ظنوه عاصماً لا يغني عنهم، ومع ذلك فقاتلوا قتال مستقتل لا يرى من الموت بدءاً، وثبنوا متحابين يقدون ببيضهم البيض والأبدان قداً؛ فصبر أولياء الله على ما عاهدوا الله عليه، وقدموا نفوسهم قبل إقدامهم رغبة إليه، ورأوا الجنة تحت ظلال السيوف فلم يروا دونها مقبلاً، وتحققوا ما أعدده الله لأهل الشهادة فاستحلوا وجه الموت على جهامته جيلاً. فعند ذلك خاب ظن أعداء الله وسقط في أيديهم وصار رجاء السلامة برؤوسهم أقصى تمنيهم، فعدلوا عن

القتال إلى السؤال، وجنحوا إلى السلم وطلب النزول بعد النزال، وتداخوا بالآمان صارخين وجاؤوا بدعاء التضرع لاجين، فأغمد الصفح عنهم بيض الصفاح، وقانلوا من النوسل بأحد سلاح، واستدعوا راياتنا المنصورة فشفرفوا بها الشرفات ونزلوا على حكمننا فأقلت القدرة لهم العثرات. وتسلم الحصن المبارك وقت صلاة الجمعة ثامن عشر شوال، وتحكم نوابنا على ما بها من الذخائر والأموال... ونودي في أرجائها بالواحد الأحد... الخ.

عامّ حافل...
في حياة...
السلطان...!؟

في السنة الخامسة والستين بعد الستائة ...

عودة السلطان من دمشق إلى مصر!؟

كان اول السنة يوم الأحد... وفي اليوم الثاني خرج السلطان من دمشق الى مصر... وقد ذكرنا أنه أرسل العساكر بين يديه إلى غزة... وعدل هو الى ناحية الكرك^(١) لينظر في أحوالها... ولما وصل إلى القاهرة واستقرّ ركابه فيها نظر في أمور الناس.

السلطان يصلي الجمعة في الأزهر ويأمر بعمارتة!؟

ثم في ثامن عشر ربيع الأول نزل السلطان الى الجامع الأزهر... وصلى فيه الجمعة... ولم تكن تقام فيه الجمعة من زمن العبيديين^(٢) الى هذا الحين...

(١) الكرك: قلعة حصينة جدًا في أطراف الشام... بين أيلة والقلزم على سن جبل عال.
(٢) نسبة الى عيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب. وقد سقطت الدولة الفاطمية بالقاهرة على يد صلاح الدين الأيوبي في اول المحرم ٥٦٧ هـ.

وهو أول مسجد وضع بالقاهرة...
بناه جوهر القائد...
وكان تقام فيه الجمعة إلى أن بنى الحاكم جامعهم فحول إليه الجمعة وترك
الأزهر...
فأمر السلطان بعمارتهم... وبياضهم... وإقامة الخطبة فيه...
وكان فراغ جوهر القائد من بنائهم في سنة إحدى وستين وثلاثمائة في
خلافة المعز بن المنصور... بعد بناء القاهرة بثلاث سنين...
واستمرت إقامة الجمعة فيه إلى يومنا هذا...
وقد كانت انقطعت الخطبة فيه مدة تناهز مائة سنة... فأراد الله إعادتها
للإمام الحاكم... والملك الظاهر...

الملك المنصور يستأذن ليشهد الإسكندرية!؟

ثم وصل الملك المنصور صاحب حماة إلى خدمة السلطان بالديار المصرية،
ثم طلب منه الدستور^(١) بأن يتوجه إلى الإسكندرية ليتفرج فيها، فرسم له
بذلك، وأمر لأهل الإسكندرية بإكرامهم واحترامهم، وفرش الشقق^(٢) بين يدي
فرسه، فتوجه إليها وتفرج، ثم عاد إلى الديار المصرية مكرماً محترماً، ثم خلع
عليه السلطان وأحسن إليه على جاري عادته، ورسم له بالعود إلى بلده، فعاد.
وتوجه الملك المنصور إلى العباسية^(٣) أيضاً صحبة السلطان للصيد، وعاد
صحبه، ثم سافر إلى محلّ ولايته.

(١) الدستور=الساتير: فارسية، من معانيها الإجازة أو الإذن.

(٢) النسفة=الشقق: قطعه من قماش الكتان أو شعر الماعز.

(٣) العباسية: بفتح أوله وتشديد ثابيه - بلدة في الطريق من مصر إلى الشام تبعد عن القاهرة نحو ٧٥ كم، أصبحت منذ عهد الملك الكامل الأيوبي منتزهاً فقد كان يكثر الخروج إليها للصيد لأن إلى جانبها مما يلي البرية مستنقع ماء يأوي إليها طير كثير.

توجّه الملك الظاهر إلى ناحية الشّام؟!!

وفي هذه السنة توجه السلطان إلى الشام في بعض أمرائه، وأراح بقية العساكر بالديار المصريّة، وسار إلى صفد، فلما وصلها بلغه أن طائفة من التتار على عزم قصد الرحبة^(١)، فرتب أمر عمارة صفد وسار إلى دمشق مسرعًا، فورد الخبر برجوع التتار عن قصد الرحبة، فأقام بدمشق خمسة أيام، ثم عاد إلى جهة صفد وحفر خندقًا حول قلعتها، وعمل فيه بنفسه وأمرائه وجيشه، وأمر بعمارة سور صفد وقلعتها وأن يكتب عليها: ﴿وقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾^(٢)، ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾^(٣).

السلطان يعمل بنفسه في حفر الخندق؟!!

وقال أبو شامة: وفي شهر رجب حفر السلطان الظاهر بيبرس خندقًا لقلعة صفد، وعمل فيه بنفسه وعسكره، وفي بعض تلك الأيام بلغه أن جماعة من الفرنج بعكا تخرج منها غدوة وتبقى ظاهرها إلى ضحوة، فسري ليلة بعض عسكره فكمن لهم في تلك الأودية، فلما أبعدوا عن عكا فخرج عليهم من ورائهم فقتل وأسّر، وضربت البشائر بدمشق بذلك.

(١) الرحبة: على شاطئ الفرات بين الرقة وبغداد.

(٢) سورة الانبياء، آية ١٠٥.

(٣) سورة المجادلة، آية ٢٢.

وقال بييرس: وفيها وصل إلى السلطان رسل الإفرنج وأجابوا إلى المناصفة في صيدا، وهدم الشقيف^(١)، وكان قد بلغه أنهم أغاروا على مَشْغَرَا، فأنكر عليهم وأقيموا بين يديه قبامًا مزعجًا، ثم ركب وشن الغارة على عكا، وعمل البزك^(٢) على أبوابها، وقطع الأشجار، وأحرق الثمار، وهدم طاحونًا لبيت الاسبتار يسمى طاحون كردانة.

وكان أهل صور قد فلوا شخصًا من مقدمي رجال الصبئية يسمى السابق شاهين، فقَرَّر عليهم دينه خمسة عشر ألف دينار صُورِيَّة وسألوا الصلح، فأجابهم، وكتبت هُدَّة لمدة عشر سنين لصور وبلادها وهي نسعة وسعون قرية، وقررت الهدنة مع بت الاسبتار على حصن الأكراد والمرقب^(٣).

الصلح مع ملكة بيروت!؟

واسقرت قاعدة الصلح مع صاحبة بيروت، فإن أخاها كان قد غدر بمركب الأنابك فيه جماعة من التجار كانوا منوجهين إلى قبرس، فطالبهم السلطان بمال التجار، فالنزموا به، والتزموا إطلاق النجار، وتقرَّر الصلح.

(١) الشقيف=شقيف أربون. بفتح أوله وكسر ثابيه، فلعة حصينة جدًا في كهف من الجبل قرب نانياس.

(٢) اليرك. طلائع الجيش.

(٣) المرقب: بالفتح ثم السكون: بلد وقلعة حصينة شرف على ساحل بحر التام وعلى مدينة نانياس.

وفاة بركة خان... ملك التتار... ببلاد الشمال!؟

بركة خان... بن صاين خان... بن دوشي خان... بن جنكزخان...

ملك التتار ببلاد الشمال...

وهو ابن عم هلاون خان...

وكان قد دخل في بلاد الإسلام... وكان بينه وبين السلطان الملك الظاهر صحبة ومودة...

وكان لا يقطع مكاتبته ولا مراسلته من الظاهر...

وقد وقع بينه وبين هلاون من الحروب ما ذكرناه...

وكان يحب العلماء والصالحين...

ومن أكبر حسناته كسره لهلاون... وتفريقه جنوده...

وكان أعظم ملوك التتار...

وكرسي مملكته مدينة صرّاي...

توفي في هذه السنة ولم يكن له ولد ذكر...

فاستقر عوضه... ابن أخيه... منكوتر... بن طوغان... بن

دوشي خان... بن جنكزخان...

وجلس على كرسي صرّاي^(١)...

وصارت إليه مملكة التتار... ببلاد الشمال... والتürk...

والقفجاق... وباب الحديد وما يليه...

ثم وقعت بينه وبين أبغا بن هلاون حروب كثيرة... فكسره أبغا

وغنم منه شيئاً كثيراً... وعاد أبغا إلى بلاده!!!

(١) صرّاي: مدينة شمال غرب بحر قزوين

السادسة والستين بعد الستائة...
سنة الفتوحات الكبرى...
والانتصارات العظمى...؟!

في السنة السادسة والستين بعد السّائة

استهلت هذه السنة والخليفة هو: الحاكم بأمر الله.
وسلطان البلاد المصريّة والشاميّة والحليّة: الملك الظاهر بيبرس.
وسلطان الروم: الملك ركن الدين قليج أرسلان.
وصاحب العراقين وغيرهما: أبغا بن هلاون.
وصاحب البلاد الشماليّة التي كرسيّها صرّاي: منكوتمر بن طوغان، وكتب
إليه الملك الظاهر بالتعزية لأجل بركة خان، والتهنئة لأجل ولايته عوضه،
وأغراه على قتال أبغا بن هلاون.

سفر السلطان الظاهر إلى الشام؟!!

وفي شهر جمادي الآخرة تجهز السلطان لأجل السفر إلى الشام، وخرج من
القاهرة في ثالث الشهر المذكور، ولما وصل إلى غزة أمر العساكر بمنازلة
الشقيف^(١)، فنازلوها بغتة وضايقوها، وناولوها القتال، ونزل السلطان

(١) الشقيف: معقل حصين بين دمشق والساحل بالقرب من بانياس.

فتح يافا؟!!

وفي جمادي الآخرة فتحت يافا، وذلك أن صاحبها جُوان دباين (٢) سَير متجرمة في زي صيادين إلى قطننا، واتفق هلاكه وقيامُ ولده مقامه، فلما وصل السلطان إلى العوجاء حضر إليه رسله وهم قسطلان (٣) يافا وأكابرها، فعوقهم، وسير الحجاب إلى العساكر يأمرهم بلبس العَدَد والركوب على أتم أهبة، وركب نصف الليل، فصبح يافا صباحًا، فلما عاينوا كثرة العساكر المنصورة، وشاهدوا تلك الجيوش بتلك الأهبة والصورة، شملهم الدهول، وطارت منهم العقول، فملك المسلمون المدينة، ولجأ أهلها إلى القلعة، وسألوا الأمان على أن يطلقوا بأموالهم وأولادهم، فأجابهم، وتسلم القلعة منهم، وطلعت عليها السناجق (٤) السلطانية في العشر الأوسط من جمادي الآخرة من هذه السنة، وأمر السلطان بهدم المدينة فهدمت، وكذلك هدمت القلعة، وقد كانت الفرنج قد اعتنوا بعمارتها وتحصينها فجعلوها بَلْقَعًا (٥) لئلا يكون لهم إليها عودة، وقد كان الريد أفرُنس (٦) لما أطلق من الأسر من ثغر دمياط حضر إليها وعمرها وأنفق عليها أموالاً.

(١) العوجاء: موضع بين أرسوف والرملة بفلسطين.

(٢) هو John II d'Ibelin.

(٣) القسطلان: معرب اللفظ اللاتيني Castellanus وهو حارس القصر.

(٤) سنجق = ساجق: لفظ تركي، يطلق في الأصل على الرمح، والمقصود الأعلام السلطانية.

(٥) البلقع: الأرض المقفرة.

(٦) المقصود لويس التاسع ملك فرنسا.

وذكر ابن عساكر في تاريخه: أن أول من بناها الملك طنكلي في سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة، ولما فرغ السلطان من هدمها رحل عنها إلى الشقيف منصوراً.

فَتَحَ شَقِيفَ أَرْنُونَ؟!!

في رجب من هذه السنة.

ولما أتى إليها السلطان نزل عليها، وقد كان جهّز لمضايقتها عسكرياً صحبة بجكا العزيزي، وله قلعتان، ولما ضويقوا عجزوا عن حماية القلعتين، فأحرقوا أحديهما، فتسلمها المسلمون في السادس والعشرين من رجب، وخرج الوزير كُليّام من القلعة الأخرى مستأمناً فأمنه السلطان، وفي آخر الشهر نسلمت وطلعت عليها السناجق السلطانية ونصبت، وأخرج أهلها وصيّروا إلى جهة صُور، وبعث السلطان الأتقال إلى الشام.

ثم رحل عنها وبتّ العساكر للإغارة على طرابلس وأعمالها، فقطعوا أشجارها وخربوا ما حولها من الكنائس، ونهبوا وسبوا، فلما سمع صاحب صافيتا وأنطرسوس بما حل بالفرنج من العكوس خاف أن يمسه ما مسهم من البؤس، فبادر إلى الخدمة، وتلقّى العساكر بالإقامة، وأحضر من كان عنده من أسرى المسلمين، وكانوا ثلاثمائة أسير.

ثم رحل السلطان إلى حمص، ومن حمص إلى حماة.

فتح أنطاكية؟!!

في شهر رمضان من هذه السنة. وهي مدينة عظيمة، يقال إن دَوْرَ سُورِهَا اثني عشر ميلاً، وعدد بروجها مائة وثلاثون برجاً، وعدد شرفاتها أربعة وعشرون ألف شرفة. ولما رحل السلطان من حصص إلى حماة فرَّق العساكر ثلاث فرق: فرقة صحبته، وفرقة صحبة الأمير سيف الدين قلاون الألفي، وفرقة صحبة الأمير عز الدين يوغان الركبي.

قال بيبرس: وكنت في هذه الغزاة المبرورة، فأما قلاون ومن معه فإنه سار من أفامية^(١)، فصاحبنا القصير^(٢) صباحاً وشننا أهله القتال غدواً ورواحاً، وارتحلنا إلى أنطاكية فنزلنا من غربها على سفح الجبل، وتواصلت العساكر إليها، ونزل السلطان عليها في اليوم الأول من شهر رمضان، وخرج منها جماعة فيهم كُند اصطبل عمّ صاحب سيس الذي ذكرناه أنه انهزم في نوبة سيس، فالتقوا مع الجاليش^(٣) المنصور، فاستظهر الجاليش عليهم، وأسر الكُند جنديّ من أجناد الأمير الأجل شمس الدين آسنقر^(٤) الفارقاني، يُسمّى المظفري، وأحضره إلى السلطان، فأعطاه عشرة طواشيّة، وأمره بحمل رُنك^(٥) كند اصطبل، فحمل رُنكة على سنجقه إلى أن مات، وسأل هذا الكند أن

(١) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام، وكورة من كور حصص.

(٢) القصير. بلفظ تصغير قصر: اسم لعدة مواضع: والمقصود هنا: ضيعة أول منزل لمن يريد حصص من دمشق.

(٣) الجاليش: راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر ولعل المفصود هنا مقدمه الجيش أو طلائعه

(٤) هو آق سنقر بن عبد الله النجمي الفارقاني، الأمير شمس الدين.

(٥) رنك=ربوك: لفظ فارسي معناه اللون، وقد استخدم في المصطلح بمعنى الشعار الذي يدل على الوظيفة.

يدخل أنطاكية ويتحدث مع أهلها ويحذرهم وينذرهم، وأحضر ولده رهينة على ذلك، فلم يُغْن شيئاً.

وكانت المعركة في رمضان!؟

وفي يوم السبت رابع رمضان المعظم قدره زحفت العساكر، وأطافت بالمدينة والقلعة، وقاتل أهلها قتالاً شديداً ذريعاً، وجاهدتهم المسلمون جهاداً عظيماً، ونسوروا الأسوار من جهة الجبل، ونزلوا المدينة بالبيض والأسل^(١)، وشرعوا في النهب والقتل والأسر حتى أثنوا فيهم غاية الإثخان، واجتمع نحو القلعة منهم نحو ثمانية آلاف منهم، وسألوا الأمان، فأجيبوا إليه. وأخذوا في الحبال، وقُتِل وأسيرَ جمع يتجاوز الإحصاء من النساء والرجال، وكان بها مائة ألف أو يزيدون، ووجدوا بها من الأسرى والحلبيين خلقاً كثيراً.

وصف بليغ للمعركة!؟

وكنبت كُتِب البشائر، ومن جملتها كتاب إلى صاحبها^(٢) نسخته: قد علم القومص^(٣) الجليل المبجل، المعزز الهمام، الأسد الضرغام بيمند، فخر الأمة المسيحية، رئيس الطائفة الصليبية، كبير الأمة العيسوية المنتقلة

(١) الأسل· الرمح، أي السيوف والرماح.

(٢) هو بوهمند السادس Bohemond VI أمير أنطاكية وطرابلس.

(٣) القومص في اللاتينية Comes، وفي العربية الدارجة « الكونت ».

مخاطبته بأخذ أنطاكية منه من البرنسبة إلى القومصية، ألهمه الله رشده، وقرن بالخير فصده، وجعل النصيحة محفوظة عنده، ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار، وما شاهده بعد رحيلنا من اخراب العمار وهدم الأعمار، وكيف كُنست تلك الكنائس من على بساط الأرض، ودارت الدوائر على كل دار، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر، وكيف قُتلت الرجال، واستخدمت الأولاد، وتُملكت الحرائر، وكيف قُطعت الأشجار، ولم يُترك إلا ما يصلح للأعواد والمجانيق والستائر، وكيف نُهب لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والحواشي، وكيف استغنى الفقير، وتأهل العازب، واستخدم الخديم، وركب الماشي، هذا وأنت تنظر نظر المغشي عليه من الموت، وإذا سمعت صوتاً قلت فزعاً: عَلَيَّ هذا الصوت، وكيف رحلنا عنك رحيل مَنْ يَعود، وأخرناك وما كان تأخيرك إلا لأجل معدود، وكيف فارقنا بلادك، وما بقيت ماشية إلا وهي لدينا ماشية، ولا جارية إلا وهي في ملكنا جارية، ولا سارية إلا وهي بين أيدي المعاول سارية، ولا زرع إلا وهو محصود، ولا موجود لك إلا وهو منك مفقود، ولا منعت تلك المغاير التي هي في رؤوس الجبال الشاهقة، ولا تلك الأودية التي هي في التخوم مُخرقة، وللعقول خارقة، وكيف سُقنا عنك ولم يسبقنا إلى مدينتك أنطاكية خبر، وكيف وصلنا إليها وأنت لا تُصدق أننا نَبعد عنك، وإن بُعدنا فسنعود على الأثر، وها نحن نعلمك بما تم، ونفهمك بالبلاء الذي عم: كان رحيلنا عنك عن طرابلس يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شعبان، ونزولنا أنطاكية في مستهل شهر رمضان، وفي حالة النزول خرجت عساكرك للمبارزة فكسروا، وتناصروا فما نُصروا، وأسير من بينهم كُنداصطبل، فسأل في مراجعة أصحابك، فدخل إلى المدينة، فخرج هو وجماعة من رهبانك، وأعيان أعوانك، فتحدثوا معنا، فرأيناهم على رأيك من إتلاف النفوس بالعرض الفاسد، وإن رأيتهم في الخير مختلف، وقولهم في الشر

واحد، فلما رأيناهم قد فات فيهم الفؤت، وأنهم قد قدّر الله عليهم الموت، رددناهم وقلنا: نحن الساعة لكم نحاصر، وهذا هو الأول في الإنذار والآخِر، فرجعوا متشبهين بفعلك، ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك، ففي بعض ساعة مرّ شأن المرء شأن، وداخل الرهب الرهبان، ولان للبلاء القسطلان^(١)، وجاءهم الموت من كل مكان، وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاماة عنها، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا، فما بقي أحد منا إلا وعنده شيء منهم ومنها، فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول، وديارك والنهابة فيها تصول، والكسابة^(٢) فيها تجول، وأموالك وهي تُوزن بالقنطار...

اربع نساء جميلات بدينار!؟

وداماتك^(٣) وكل أربع منهنّ تباع، فُتُشترى من مالك بدينار، ولو رأيت كنائسك: وصلبانها قد كُسرَت، وصحفها من الأناجيل المزورة قد نُشرت، وقبور البطارقة قد بُعِثرت، ولو رأيت عدوك المسلم داس مكان القداس والمذبح، وقد ذُبِح فيه الراهب والقسيس والشماس، والبطارقة قد دُهِموا بطارقة، وأبناء المملكة، وقد دخلوا في المملكة، ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخرق، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة نخرق، وقصورك وأحوالها قد حالت، وكنيسة بولص وكنيسة القسيان وقد تركت كل منها

(١) القسطلان - لفظ لاتيني يعني « حارس القصر ».

(٢) الكسابة: الذين كان همهم كسب الغنائم وجمعها.

(٣) « وإماءك » - ولعل المقصود بها النساء.

وزالست، لكُنت تقول: (يا ليني كنتُ تراسا) ويا ليني لم أوت بهذا الخبر كتابًا، ولكانت نفسك تذهبُ من حسرتك، ولكنت تطفئُ نلك النيران من ماء عبرتك، ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت من مغانيك، ومراكبك وقد أخذت في السويديّة بمراكبك، فصارت شوانيك من شوانيك، لتيقنت أن الإله الذي أنطاك^(١) أنطاكية منك استرجعها، والربُّ الذي أعطاك قلعتها منك قلعتها، ومن الأرض اقتلعها، ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ما كنت قد أخذته من حصون الإسلام، وهو دير كوش، وشقيف كفردوش، وجميع ما كان لك في بلاد أنطاكية، واستنزلنا أصحابك من الصيافي، وأخذناهم بالنواصي، وفرقناهم في الداني والقاصي، ٥٤٢ ولم يبق شيءٌ يُطلق عليه اسم العصبان إلا النهر، فلو استطاع لما تسمى بالعاصي، وقد أجرى دموعه ندمًا، وكان يذرفها عبرة صافية، فها هو أجزاها بما سفكناه فيه دمًا، وكتابنا هذا يتضمن بالبشرى لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر بكونك لم يكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة، وكونك ما كنت فيها فتكون إما قتيلاً وإما أسيراً، وإما جريحاً وإما كسيراً، وسلامة النفس هي التي تفرح الحيّ إذا شاهد الأموات، ولعل الله ما أخرك إلا لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات، ولما لم يسلم أحدٌ يُخبرك بما جرى خبرناك، ولما لم يقدر أحدٌ يُبشرك بالبشرى وسلامة نفسك وهلاك ما سواها باشرنك بهذه المفاوضة وبشركناك، ليتحقق الأمرُ على ما جرى، وبعد هذه المكاتبه لا ينبغي لك أن تكذب لنا خبراً، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل غيرنا مخبراً.

وأما كندا اصنطيل فإن السلطان أطلقه، وأطلق أهله وأقاربه، وفسح له في التوجه إلى سيس.

وهذه أنطاكية هي التي ذكرها الله في القرآن الكريم بقوله: ﴿واضرب لهم

(١) أنطاك: ووردت «أعطاك»

مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴿١﴾ وبانيها أنطياخس وإليه تنسب ، وكان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب قد فتحها كما ذكرنا من البرنس أرناط وقتله (٢) ، ثم ملكها الابرنس المعروف بالأسير ، ومن بعده ولده سدو ، وبعده ولده بيمند ، ومنه أخذت الآن واستقرت في الممالك الإسلامية إلى الدولة الناصرية .

ثم أن السلطان أمر بجمع المكاسب ، فجمع من الأموال والمصوغ ما لا يحصى كنزة ، وقسمت الغنائم على الأمراء والعساكر ، وتقاسموا السبايا والمواشي والنسوان والأطفال ، فلم يبق غلام إلا له غلام ، وبيع الصغبر يائني عشر درهماً فيما حولها بين العسكر والكسّانة ، وأمر السلطان بإحراق قلعة أنطاكية فأحرقت ، وأما ما خصّه من الغنائم فإنه أفرده وأرصده لعمارة الجامع الذي أمر بإنشائه بالحسينية ، فصرف عليه .

فتح بغراس!؟

لما فتحت الحصون المذكورة ، انهزمت الداوية من بغراس ، فتسلّمها السلطان على يدي الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقاني أستاذ الدار في ثالث عشر رمضان ، ولم يوجد بها سوى امرأة عجوز ، ووجدت عامرة بجواصلها ، وهذا الحصن نازل عليها الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين يوسف

(١) سورة يس ، آية ١٣ .

(٢) البرنس أرناط هو رينالد دي شانيون ، وكان قد حكم أنطاكية في الفترة من ١١٥٣-١١٦٠ م ، وهو صاحب حصن الكرك الذي قتله صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد موقعة حطين سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٧ م .
أما صاحب أنطاكية في ذلك الوقت فهو بوهيمند الثالث الذي عقد صلحاً مع صلاح الدين لمدة ثمانية أشهر .

ابن أيوب وحاصره بالعسكر المصريّ الحلبّيّ سبعة أشهر فلم يأخذه، وأخذه
السلطان الملك الظاهر بيبرس بغير تعبٍ ولا نصبٍ، وتسلم السلطان أيضاً
حصوناً كثيرة وقلاعاً أخرى، ثم عاد السلطان مؤيداً منصوراً!!!

دخول السلطان دمشق؟!!

ولما فرغ أمر السلطان من هذه الغزوة عاد منصوراً، فدخل دمشق في
السابع والعشرين من رمضان في أبهة عظيمة وهيئة هائلة، وقد زينت له البلد،
ودقت البشائر فرحاً به، ولما استقرّ ركابه في دمشق عزم على انتزاع أراضي
كثيرة من القرى والبساتين التي بأيدي ملاكها، يزعم أنه قد كانت التتار قد
استحوذوا عليها، ثم استنقذها منهم، وقد أفتاه بعض الفقهاء من الحنفيّة
بذلك بناء على أن الكفار إذا أخذوا شيئاً من أموال الناس المسلمين ملكوها،
فإذا استرجعت لم تُرد إلى أصحابها الذين أخذت منهم، وهذه المسألة مشهورة
وفيها خلاف، والمقصود أن السلطان الملك الظاهر عقد مجلساً اجتمع فيه
القضاة والفقهاء من سائر المذاهب وتكلموا في ذلك، وصمّم السلطان على
ذلك اعتماداً على ما بيده من الفتاوى، وخاف الناس من غائلة ذلك، فتوسط
الصاحب فخر الدين ابن الوزير بهاء الدين بن الحنّا، وكان قد درس
بالشافعيّ بعد تاج الدين ابن بنت الأعز فقال: يا خوند أهل البلد يُصالحون
بك عن ذلك كله بألف ألف درهم مقسطة كل سنة مائتا ألف درهم فضة،
فأبى إلا أن تكون معجلة، ثم بعد أيام وقد خرج متوجّهاً إلى الديار المصريّة
أجاب إلى تقسيطها، وجاءت البشارة فقرئت على الناس، وفرح الناس بذلك،
ورسم أن يعجلوا من ذلك أربعمئة ألف، وأن تعاد إليهم الغلات التي كانوا قد
احتاطوا عليها في زمن القسم والشار، وكان هذا مما شغب خواطر الناس على
السلطان.

وقوع الصلح بين السلطان وبين صاحب سيس؟!!

وفي شوال من هذه السنة وقع الصلح بين السلطان وهو في دمشق وبين هيثوم صاحب سيس، على أنه إذا أحضر هيثوم سنقر الأشقر من التتار، وكانوا قد أخذوه من قلعة حلب لما ملكها هلاون، ويُسَلِّمَ مع ذلك بَهَسَنِي ودَرْبَسَاك ومَرْزُبَانِ ورَعْبَانِ وشيخ الحديد يُطَلَّقَ له ابنه ليفون، فدخل صاحب سيس على ملك التتار أبغنا وطلب منه سنقر الأشقر فأعطاه إياه، ووصل سنقر الأشقر إلى خدمة السلطان، وتسلم السلطان المواضع المذكورة خلا بَهَسَنِي، وأطلق السلطان ابن صاحب سيس ليفون بن هيثوم ونوجه إلى والده.

وقال بيريوس في تاريخه: ولما تقرر الصلح بين الظاهر وبين صاحب سيس على ما ذكرنا أرسل السلطان بجكا الرومي لإحضار ليفون بن صاحب سيس من الديار المصرية؛ فتوجه من أنطاكية وأحضره، وعاد إلى دمشق في ثلاثة عشر يوماً، فأرسله السلطان إلى والده في ثالث عشر شوال منها، وكان صاحب سيس قد سير إلى السلطان أخاه فاساك في هذا الأمر، وسير ريمون صهر ولده رهينة إلى أن يسلم إليه القلاع المذكورة ويحضر بسنقر الأشقر إلى الخدمة الشريفة.

مجيء رُسُل صاحب عكا إلى السلطان؟!!

وهو في دمشق أيضاً، واسمه اوك بن هري^(١) ابن أخت صاحب قبرس،

(١) هو هيو بن هريوس بوهيمند الرابع صاحب أنطاكية.

وكان أهل عكا قد أحضروه وملكوه عليهم، فلما جاء السلطان من أنطاكية إلى دمشق جاءت رسله إلى أبواب السلطان يسألونه الصلح، فتقرّر الحال بينه وبين السلطان على عكا وبلادها وثلاثين ضيعةً، وتقرّر أن تكون حيفا للفرنج ولها ثلاث ضياع، وبقية بلادها مناصفة، وللقريين عشر قرى والباقي للسلطان، وبلاد الكرمل^(١) مناصفة، وعثليت تكون لها خمس قرى والباقي مناصفة، وبلاد صيدا الوطأة للفرنج والجبلية للسلطان، واتفق الصلح على مملكة قبرس وأن تكون الهدنة لعشر سنين، وسر السلطان إليه هدية عشرين نفرًا من أسارى أنطاكية.

عود السلطان من الشّام إلى الديار المصريّة؟!!

ولما فرغ أمر السلطان خرج من دمشق عائداً إلى الديار المصريّة، فدخلها يوم الحادي عشر من ذي الحجة من هذه السنة، وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً، وجاءت إليه هدية صاحب اليمن مشتملة على تحف شتى وكتاب إلى السلطان، وسأله الإنشاء والحضور إلى جنبه وأنه يخطب له ببلاد اليمن، فأرسل له السلطان خلعاً وسنجقاً وتقليداً.

(١) الكرمل: حصن بالجبل المشرف على حيفا بساحل الشّام.

بقية الحوادث!؟

ومنها: أن السلطان فتح جبلة^(١) وتسلمها من صاحبها افيرير ماهي صافاج.
ومنها: أن معين الدين البرواناه مدبر مملكة الروم اتفق مع التتار المقيمين معه ببلاد الروم على قتل السلطان ركن الدين قليج أرسلان السلجوقي، فخنق التتار ركن الدين بونر، وأقام البرواناه مقامه ولده غياث الدين كيخسرو بن ركن الدين المذكور، وله من العمر أربع سنين.
وقال ابن كثير: وله من العمر عشر سنين، وتمكن البرواناه جدا، وأطاعه جيش الروم.

★ ★ ★

اقول... هذا العام... السنة السادسة والستين بعد الستائة...
بلغ السلطان الظاهر بيبرس ذروة المجد من حيث الفتوحات العسكرية...
فها هو يفتح يافا في جمادي الآخرة... وها هي الأعلام السلطانية ترفرف عليها!!!

ثم ها هو يفتح شقيف أرثون في رجب من هذه السنة!!!
وها هي الأعلام السلطانية ترفرف عليها هي الأخرى!!!
إلا أن أعظم فتوحاته في تلك السنة... كانت فتح مدينة «أنطاكية»... في شهر رمضان من هذه السنة...
وهي مدينة عظيمة... شديدة التحصين...
إلا أنها استسلمت بعد قتال مرير لجيوش السلطان!!!

(١) جبلة: بالبحريك: اسم لعدة مواضع: والمقصود هنا: قلعة مشهورة ساحل الشام من أعمال حلب - قرب اللاذقية -

وقَتِلَ وأَسِيرَ جمع يتجاوز الإحصاء من النساء والرجال...
وكان بها مائة ألف أو يزيدون!!!
وها هو يواصل انتصاراته الرائعة...
وها هو يتسلم حصن بفراس من فرسان الداوية... وقد رُعبوا من
انتصارات بيبرس فسَلَّموا هذا الحصن المنيع اليه بعد اخلائه بدون
مقاومة!!!
وتسلم السلطان أيضاً حصوناً كثيرة وقلاعاً أخرى...
ثم عاد السلطان مؤيداً منصوراً...
فدخل دمشق في السابع والعشرين من رمضان في أبهة عظيمة وهيئة
هائلة... وقد زينت له البلد... ودقَّت البشائر فرحاً به!!!
إنه بيبرس البطل الفاتح!!!

الملك الظاهر المنتصر ...
يبعث رسائل النصر ...
الى الآفاق...!؟

رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى القاضي ابن خلكان يبشره
بفتح حصن الشقيف سنة ٦٦٦ هـ من إنشاء
كمال الدين بن العجمي!؟

صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي القضائي، لا زالت البشائر تحل به ربعا، وبصنع لديه في الابلاغ حسنا وتحسن صنعا، وتسر بالإفهام والإمام والإعلام له قلبا وبصرأ وسمعا، نعلمه بفتح أمست وجوه البشائر يبشره متهللة وأسماع المنابر لوعيه متبلة، وفروض الجهاد به مؤداة، ولكنها مشفوعة بالسيوف المسنونة والغزوات المنفلة. وهو فتح الشقيف الذي جاء بتناوب الإتحاف إلى القلوب، ويتناسب أنباؤه كالرمح أنبوب على أنبوب، ويتعاقب مسرانه إلى الإسلام كما تتعاقب الأنواء لنقع الثرى المكروب. وأقبل بعد فتح يافا كما يقبل البكر التي لا بد لها بعد سهولة الهواء من الامتناع عند الافتراع، وتهادي تهادي الغيث الذي لا بد له عند نزوله من الرعد المزعج والبرق اللماع. وكان نزولنا عليها في ناسع عشر شهر رجب المبارك سنة ست وستين وستائة، بعد أن سلكتنا إليها في أوعار تتعثر بها ذيول الرياح، وهبطنا في أودية لا يأنس فيها إلا بمجاوبة الصدى لقعاقع السلاح. وصعدنا في جبال لا يرى الأشباح منها إلا كالذر والذرى إلا كالأشباح. وهذه القلعة من وجه

هذه الشواهد بمكان الغرة، ومن كتابها بمنزلة الطرة، كأنها سمع تناجيه
النجوم بأسرارها، أو راحة بما بسطته من أصابع شرفاتها وتلك البواشير فيها
بمنزلة سوارها، يكاد الطرف ينقلب عنها خاسئاً وهو حسير، وكل ذي جناح
يفدو دون منالها يطير. وقد أحكم بناؤها فلا أيدي المعاول لأطراف أسوارها
بمجازة، وحصن فناؤها فلا غير الغنائم لها مجاورة ولا غير الرعود لها مجاورة.
وقد تحصن بها من الكفر كل مستقل، وتوطنها منهم كل جاهل يرجع في
التحصن بها إلى منعها وكيف لا وهو لها مستعقل، وقد انتخبهم الفرنج من
بينهم انتخاب المناضل بسريع سهامه والمفاضل ببديع كلامه، وحلوا منه ذروة
بعيدة المنال، وتوقلوا صهوة لا تتخطى إليها الآمال. وكنا كما قد علم المجلس
السامي أعزه الله، قد سيرنا إليها العساكر الشامية تمسك منها الخناق، وتأخذ
منها بمجامع الأطواق، فحفت بها كما حفت الخواتم بالخصائر، أو كما حفت
بالعيون الأهداب، ودارت حولها سوراً ما له غير الخوذ من شرفات وغير
نواهد الخيل من أبراج وغير حنايا السيوف من أبواب، وأحدقت بثغرها كما
تحقق الشفاه بالثغور، وأطافت بها قبل إطافتنا كما يطوف البند قبل المنطقة
بالخصور، وأقامت السمهرية ترمقهم بزرق عيونها والمشرقية تتناقص لاستنامتهم
بتغميض جفونها. وبقيت ألسنة الصناجق في أفواه غلفها صامته لسماع
الزحافات مصغية، وكواسر الآساد في آجامها من الرماح السمهرية مقعية،
وصارت السهام في كنائنها تقلق، وأخشاب المجانيق لتفرق اجزائها تفرق،
إلى أن بعثنا الله من فتحها إلى المقام المحمود، وانقضت مدة إرجائها في يد
الكفر، وما كان تأخيره إلا لأجل معدود، ونزلنا ربيعها بالعساكر التي سيوفها
مفاتيح الحصون ورماحها أرشية المنون. فما نزلنا من ظهر جوادنا إلا على ظهر
جبلها الذي حرته عن يمينها جنياً، ولا ألقينا عصي التسيار حتى حملنا أعواد
المجانيق على عاتقنا لنقدمها إلى الله تقريباً وإليهم تقريباً. وللوقت نفخ أمرنا في
صور الإيعاز بالمضايقة، ونشر العالم في صعيد وأخذ للمسابقة إلى صعودها

والمساوقة. وفي الوقت الحاضر اجتمعت أعضاء المجانيق المنفصلة، وتخطت في الهواء كفالها المنتعلة، واعتزلت كل فرقة من أوليائنا بمنجنيق يقيمه، وأعجب شيء أنها الظاهرية وأصحبت المعنزلة، وعن قريب أهوت إلى الأعداء محلقة صقور الصخور وتتابع حجارتها إليهم عندما حصلت من المجانيق في الصدور، فبعثت من أجسادهم المرسومة في القلعة ما في القبور، وكانت هذه القلعة المذكورة قد قسمها العدو قسمين، وخاصم الإسلام منها بخصمين، وجعلها قلعة دون قلعة، وصيرها ملكاً مقسوماً حتى لا تكون فيه شفعة، وجعل أحديها مهبط قبالة ومحط نزاله ومأوى رجاله؛ والأخرى مستودع نفسه وماله. فلما أحسوا بأسنا ورأوه شديداً، وشاهدوا حزمنا عنيداً وعزمنا مبيداً، واقنحموا الأسوار يتسورها الرجال، والمجانيق تحف بهم عن اليمين وعن الشمال، وضعفوا عن أن يحموا من تلك القلل جهتين، أو أن يقتسموا بهما فئتين، أو يجمعوا مع كفرهم، إلا ما قد سلف، بين الأختين، أو أن يغدو نجس شركهم إلا وهو فيما دون القلتين حرقوا ما بالقلعة من مضمون، وأضرموا بها نيراناً أعجب شيء كونها لم تطف بما أجروه من الجفون، وغالبتهم اليد الإسلامية قبل تركها، ودخلنها عليهم قبل الخروج عن ملكها. وذلك يوم الأربعاء السادس وعشرين شهر رجب المذكور، وكانت المجانيق ترمي عليها فصارت ترمى منها، وتصدر حجارتها إليها فصارت تصدر عنها. وتملكناها معقلاً شيده لنا العدو وبناه، وحصناً منيعاً دافع عنه حتى تعب فلما نعب أخلاه وخلاه، وأصبح بحمد الله شك فتوحها لنا يقيناً، وما كان من خنادقها وأسوارها يقي الكفار وغدا يقي عساكرنا ويقينا. وصارتا جارتين تتحاسدان على قربنا، وما زال يغري بين الجيرة الحسد، ورأساً وجسداً فرق بينها النصر ولابقاء للرأس بعد زوال الجسد. ولما أمكن الله من القلعة الواحدة، لم نر أن نبشر بالأولى حتى نبشر بالأخرى، ولا أن يقصر الإعلام على الإعلان بالبطشة الصغرى حتى نجتمع إليه الإعلام بالبطشة الكبرى، ولما

جاز القصر والجمع في الفروض المؤداة في هذه السفارة المباركة قصرنا وجمعنا في أداء هذه البشرى. وكتانا هذا وقد منَّ الله بهما علينا. وقال الإسلام: هذه بضاعتنا ردت إلينا، وذلك في ساعة يوم الأحد سلخ شهر رجب المبارك. وبحمد الله قد أصبحت تلك الضالة التي فقدتها الإسلام منشودة، وتلك العارية التي استولت عليها يد الكفر مردودة، فشكرًا لسيف رد الضالة وأردى الضلالة، ومضى لا يكل حتى استفتي في الكلالة، وأحاله فرض الجهاد على الكفر بحق ما استخلص بحول الله وقوته تلك الحوالة. فليأخذ المجلس السامي حظه من هذه البشرى بما جعله الله للمتقين من عقبى الدار، وبما قدره من انقياد الكافرين صاغرين في قبضة الإسار، وبما سهله من عتق من كان فيها من الحرم والأطفال والصغار، وليملاً بحسن هذا الخبر المسامع، وليعمر ذكره الجامع والجوامع، فطالما اشتاقت إليه أعواد المنابر، وانتظرت إيداعه في سرائر السير السنة الأقلام وأفواه المحابر، والله تعالى يوفق المجلس فيما يحاول ويجاور إن شاء الله تعالى.

★ ★ ★

رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى القاضي ابن خلكان بفتح

يافا سنة ٦٦٦ هـ من انشاء محي الدين عبد الله بن

عبد الظاهر!؟

هذه المكاتبة إلى المجلس السامي - أسمع الله من البشائر أجلها، ومن التهاني أشملها، ومن تحيات النصر أفضلها ومن سور الإتحاف بالظفر منزلها - تعلن ببشرى بفتح حسن استفتاحه وتساوي في الجلالة غرره وأوضاحه، وأتى

بسملة هذه الغزاة المباركة التي بها تنرك المهارق، ومفتاحًا لمغلق الحصون التي إن فتحها الله فلا مغلق، وإن سهلها فلا عائق. وذاك لأن بافا كانت قد كثر عدوان من فيها وحصل من إضرارهم ما لا يقدر أحد على ندارك تحيفاتها ولا تلافيتها، وصارت لعكا - يسر الله فتحها - طليعة مكر ومادة كفر، منها يمتارون من كل ممنوع وربما يأمنون من خوف وشبعون من جوع، ويتطلعون إلى دار الإسلام منها من وراء زجاجة، ويجعلونها لهم نأًا يتوصلون منه عند الاجاعة إلى ما في نفوسهم من حاجة. فلما بوجهنا هذه الوجهة المباركة وتعوضنا منها عن إنجاد الملوك بالملائكة، صرفنا إليها العنان يسيرًا، وعرجنا عليها تعريج مستروح ثم يسنانف سيرًا. وطرقناها بكرة يوم الأربعاء العشرين من جمادي الآخرة، فما مضى إلا بقدر ما جردت السيوف من الأغمد، أخذت المعاول في العويل على أهل الإلحاد، ونطقت ألسن الأعلام بالنصر المبين، وتلقي النصر رايننا باليمين، وطفنا بها طواف المناطق بالحضور والشفاه بالثغور. وإذا بأهلها يطلبون الأمان على النفوس خاصة وأنهم يبذلون لنا كل ما لهم من مال وغلل وسلاح وغير ذلك فأجبناهم إلى ذلك. وما فتحوا الأبواب إلا والرجال قد فتحت النقب ولاجيبوا الأطواق إلا والسيوف قد فتقت الجيوب. ولا خرجوا من قلعتها إلا والأبطال عليها قد علت، ولا طلغوا منها إلا والأولياء إليها قد دخلت، وما حصلوا خارجها إلا والمقاتلة بها قد حصلت. وتسلمناها وقلعناها فتحًا قريبًا، ونسلمناها مرتعًا مربعًا ومربعًا خصيبًا، وسطرناها في الساعة التي قام لسان العلم قبل لسان القلم على منبرها خطيبًا. فيأخذ حظه من بشرى جاءت طليعة لما بعدها من البشائر، وأقبلت مفهمة بأن لا بد بعدها من فتوحات نتبع الأوائل منها الأواخر. والله تعالى يوفقه في الموارد والمصادر، إن شاء الله تعالى.

★ ★ ★

رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى القاضي ابن خلكان مبشراً
بفتح أنطاكية سنة ٦٦٦ هـ من إنشاء
محي الدين بن عبد الظاهر؟!!

أدام الله سعادة المجلس السامي القضائي، ولا برح يؤثر البشائر حشايا
المنابر، ويجري من السرور الهاجم عيون المحابر، ويسجد لها قلم الناظم والناثر،
ويتلقاها ببشر إذا تأمل قادمه قال كم ترك الأول للآخر. هذه المكاتبه
نتحدث بنعمة الله التي تهلل لها وجه الإيمان؛ وهلل بها من أهله كل لسان،
وجاء بحمد الله حلوة المجتنى حافة بالنصر من هنا ومن هنا، وذلك بفتح
أنطاكية التي لم تتطرق إليها الحوادث والخطوب، ولا خرق حديث فتحها
الأسماع ولا هجس في القلوب، وادخرها الله لنا ليخصنا بفتحها الوجيز،
ويجعلها باباً لما يليها من بلاد الكفر نلج منه بمشيئة الله وما ذلك على الله
بعزيز. وهو آنا لما فرغنا من فتوحاتنا التي سبق بها الإسلام، وإشاراتنا التي
خصت وحصت طرابلس الشام، ثنينا العنان إلى هذه الجهة، فشهدنا منها ما
يروق النواظر، ورأينا مدينة يجتمع داخل سورها الأونس والوحش الطائر
للاستيطان والبادي والحاضر، تحف بها أسوار لا يقطعها الطائف في يوم سيراً،
ولا يدرك الناظر من أولها لها أخيراً، وبها رجال غدوا إليها من كل حدب
ينسلون ومن كل هضبة ينزلون، وفي ظلال كل مطهم يتقبلون. وكان نزولنا
عليها في يوم الأربعاء غرة شهر رمضان المعظم، فلم يكن إلا بقدر ما نزلنا
إلا ورسلمهم قد حضروا ليمسحوا أطراف الرضا ويتقاضوا من العفو أحسن ما
يقتضى. فما ألوى عليهم حلمنا ولا عرج، ولا نفس عنهم كربة ولا فرج.
فزحفنا إليها في يوم السبت بكرة وهو رابع الشهر، فلم يلبثوا إلا ساعة من
نهار وقد دخلت عليهم من أقطارها، وتسور العسكر المنصور من أسوارها،
وامتدت السنة الصوارم وأسنة الرماح، وشهرت البيض الصفاح، واريقت

الدماء واستحيت النساء ، وغنمت الأموال وجدلت الأنطال . ووجد العالم من التحف والنعم ما لا كان يمر في خلد ولا يخطر في بال . وكتابنا هذا واليد الإسلامية لها متسلمة وفيها متحكمة . فالمجلس يأخذ حظه من هذه البشرية ويرى فيها هذه الآية الكبرى . وما نريهم من آية إلا وهي أكبر من الأخرى . ويتلقاها ببشر فقد بعثنا بها الله في أحسن رونق من النصر ، وأقبلت بحمد الله كما بدأت أول مرة . فليشعها المجلس في كل باد وحاضر ، ولينشر خبرها على أكباد المناير . والله يكرمه يجعل سعادته من أتم الذخائر ، إن شاء الله تعالى . كتب رابع شهر رمضان المعظم سنة ست وستين وستائة .

★ ★ ★

نص الهدنة التي عقدها السلطان الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧ هـ مع ملكة بيروت!؟

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة فلانة ابنة فلان ، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحتية مدة عشر سنين متوالية أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين وستائة الموافق لتاسع أيار سنة ألف وخمسمائة وثمانين يونانية ، على بيروت وأعمالها المضافة إليها ، الجاري عادتهم في التصرف فيها في أيام الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وأيام ولده الملك المعظم عيسى وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز ، والقاعدة المستقرة في زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية ، بمقتضى الهدنة الظاهرية ، وذلك مدينة بيروت وأماكنها المضافة إليها : من حد جبيل إلى حد صيدا ، وهي المواضع الآتي ذكرها : جونية بحدودها ، والعذب بحدودها والعصفورية بحدودها ، والراوق بحدودها

وسن الفيل بحدودها، والرح والشوييف بحدودها، وأنطلياس بحدودها،
والجديدة بحدودها، وحسوس بحدودها، والبشرية بحدودها، والدكوانة وبرج
قراجار بحدودها، وقرينة بحدودها، والنصرانية بحدودها، وجلدا بحدودها
والناعمة بحدودها، ورأس الفيقة والوطاء المعروف بمدينة بيروت، وجميع ما في
هذه الأماكن من الرعايا والتجار، ومن سائر أصناف الناس أجمعين،
والصادرين منها والواردين إليها من جميع أجناس الناس والمرددين إلى بلاد
السلطان فلان وهي: الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل ما هو مختص بها،
والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلادها، وجبله واللاذقية وقلاعها وبلادها،
وحصن المحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، ومملكة حصن عكا وما
هو منسوب إليه، والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها،
والمملكة الرحبية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها، والمملكة البعلبكية
وما هو مختص بها: من قلاعها وبلادها، والمملكة الدمشقية وما هو مختص
بها: من قلاعها وبلادها ورعاياها وممالكها، والمملكة الشقيفية وما يختص بها:
من قلاعها وبلادها ورعاياها، والمملكة القدسية وما يختص بها والمملكة الحلبية
وما يختص بها، والمملكة الكركية والشوبكية وما يختص بها من القلاع والبلاد
والرعايا، والمملكة النابلسية والمملكة الصرخدية، ومملكة الديار المصرية جميعها:
بثغورها وحصونها وممالكها وبلادها وسواحلها وبرها وبحرها ورعاياها وما
يختص بها، والساكنين في جميع هذه الممالك المذكورة ما لم يذكر من ممالك
السلطان وبلاده، وما سيفتحه الله تعالى على يده ويد نوابه وغلمانه يكون
داخلاً في هذه الهدنة المباركة ومنتظماً في جملة شروطها، ويكون جميع
المترددتين من هذه البلاد وإليها آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم
وبضائعهم، من المملكة فلانة وغلمانها، وجميع من هو في حكمها وطاعتها: برّاً
وبحرّاً، ليلاً ونهاراً، ومن مراكبها وشوانيتها. وكذلك رعية الملكة فلانة،
وغلمانها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان ومن جميع

نوابه وعلمانه ومن هو تحت حكمه وطاعته: برًا وبحرًا، ليلاً ونهارًا: في جبلة واللاذقية وجميع بلاد السلطان ومن مراكبه وشوانيه.

وعلى أن لا يجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة، بل يجرون على العوائد المستمرة والقواعد المستقرة من الجهتين، وإن عُدِم لأحد من الجانبين مال أو أخذت أخيدة وصححت في الجهة الأخرى ردت إن كانت موجودة، أو قيمتها إن كانت مفقودة، وإن خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يومًا، فإن وجدت ردت، وإن لم توجد حلف وإلى تلك الولاية المدعى عليه، وحلّف ثلاثة نفر ممن يخنارهم المدعي، وبرئت جهته من تلك الدعوى، فإن أبي المدعي عليه عن اليمين حلف الوالي المدعي وأخذ ما يدعيه. وإن قتل أحد من الطرفين، خطأ كان أو عمدًا، كان على القاتل في جهته العوض عنه نظيره: فارس بفارس وبركييل ببركييل وراجل براجل وفلاح بفلاح. وإن هرب أحد من الجانبين إلى الجانب الآخر بمال رد من الجهتين هو والمال لا يعتذر بعذر، وعلى أنه إن تاجر فرنجي صدر من بيروت إلى بلاد السلطان يكون داخلًا في هذه الهدنة، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلًا في هذه الهدنة.

وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحدًا من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء. وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين.

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين: لا ينقضها مرور زمان ولا يغير شروطها حين ولا أوان، ولا تنقض بموت أحد من الجانبين. وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين أربعين يومًا، ولا يمنع أحد منهم

من العود إلى مستقره. وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الحظ الشريف حجة فيها. والله الموفق. في تاريخ كذا وكذا.

☆ ☆ ☆

رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى بوهمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس وذلك بعد فتحه أنطاكية سنة ٦٦٦ هـ.

قد علم القومص الجليل المبجل، المعزز الهمام، الأسد الضرغام، بيمند فخر الأمة المسيحية، رئيس الطائفة الصليبية، كبير الأمة العيسوية، المنتقلة مخاطبته بأخذ أنطاكية منه من البرنسية إلى القوموصية، ألهمه الله رشده، وقرن بالخبر قصده، وجعل النصيحة محفوظة عليه ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمار وهدم الأعمار، وكيف كنست تلك الكنائس من بساط الأرض، ودارت الدوائر على كل دار، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر، وكيف قتلت الرجال واستخدمت الأولاد وتملكت الحرائر، وكيف قطعت الأشجار ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق إن شاء الله والستائر. وكيف نُهِيت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والمواشي، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب واستخدم الخديم وركب الماشي. هذا وأنت تنظر نظر المغشي عليه من الموت، وإذا سمعت صوتاً قلت فرعاً: عليّ بهذا الصوت!!!

وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاماة عنها، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا، فما بقي منا الا وعنده شيء منهم ومنها!!!

الى آخر الرسالة الساخرة... وقد مرّت بالكامل في الفصل السابق!!!

☆ ☆ ☆

اقول... إن بيبرس كان جهاز الإعلام عنده جهازاً رائعاً!!!
ها هو يبعث الى ابن خلكان يبشره بانتصارات المسلمين... ليبيث
البشرى في أنحاء المملكة...
ثم ها هو يبعث الى ملك أنطاكية وطرابلس... يسخر منه ويبشره
بضياع أنطاكية منه الى الأبد... وعليه ان يحمّد الله أنه كان غائباً عنها
حين سقطت... وإلا لهلك مع الهالكين!!!
وفي حدود عصر بيبرس... يعتبر هذا فناً من الإعلام عظيماً
متقدماً غاية التقدم...
وهل الإعلام إلا رفع معنويات الشعب باذاعة الانتصارات عليه...
وإلا تحطيم روح الأعداء المعنوية بيث هزائمهم اليهم!!؟
وهذا ما فعله بيبرس... فازداد حبّ الشعب له... والشعوب دائماً
تتجمع حول البطل الفاتح!!!

ملك التّار...

يقول للسلطان بيبرس...

أنت مملوك...

فكيف يصلح لك أن تخالف...

ملوك الأرض...؟!

تتلاً عظمة بيبرس... أنه كان يعلم قدر نفسه...
فلا يابه بسفاهة السفهاء... وإنما يضربهم في صميم كيانهم...
ويصفهم الصفعة القاتلة... التي تجعل أحدهم يتلوّى فلا يستطيع
بعدها قياماً!!!

ذكروا:

أن السلطان الظاهر لما دخل دمشق... وصل إليه رسول أبغا...
ملك التتار...

ومعه مكاتبات ومشافهات...

فمن جملة المشافهات:

« أنت مملوك... أبيعّت بسيواس... »

« فكيف يصلح لك أن تخالف ملوك الأرض؟! »

- وفي رواية السلوك: « فكيف تشاقي الملوك ملوك الأرض؟! » -

« واعلم أنك لو صعدت إلى السماء... أو هبطت إلى الأرض... ما

تخلصت منه... »

فاعمل لنفسك على مصالحة السلطان أبغا»

فلم يلتفت الظاهر إلى هذا الكلام...

بل أجاب عنه بآثم جواب وقال:

« اعلموه أنني وراءه بالمطالبة... »

«ولا أزال حتى أنتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من
بلاد الخليفة... وسائر أقطار الأرض...!!!»
أقول... هذا جانب خطير غاية الخطورة من شخصية بيبرس...
إنه يشعر أنه قوي... وأنه صاحب حق...
وأنّ هذا الأبغا... ملك التتار... السفية المغرور... خير ما يعامل
به ليس ردّ السفاهة بالسفاهة...
وإنما بغزورهم وإذلالهم... وتقتيلهم... وإلقاء جيفهم القذرة في
حفرة النسيان...
وانتزع البلاد الإسلامية التي نهبها أبوه هولاءكو من قبل... وضمتها
إلى ديار الاسلام كما كانت!!!
إن بيبرس صاحب مذهب سياسي... وتخطيط عالمي عميق...
إنه يُخطّط لاسترجاع ما ضاع من بلاد الاسلام ونهبه التتار...
واسترجاع ما ضاع ونهبه الصليبيون!!!
يعني أنه يخطّط لمحاربة التتار في الشرق... والصليبيين في الغرب!!!
إنه صاحب سياسة عالمية...
فليس عنده وقت يضعه في الرد على مهاترات ذلك القبيح أبغا
ملك التتار... ابن هولاءكو!!!
وإنما الجواب هو السيف!!!

السلطان بيبرس...

يجوس خلال...

المملكة متنكراً...؟!؟

نحن في السنة السابعة والستين بعد الستائة ...

تجديد البيعة لولده الملك السعيد؟!!

استهلت هذه السنة والخليفة هو: الحاكم بأمر الله العباسي...
وسلطان البلاد المصرية والشامية والحلبية: الملك الظاهر ركن الدين بيبرس
البندقداري الصالحي...
وقد جدّد في صفر البيعة لولده... الملك السعيد بركة خان محمد...
وأحضر الأمراء كلهم... والقضاة والأعيان...
وأركبه ومشى بين يديه...
وكتب له ابن لقمان تقليداً هائلاً بالملك من بعد أبيه...
وأن يحكم أيضاً في حياته...
وبنى مصطبةً بميدان العيد... بباب النصر... لرمي النشاب^(١)...
وتوجه الى الجامع الظاهري الذي أنشأه بالحسينية... ورتّب أوقافه...
ونظر في أحواله...

(١) النشاب: سهام خشبية صغيرة...

سفراء دول العالم بباب السلطان!؟

وكان ببابه جماعة من الرُّسل من جهة الملوك...
فجهزهم... وسَفَّرَ صحبتهم رُسُلَه وهداياهم...
وهم رُسُل منكوتمر...
ورسل (الملك شارل) أخي (لويس التاسع ملك فرنسا)...
ورسل العرب...
ورسل الأشكري^(١) صاحب القسطنطينية...
اقول... ان ملوك العالم وأباطرته يخطبون وُدَّ السلطان!!!

أبغا... ملك التتار... يعرض الصلح على السلطان!؟

ومنها: أنه ركب في جمادي الأولى بعساكره... والأمراء الأكابر بالديار
المصرية...
وتوجه الى الشام... ونزل أرسوف لكثرة مراعيها...
ولما دخل دمشق اتفق مجيء رسل أبغا... ملك التتار... معهم
مكاتبات ومشافهات...
ومعهم التكفور^(٢) صاحب سيس... فإنه كان قد سعى في الصلح
بين السلطان وبين هلاون...
فسير أبغا هؤلاء الرسل...

(١) هو الامبراطور ميخائيل الثامن باليو لوجس.

(٢) هو هيثوم بن قسطنطين بن باسك...

تهديد ووعيد؟!!

وكان من جملة ما بعثه أبغا... رسالة تهديد وعرض بالصلح:
أنت مملوك بعت بسيواس فكيف يصلح لك أن تخالف مملوك
الأرض؟!...
واعلم أنك لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت
مني...
فاعمل لنفسك على مصالحة السلطان أبغا!!!

السلطان يهدد ملك التتار؟!!

وكان مما قال السلطان في رده:
« قد أعطانا الله ملك أربعين مَلِكًا...
« وأما ما ذكره من مطلع الشمس الى مغربها أطاعوه... فأى شيء جرى
على كتبغانوين؟!... وكيف كان دماره؟!...
وقال:

« اعلموه أني وراءه بالمطالبة... ولا أزال حتى أنتزع من يده جميع البلاد
التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض!!!
اقول... إن أبغا ملك التتار يخاف بيبرس... ويلجأ الى استعراض
القوة... ثم يعود ويعرض الصلح على السلطان!!!
ولكن هيهات هيهات... فإن بيبرس له بالمرصاد... حتى ينتزع من
يده جميع البلاد التي انتهبها هولاءكو!!!

هجمة تآديسية؟!!

ومنها: أن السلطان توجهَ إلى صور...
وذلك أنه لما خرج من دمشق بعساكره متوجهًا إلى الديار المصرية...
جاءته امرأة في أثناء الطريق عند خربة اللصوص...
فذكرت أن ابنها دخل إلى صور...
وأن صاحبها الفرنجي^(١) غدر به وقتله... وأخذ ماله!!!
فركب السلطان وشنَّ الغارة على مدينة صور...
وأخذ منها شيئًا كثيرًا... وقتل خلقًا...
فأرسل إليه مالكها: ما سبب هذا؟!...
فذكر له غدره ومكره بالتجار!!!
اقول... إن بيبرس هنا يلقن أمير صور درسًا... ويؤدبه تآديسيًا...
فليست المسألة أن الرجل غدر برجل مسلم... ولكن المسألة أن الاعتداء
على مسلم واحد هو اعتداء على جميع المسلمين!!!

توجه السلطان إلى مصر خفية؟!!

قال بيبرس في تاريخه: ولما فرغ السلطان من تجهيز الرسل وإعادتهم، ودَّع
الأمراء الذين كانوا صحبته وأعطاهم دستورًا ليتوجهوا إلى مصر، وخرج من
دمشق وليس معه منهم غير: الأتابك، والمحمّدي، والأيدمري، وابن أطلس
خان، وأقوش الرومي، وتوجه إلى القلاع فبدأ بالصبيبة، ومنها إلى الشقيف،

(١) هو Philip de Montfort .

وصفد، فبلغته وفاة الأمير عز الدين الحلبي بمصر، فوصل إلى خربة اللصوص والعسكر قد خيم بها، فخطر له التوجه إلى الديار المصرية، فكتب إلى النواب بالشام بمكاتبة الملك السعيد بما يتجدد من المهمات والاعتماد على ما يصدر عنه من الأجوبة والمكاتبات، ثم أظهر أنه قد تشوش جسمه، وصار البريد إذا جاء يُقرأ عليه وتخرج علائم على دُرُوج، فيكتب عنها الأجوبة، واستقر هذا الترتيب أياماً، وأُشيع ضِعْفُهُ، وأحضر الحكماء إلى الدهليز، وشاهدته الأمراء مُنجمًا متألِّمًا، وجُهِّز الأيدمريّ وجرّد بك على البريد إلى جهة حلب في ظاهر الأمر، وأوصاهما بما عليه في باطن السرّ، وخرج ليلة السبت سادس عشر شعبان من الدهليز متنكرًا، حاملاً بقجة قماش في زيّ أحد البابية^(١)، وركب وصحبته الأميران المذكوران، وواحد من الريديّة، وواحد من السلحداريّة، وأربعة جنائب، وساق إلى جهة مصر، وجنبيه على يده، ومرّ بمراكز البريد متنكرًا لا يعرفه أحد من الولاية، فوصل إلى القلعة ليلة الثلاثاء تاسع عشر الشهر^(٢)، فأوقفهم الحُرّاس حتى شاوروا الواليّ، ونزلوا في باب الإصطبل، وكان قد رتب مع زمام الأدرّ، أن يبيت خلف باب السرّ، فدقّ الباب وذكر لزمام الدّور علائم كان يعرفها، ففتح له، وأحضر رفقته إلى باب السرّ، وأقام يوم الثلاثاء والأربعاء وليلة الخميس لا يعلم أحد، وهو يشاهد الأمراء في الموكب من شباك على سوق الخيل، فلما كانت بكرة الخميس قدم الفرس ليركب الملك السعيد على عادته، وقدم للسلطان فرس فركب على غفلة، والوقت مغلس^(٣)، فأنكر الأمراء الذين في الموكب الحال،

(١) البابية: جمع نانا: لقب عام لجميع رجال الطست خاناه، ممن يتعاطى الغسل والصقل وغير ذلك، وأطلق عليهم هذا اللقب لأنهم يقومون بترفيه مخدمهم من تنظيف ملابسه وتحسين هيئته فهم أشبه بالأب الشفيق.

(٢) أي قلعة الجبل بالقاهرة.

(٣) ظلّمة آخر الليل.

فلما تحقّقوا السلطان قبلوا الأرض بين يديه، وعاد من الموكب إلى القلعة، فأقام بها إلى يوم السبت، ولعب الأكرة بالميدان وعاد إلى القلعة، ولما كانت ليلة الاثنين الخامس والعشرين من شعبان سافر عائداً إلى البريد، ولما وصل إلى الدهليز أخذ على يده جراب البريد وفي كتفه فوطه، وتوجّه راجلاً ودخل من جهة الحرّاس، فهانعه حارس، فأمسك طوقه، فأنجذب منه، وعبر من باب سر الدهليز، وركب عصر يوم الجمعة السابع والعشرين من شعبان، وحضر الأمراء الخدّمة يهنئون بالعافية، وضربت البشائر لذلك، واهتم بالدهليز للحجاز الشريف، وهذا الذي صدر منه جراءة عظيمة وإقدام هائل.

السلطان يحج متنكراً؟!!

ومنها: توجه السلطان إلى الحجاز الشريف في هذه السنة، ولما عزم على ذلك وهو في المخيم أنفق في العسكر، وعين منهم جماعة يتوجهون صحبته، وجهاز بقية العسكر صحبة الأمير شمس الدين آقسنقر استادارا إلى دمشق، فأقاموا بها.

وتوجّه السلطان إلى الكرك بصورة صيد، ولم يجسر احد يتفوّه بأنه متوجه إلى الحجاز حتى أن شخصاً من الحجاب يسمى جمال الدين بن الداية قال: أشتهي أتوجه صحبة السلطان إلى الحجاز، فأمر بقطع لسانه، ورحل من الغوّار يوم الخامس والعشرين من شوال، فوصل الكرك مستهلاًّ. ذي القعدة، وتوجّه في سادسه إلى الشوبك، ورحل منها في حادي عشرة، فوصل المدينة النبويّة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام في الخامس والعشرين من ذي القعدة، وأحرم، وقدم مكة شرفها الله تعالى في خامس ذي الحجة، وبقي

كأحد الناس لا يججبه أحد، وغسل الكعبة بيده^(١)، وحل الماء في القرب على كتفه، وغسل البيت، وجلس على باب الكعبة الشريفة، فأخذ بأبدي الناس، وسبّل البيت الشريف للناس، وكتب إلى صاحب اليمن كتابًا يقول فيه: سطرته من مكة، وقد أخذت طريقها في سبع عشرة خطوة، يعني بالخطوة المنزلة، وقضى حجه، وحلق ونحر، ورتب شمس الدين مروان نائبًا بمكة، وأحسن إلى أميرها، وإلى صاحب ينبع، وخليص وزعماء الحجاز، وعاد، فكان خروجه من مكة ثالث عشر ذي الحجة، ووصله إلى المدينة في العشرين منه، ووصل إلى الكرك سلخ ذي الحجة، ولم يعلم به أحد إلى أن وصل إلى قبر جعفر الطيار^(٢)، رضي الله عنه، ودخل الكرك لاسًا عاءة، راكبًا هجينًا، فبات بها ليلة، وأصبح منوجّهًا إلى الشام جريدة.

ويجوس خلال الشام متنكرًا؟!!

وقال بيبرس: في مستهل المحرم من سنة ثمان وستين وستائة عاد السلطان من الكرك، وتوجه إلى دمشق جريدة، وحضر إلى الميدان بغتة، وتوجه من نهاره إلى حلب فدخلها والأمراء في الموكب، فما عرفه أحد، وبقي بينهم ساعة حتى عرفوه، ونزل بدار نائب السلطنة، وشاهد القلعة، وعاد إلى دمشق، فوصلها في ثالث عشر المحرم من سنة ثمان وستين، وتوجه إلى القدس الشريف والخليل فزارهما، وكان العسكر قد سبقه صحبة الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقاني إلى تلّ العجول، فوصل إلى المنزلة المذكورة، فصلّى الجمعة في الكرك، والجمعة الثانية في حلب، والجمعة الثالثة في دمشق، ورحل من تلّ

(١) «فغسل الكعبة بيده ماء الورد» في الجوهر الثمين.

(٢) «قبر جعفر الطيار ممؤته».

العجول فدخل قلعة القاهرة في ثالث صفر من سنة ثمان وستين، وفي ثامن عشر توجه إلى الإسكندرية، وفي طريقه دخل البرية متصيداً، وضرب حلقاً على الكحيليات فصار في كل حلقة منها ما يقارب خمائة غزال وأقل وأكثر، ومن النعام وبقر الوحش كثير، فكان كل من أحضر غزالاً أعطي بغلطاقاً^(١)، ومن ضرب نعماً أو بقراً أعطي فرساً، ففرق من الخيل والخلع شيئاً كثيراً، ووصل إلى مكان يعرف بقصر فارس، وعاد إلى الإسكندرية، فأقام أياماً، وفرق تعابي القماش على الأمراء، ووصلهم بالهبات، وعمهم بالصلوات.

السلطان يتنقل في كل مكان!؟

وقال ابن كثير: لما وصل السلطان إلى مكة تصدق على المجاورين بها، ثم وقف بعرفة، وطاف للإفاضة، وفتحت له الكعبة فغسلها بماء الورد وطيبها بيده، ثم وقف بباب الكعبة يتناول أيدي الناس ليدخلوا الكعبة وهو بينهم كأحدهم، ثم رجع فرمى الجمرات، ثم تعجل النفر فعاد على المدينة النبوية فزار القبر الشريف مرة ثانية.

ثم ساق إلى الكرك فدخلها في التاسع والعشرين من ذي الحجة وأرسل المبشر إلى دمشق بقدمه سالماً، فخرج الأمير جمال الدين أقوش النجيبى ليلتقى البشير في ثاني المحرم؛ فإذا بالسلطان الملك الظاهر بنفسه يسير في الميدان، فتعجب الناس من سرعة مسيره وصبره وجلده، ثم ساق حتى دخل حلب ليتفقد أحوالها، ثم عاد إلى حماة، ثم رجع إلى دمشق، ثم عاد إلى مصر

(١) الغلطاق: قباء بلا أكمام، أو بأكمام قصيرة جداً.

فدخلها يوم الثلاثاء ثالث صفر في سنة ثمان وستين وستمائة .

وقال في ذلك القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر أبياتاً منها :

حتى أتاهما ظاهرٌ ملكٌ إذا شاء اختفى فأموره تتلبس
بيننا تراه في الحجاز إذا به في الشام للحج الشريف يُقدّسُ
ونراه في حلب يُدبّرُ أمرها وتراه في مصر يذب ويحرسُ
ويلوح في حج عليه عباءة ويلوح في عزّ وعليه أطلسُ
لا يزال للدنيا يسوس أمورها ويشيد الأخرى بها ويؤسسُ

☆ ☆ ☆

ماذا نستنبط من أفاعيل بيبرس في عام ٦٦٧ هجرية؟!

نستنبط أن بيبرس كان يبحث عن الأعمال التي تقربه الى الله ...

فهو يلجأ الى التنكر حتى لا يعرفه أحد ...

ثم هو يذهب الى مصر متنكراً!!!

ثم يحج متنكراً!!!

ثم يتفقد الشام متنكراً!!!

فما معنى هذا؟!!!

معناه ببساطة شديدة... أنه قد سئم زخارف الملك وأبهة

السلطان ...

وأنه يريد أن يعيش فترة من حياته بنعم فيها بنعيم التجرد من

الزينة ... ومواكب المنافقين!!!

فكان منه هذا التصرف العجيب... حيث عاش شهوراً... متنقلاً

في انحاء مملكته... متنكراً!!!

تواضعاً لله الذي آتاه ملكاً كبيراً... وقد كان مملوكاً حقيراً!!!

« وفتحت له الكعبة ... ففسلها بماء الورد ... وطيبها بيده!!!
« ثم وقف بباب الكعبة ... يتناول أيدي الناس ... ليدخلوا
الكعبة ...

« وهو بينهم كأحدهم»!!!

ثم ماذا؟!!

ثم مظهر العزّة المتلألئة من بيبرس وهو يردّ على وقاحة ملك
التتار... أبغا!!!

يقول له ملك التتار: أنت مملوك... فكيف يصلح لك أن تخالف
ملوك الأرض؟!!

إنّ هذا الملك يُذكر بيبرس بأصله... ليحطم من كبريائه وعزّته!!!
ولكن بيبرس... الأسد الضاري... لا يزعجه عواء الثعالب وإن
ارتفع عواؤها...

فيقول في تعزّز وثقة:

« لا أزال حتى أنتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد
الخليفة وسائر أقطار الأرض»!!!

اي اعلم أيها الأبغا... أني سوف أطاردك أينما كنت... وأصنّفني
مملكته عن آخرها... لتعود صعلوكاً... حيث لا ينبغي لك أن
تكون ملكاً!!!

أحداث ...

السنة الثامنة والستين ...

بعد الستائة ...؟!

استهلت هذه السنة، والخليفة هو: الحاكم بأمر الله العباسي، وهو متوطن بالقاهرة.

وسلطان البلاد المصرية والشامية: الملك الظاهر بيبرس الصالحي، وكان قد وصل إلى دمشق من الحجاز الشريف في ثاني محرم هذه السنة على الهجن، ثم راح إلى حلب فدخلها في سادس الشهر، ثم عاد إلى دمشق، ثم سار إلى مصر فدخلها في ثالث صفر من هذه السنة.

خروج السلطان الملك الظاهر إلى جهة الشام!؟

ولما دخل السلطان الديار المصرية في ثالث صفر من هذه السنة، بعد عوده من الشام، جاءتته الأخبار بجركة التتار، وأنهم تواعدوا مع الفرنج الساحلية، وأغاروا على الساجور قريباً من حلب، واستاقوا مواشي العربان، فجهز للخروج أيضاً ولكنه أراح العسكر مديدة، ثم خرج جريدة في ليلة الاثنين الحادي والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة، ووصل إلى غزة ثم منها إلى دمشق، فانهزم التتار، وكان مقدمهم صمغار.

وقال ابن كثير: وفي تاسع عشر شهر ربيع الآخر منها وصل السلطان

الملك الظاهر بيبرس إلى دمشق في طائفة من جيشه، وقد لقوا في الطريق مشقة كبيرة من البرد والوحل، وبلغه أن ابن أخت زينون خرج من عكا يتصد جيش المسلمين، فركب إليه مسرعاً، فوجده قريباً من عكا، فأسره وأسر جماعة من أصحابه، وقتل آخرين.

وقال بيبرس: وفيها أغار السلطان على مرج يعقوب وما حول عكا، وأسر من محتشمي الفرنج جماعة، وقتل نائب فرنسيس بعكا، ولم يعدم من عسكر الإسلام إلا الأمير فخر الدين الطوّينَا الفائزي، وعاد السلطان ورءوس القتلى قدماه تحملها أساراهم على الرماح إلى صغد، وتوجه إلى دمشق، ثم إلى حاة، ثم إلى كفرطاب، وتوجه إلى حصن الأكراد في مائتي فارس، فخرج إليه جماعة من الفرنج ملبسين، فحمل عليهم السلطان، فكسرهم، وقتل منهم جماعة.

استيلاؤه على حصون الإسماعيلية؟!!

وكان السلطان - رحمه الله - قد أبطل رسوم الإسماعيلية التي كانت نُجّبي إليهم، واستأدى الحقوق من مراكبهم، وكسر شوكتهم ومضايقتهم، وحضر إليه صارم الدين مبارك بن الرضي صاحب العليقة، وقلده السلطان بلاد الدعوة، وعزل نجم الدين الشعرائي الملقب بالصاحب وولده منها لأنه لم يحضر إلى الخدمة، ونعت صارم الدين بالصاحب، وأرسل معه عسكرياً إلى مصياف، فتسلمها في العشر الأوسط من رجب من هذه السنة، وهي كرسي مملكتهم، وهي مقرّ الفداوية، فعند ذلك حضر الصاحب نجم الدين إلى الأبواب السلطانية، وهو شيخ كبير جداً، فرحه السلطان ورّق له، وولاه النيابة شريكاً لابن الرضي، فإنه صهره، وقرر عليه حل مائة وعشرين ألف درهم

في كل سنة، وعاد السلطان من جهة حصن الأكراد، فدخل دمشق في الثامن والعشرين من رجب.

عَوْدُ السُلْطَانِ إِلَى الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ؟!!

ولما دخل السلطان دمشق في التاريخ المذكور بلغه أن الفرنج أخذت من ميناء الإسكندرية مَرَكِبِينَ، فخرج سريعًا من دمشق إلى الديار المصرية، وعبر في طريقه على عسقلان، وعَفَى آثَارَهَا، ورمى حجارتها في مينائها، ثم وصل إلى مصر ودخل قلعتها، ثم استفاضت الأخبار بقصد الفرنج بلاد الشام، وجَهَّزَ السلطان العساكر المنصورة لقتالهم، وهو مع ذلك مهتمٌّ بمدينة الإسكندرية، وقد حصَّنها، وعمل جسورًا إليها إن دهمها العدو.

بِيبِرْسِ يَسْتَعِدُّ لِلْقِتَالِ؟!!

وقال بيبرس في تاريخه: بلغ السلطان أن الفرنسيين، «هو»^(١) لُوَيْسُ بن لُوَيْسٍ، والآنكتار، وملك اسكوتسنا، وملك نُورِك وهي بلاد السناقر، والبرشونوي واسمه ريدراكون^(٢)، وغيرهم من ملوك الفرنج، اجتمعوا على صقلية، وشرعوا في تجهيز المراكب، ولم يُعلم مقصدهم، فاهتمَّ السلطان بالثغور والشواني، وحفظ السواحل والمواني، وعمَّرَ الجسور إلى دمياط، وأنشأ القناطر،

(١) والمقصود لويس التاسع ملك فرنسا وحملته على تونس.

(٢) المقصود جرجس الأول ملك أراجون Roi d'Aragon.

وكان قصد الفرنج بلد تُونُس، فساروا إليها ونزلوا على المعلقة، فاجتمع
الموحدون والعُربان وغيرهم من المسلمين... فقاتلهم الفرنج وضايقوهم...
فأراد الله هلاك الملك الفرنسي... فلما مات رحلوا طالبين بلادهم!!!

☆ ☆ ☆

اقول... نلتقط من أحداث هذه السنة... ظاهرة سرعة مواجهة
الأحداث... عند السلطان بيبرس!!!
لما دخل السلطان الديار المصرية... جاءت الأخبار بحركة التتار...
وأنتهم تواعدوا مع الفرنج الساحلية... وأغاروا على الساجور قريباً من
حلب!!!

إن الجبهة الشرقية... التتار...
تواعدوا مع الجبهة الغربية... الفرنج الساحلية... بساحل الشام...
انهم يريدون ان يفتوا بيبرس فجأة وهو عنهم بعيد في مصر...
وأغاروا على الساجور قريباً من حلب... هناك في اقصى الشمال!!!
فماذا كان من الأسد الضاري؟!
فجهز للخروج!!!

فورا أمر بتحرك الجيش وهو على رأسه...
إنه لم يسترح بعد من وعناء السفر... ولكن بيبرس اذا غضب
زأر... وإذا زأر تحرك وحرك معه الجميع!!!
هذه الصفة... صفة سرعة مواجهة الأحداث... تعتبر من ألزم
لوازم القائد...

لأنّ الأحداث العالمية سريعة التغير... فإذا لم يكن رجل الدولة
مستعداً في أي وقت لمواجهة والتصدي لها... أطاحت به وابتلعتة في
دواماتها!!!

وقد كان بيبرس رجل دولة من الطراز الأرفع...
يعيش حياته... إِمَّا مُغيّراً بغيته على عدوه...
وإِمَّا مسارعاً الى أعدائه ليفسد عليهم تدبيرهم قبل أن يفيقوا من
هول المفاجأة!!!

وكانت هذه الصفة من بيبرس تشير غيظ أعدائه اثاره عنيفة...
وإليك هذه الرسالة التي تكشف مدى غيظ الملوك من مفاجآت
بيبرس:

رسالة آباقا خان للظاهر بيبرس!؟

غزا بيبرس بلاد الروم... وانتصر انتصاراً عظيماً على المغول...
وقتل فرسانهم وقوادهم...
فغضب من ذلك كل الغضب آباقا خان... الذي أصبح ملكاً على
المغول بعد وفاة هولوكو وبركة...
وأرسل إلى بيبرس يقول:
« إنكم تنقضون فجأة كاللصوص!!!
« وتطاردون فرساننا وطلائعنا وتقتلون بعضهم...
« فإذا ما بلغتنا الأخبار... ونحركنا لصدكم تفرون كاللصوص!!!
« فإذا كنتم تريدون لقاءنا وقتالنا... فادخلوا الميدان كالرجال...
وثبتوا الأقدام:

تعال لكن ترى سناني وتنظر إلى التواء عناني
فإن كنت جبلاً فستنهار من أساسك
وإن كنت حجراً فلن تستقر في مكانك

فأين شاهدت المقاتلين... يا من لم يسمع عواء الثعالب؟!
« وإن لم تأت فإن جيوشنا مستعدة لقتالك في طبيعة الشتاء...
« وإذا امتدت نار غضبنا إلى بلاد الشام فإنها بلا ريب سوف تأتي
على كل ما لكم من أخضر ويابس!!!

« لأن الله الأزلي قد وهب جنكيزخان وذريته بلاد العالم!!!
« وأدخل السراة المتمردين في ربة طاعتنا!!!
« وكل من يخالف أهل الاقبال تكون مخالفته دليلاً على الإدبار»!!!
هذه هي رسالة ملك التتار... وقد جعل يتلوى من الفيظ من مباغثة
بيبرس لجيوشه... يقتل ويأسر ولا يستطيعون له منعا!!!
وقد بلغ من غباء هذا الملك أنه يريد من بيبرس أن يُعلمه مقدماً
بخطته!!!

ولكن بيبرس هو بيبرس...
ينقض كالأسد الضاري دون سابق انذار!!!
ثم ماذا؟!
ثم تتلأأ هذه الصفة... صفة سرعة مواجهة الأحداث... وسرعة
مفاجأة العدو بغتة قبل أن يفيق... اذا تأملت أفاعيل البطل... حين
وصل الى غزة ومنها الى دمشق... فانهزم التتار رُعباً!!!
بلغ السلطان وهو في طريقه الى دمشق أن قائد الفرنج خرج من
عكا يتقصد جيش المسلمين...

فماذا كان من بيبرس بمجرد سماعه أن هذا الكونت قد تحرك؟!
« فركب إليه سريعاً!!!
« فوجده قريباً من عكا!!!
« فأسرته... وأسر جماعة من أصحابه!!!
« وقتل آخرين»!!!

هذا مثال عن هذه الصفة من بيبرس...
فوراً ركبَ إليه سريعاً... وفوراً وجدّه... وفوراً أسره وأسر
أصحابه... وفوراً قتل آخرين!!!
وهكذا ينبغي أن يكون رجل الدولة!!!
ولن يصلح أبداً أن يكون رجل الدولة... رجلاً بليداً... بطيء
الانفعال... تدهمه الأحداث وهو يتشاءب في غباء!!!
ثم ماذا عن بيبرس... وسرعة الحركة؟!
«أغار السلطان علي مرج يعقوب وما حول عكا... وأسر من
محتشمي الفرنج جماعة... وقتل نائب فرنسيس بعكا!!!
» وعاد السلطان... ورءوس القتلى قدامه!!!
» تحملها أساراهم على الرماح إلى صفد!!!
» وتوجه إلى دمشق!!!
» ثم إلى حاة!!!
» ثم إلى كفرطاب!!!
» وتوجه إلى حصن الأكراد في مائتي فارس... فخرج إليه جماعة
من الفرنج ملبسين...
» فحمل عليهم السلطان... فكسرهم... وقتل منهم جماعة»!!!
هكذا بيبرس... لا تستطيع أن تلاحقه في سرعة تحركه... ليسبق
الأحداث... ويرعب أعداءه... ويفزعهم ويزلزلهم زلزالاً شديداً!!!

السلطان الفاتح ...

يوصل فتوحاته ...

في السنة التاسعة ...

والستين بعد المائة ...؟!!

استهلت هذه السنة، والخليفة هو: الحاكم بأمر الله العباسي. وسلطان الديار المصرية والشامية: الملك الظاهر بيبرس الصالح النجمي، ففي مسنهل صفر منها ركب وتوجّه إلى الشام، ومعه طائفة من العسكر، وجاز على عسقلان، وهدم ما بقي من سورها، مما كان أهمل، ووجد فيما هدم كوزين فيها ألف دينار، ففرقها على الأمراء. وجاءت البشارة هناك بأن منكوتر كسر جيش أبغا، وفرح بذلك، ثم عاد إلى القاهرة مؤيدًا منصورًا.

سفرة الظاهر ثاني مرّة؟!!

وفيها: توجه السلطان الظاهر إلى الشام، واستصحب معه ولده الملك السعيد، والوزير بهاء الدين بن حنّا، وجمهور الجيش، ودخل دمشق يوم الخميس ثامن رجب في أبهة عظيمة، وابنه الملك السعيد قدّامه، وكان يومًا مشهودًا، وفي طريقه شنّ الإغارة على طرابلس، واتصلت غارته بصافيتا، وجرّد فرقة من العسكر صحبة الأمير سيف الدين قلاون الألفي، والأمير فخر الدين بيليك الخزندار الظاهريّ، وسيرّ صحبتها الملك السعيد ولده، فأغاروا على ناحية المرقب، فعند عود السلطان من الغارة على طرابلس عاد

الملك السعيد ومن معه من الفارة على جهة المرقب، وتوافوا ونزلوا على حصن الأكراد في تاسع شهر شعبان من هذه السنة.

فتح حصن الأكراد!؟

ونزل السلطان عليّ في تاسع الشهر المذكور، وجدّ في حصاره. وقتاله، فلما كان العشرون منه أخذت أرباضه، وزحفت العساكر، فطلبوا القلعة وتسلموها، وطلع الفرنج إلى القلعة، ثم طلبوا الأمان، فأجابهم إليه، فخرجوا وجّهزوا إلى بلادهم في الرابع والعشرين منه، وتسلم السلطان الحصن، وكتب إلى مقدّم الإسبنار صاحب الحصن كتاباً نسخته:

هذه المكاتبه إلى أفريرأوك^(١)، جعله الله ممن لا يعترض على القدر، ولا يُعاند من سُخر لجيشه النصر والظفر، ولا يعتقد أنه يُنجي من أمر الله الحذر، ولا يحمي منه محجور البناء، ولا مبني الحجر، تُعلمه بما سهّل الله من فتح حصن الأكراد الذي حصنته وبنيتة وخليّته، وكنت الموفق لو أخليته، واتكلت في حفظه على إخوتك فما نفعوك، وضيعتهم بالإقامة فيه فضيّعوه، وضيعوك، وما كانت هذه العساكر تنزل على حصن ويبقى، أو تخدم سعيداً ويشقى.

وقال ابن كثير: وكان الذي حاصره ابن السلطان الملك السعيد، فأطلق السلطان أهله ومنّ عليهم، وأجلاهم إلى طرابلس، وتسلم القلعة بعد عشرة أيام من الفتح فأخلاها أيضاً، وجعل كنيسة البلد جامعاً، وأقام فيه الجمعة، وولى فيها نائباً وقاضياً، وأمر بعمارة البلد.

(١) وهو Hugh Revcl .

أمير فرسان الداوية يستسلم؟!!

وبعث إليه صاحب أنطرسوس واسمه كندور، ومقدم^(١) بيت الإِسْتار وسألا الصلح، فأجابهم السلطان إلى الصلح على أنطرسوس والمرقب خاصةً خارجًا عن صافيتا وبلادها، واسترجع منهم بلدة وأعمالها، وما أخذوه في الأيام الناصريّة، وعلى أن جميع ما لهم من الحقوق والمناصفات على بلاد الإسلام يتركونه، وعلى أن نكون بلاد المرقب ووجوه أمواله مناصفة بين السلطان وبين الإِسْتار، وعلى أن لا تجدد عمارة المرقب، وحلف لهم على ذلك، وأخلوا قرفيص، وأحرقوا ما لم يمكن حمله.

محاولة فاشلة لفتح قبرص؟!!

وقال ابن كثير: ولما فتح الملك السعيد بن الظاهر حصن الأكراد جعل كنيستها جامعًا وأقام فيه الجمعة، وولّى السلطان فيه نائبًا وقاضيًا، وأمر بعمارة البلد، ثم أنه بلغ السلطان وهو مخيم على حصن الأكراد أن صاحب جزيرة قبرص قد ركب بجيشه إلى عكا لينصر أهلها خوفًا عليهم من الملك الظاهر، فأراد السلطان أن يغتم هذه الفرصة، فبعث جيشًا كثيرًا في سبعة عشر شينياً ليأخذوا جزيرة قبرص في غيبة صاحبها عنها، فسارت المراكب مسرعةً، فلما قاربت الجزيرة جاءتها ريح قاصف، وصادفت بعضها بعضاً، فتحطم منها أحد عشر مركبًا بإذن الله عز وجل، ففرق خلق وأسرَ [الفرنج] من الصُّناع والرجال قريب من ألف وثمانمائة إنسان ف﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾^(٢).

(١) والمعروف أن صاحب أنطرسوس هو مقدم الداوية.

(٢) سورة البقره، آية ١٥٦.

فتح القرين؟!

وقال ببيرس في تاريخه: هذه الطامة التي حصلت على المسلمين بعد فتح القرين، فقال: خرج السلطان من دمشق بعد فراغه من الجهات التي ذكرناها في العشر الآخر من شوال، وسار إلى القرين ونازله في ثاني ذي القعدة، وأخذت باشورته^(١)، وسأل مَنْ فيه الأمان، فكتب لهم أماناً، وتقرّر خروجهم وتوجههم حيث شاءوا، وأنهم لا يستصحبون مالا ولا سلاحاً، وتسلم السلطان الحصن وأمر بهدم قلعته، ثم سار عنه ونزل اللجون، وتقدمت مراسمه إلى النواب بالديار المصرية وتجهيز الشواني وتسفيرها إلى قبرس، فجهزها النواب وسفروها صحبة مقدم البحر ورؤساء الخلافة، فلما وصلت إلى مرسى النمسون^(٢) تحت قبرس جنبها الليل، وتقدم الشيني الأول داخلًا على أنه يقصد الميناء، فصادف الشعاب في الظلماء، فانكسر، وتبعه الشواني واحدًا فواحدًا، ولم تعلم بما أصابه، فانكسروا في دجى الليل جميعًا، وأسره أهل قبرس، وكان ابن حسون المقدم قد أشار برأي، تطير الناس منه، وهي أن تطلق الشواني بالقار، ويعمل عليها الصلبان لتشتبه على الفرنج بشوانيهم، فيتمكن من موانيهم، فاقضى تغيير شعارها بما أراد الله من انكسارها.

السلطان يرد على شامة أمير قبرص؟!

وورد كتاب صاحب قبرس إلى السلطان يخبر بأن شواني مصر وصلت إلى قبرس، وكسرهما الريح وأخذتها، وهي أحد عشر شينيا، فأمر السلطان بأن

(١) الباشورة: سد من التراب يمنع وصول الخيالة أو غيرهم إلى موضع المحاربين.

(٢) هو ميناء ليماسول Limassol .

يُكْتَبُ جوابه، فُكْتُبُ إليه^(١) هذه المكاتبة:

إلى حضرة الملك أوك دلزنيال، جعله الله ممن يوفي الحق لأهله، ولا يفتخر بنصر إلا إذا أتى قبله أو بعده بخير منه أو مثله، نُعلمه أن الله إذا أسعدَ إنسانًا دفع عنه الكثير من قضاائه باليسير، وأحسن له التدبير فيما جرت به المقادير، وقد كنت عرفتنا أن الهواء كسر عدةً من شوانينا وصار بذلك يتبجح، وبه يفرح، ونحن الآن نبشره بفتح القرين، وأين البشارة بتملك القرين من البشارة بما كفى الله ملكنا من العين، وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، الاستيلاء على الحصينة هو العجب، وقد قال وقلنا، وعلم الله إن قولنا هو الصحيح، واتكل واتكلنا، وليس من اتكل على الله وسيفه كمن اتكل على الريح، وما النصرُ بالهواء مליح، إنما النصرُ بالسيف هو المليح، ونحن نُنشئ في يوم واحد عدةً قطائع، ولا يُنشأ لكم من حصن قطعة، ونجهز مائة قلع ولا يُجهز لكم في مائة سنة قلعة، وما كلُّ من أُعطي مقدافًا قذف، وما كلُّ من أُعطي سيفًا أحسن الضرب به أو عرف، وإن عُدتم من بحرية المراكب آحادًا فعندنا من بحرية المراكب ألوف، وأين الذين يطعنون بالمقاديف في صدر البحر من الذين يطعنون بالرماح في صدر الصنوف، وأنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول، وفرق بين من يُجرىها كالبهار ومن تقفُ به في الوحول، وفرق بين من يتصيد على الصقور من الخيل العراب، وبين من إذا افتخر قال: تصيدت بغيراب، فلئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة فكم أخذنا لكم قرية معمورة، وإن استوليتم على سكان فكم أخلينا بلادكم من سكان، وقد كسبت وكسبنا، فترى أيُّنا أغنم، ولو أن في الملك سكوتًا كان الواجب عليه أن سكت وما تكلم.

(١) هو « هيو دي لوزيان Hugh de Lusignan ».

فتح عكار؟!!

نزل السلطان على عكار^(١) في سابع عشر رمضان المعظم ومهد الطرقات لطلوع المجانيق، واشتدَّ أهلُه في المناضلة ورمي الحجارة والمجانيق، واستشهد عليه ركن الدين منكورس الدواداري، وكان يصلي في خيمته، فجاءه حجرٌ فمات من وقته، وشدَّدت العساكر الحصار، وأخذوا النقب تحت الأسوار، فلما رأوا أنهم عاجزون عن مقابلتهم طلبوا الأمان ورفعت عليه السناجق، وخرجت أهلُه في سلخ الشهر، فجهَّزوا إلى مآمنهم: وعيَّد السلطان بها عيد الفطر، ثم رحل إلى مخيمه بالمرج، فقال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر في ذلك:

يا مليك الأرض بُشرا ك فقد نلت الإرادة
إن عكار يقيننا هي عكا وزيادة
وكان هذا الحصن شديد الضرر على المسلمين، وهي في وادٍ بين جبال.

فتح طرابلس؟!!

ثم إن السلطان نفق في العساكر بنفقة كاملة، ثم بعد النفقة سار طالبًا مدينة طرابلس، وقد أمر العساكر فلبسوا الجواشن^(٢) والخوذ^(٣)، وساروا بأهبة الحرب، وأحاطوا بطرابلس إحاطة الهالات بالأقمار، والأكمام بالأثمار، فلما عاين بُرنس طرابلس قدوم العساكر وهجومهم كالسبل الهامر أرسل يسأل

(١) عكار: حصن على جبل عكار شمالي طرابلس.

(٢) جوتس=حواش الدروع.

(٣) الخوذة: بلبس على الرأس، ويصنع من الجلد أو الحديد، ويحلى بالذهب أو الفضة.

الصليح، فأجابه السلطان إليه .

وقال ابن كثير: أرسل إليه صاحبها يقول: ما مرادك أيها السلطان في هذه الأرض؟ فقال: جئت لأرعى زرعكم وأخرّب بلادكم، ثم أعود إلى حصاركم في العام الآتي إن شاء الله تعالى، فأرسل يستعطفه ويطلب منه المصالحة ووضع الحرب بينهم عشر سنين، فأجابه إلى ذلك .

الحرب خُدعة!؟

وأرسل إليه الإسماعيلية يسنعطفونه على والدهم، وكان مسجونًا بالقاهرة، فقال: سلموا إلى العليقة وانزلوا فخذوا إقطاعات بالقاهرة وتسلموا آباكم، فلما نزلوا أمر بحبسهم في القاهرة، وقد استناب بحصن العليقة، وخرجت من يد الإسماعيلية من ذلك الوقت .

عودة السلطان الى دمشق!؟

ثم رجع السلطان ودخل دمشق يوم الأربعاء خامس عشر شوال من هذه السنة، وعزل القاضي شمس الدين بن خلكان، وكان له في القضاء عشر سنين، وولى القضاء عز الدين بن الصائغ، وكان تقليده قد كُتِبَ ٥٦٧ بظاهر طرابلس، بسفارة الوزير بهاء الدين بن الحنّاء ورأيه، فسافر ابن خلكان في ذي القعدة إلى الديار المصرية .

كيف فُتح القُرَيْن؟! (١)

خرج السلطان من دمشق في العشر الآخر من شوال وأتى الى الساحل، ثم سار إلى القُرَيْن ونازله، وأخذ باشورته في ثاني ذي القعدة، وقد ذكرنا بقية الكلام الآن، فحاصله أنه أخذ الحصن وأمر بهدم قلعته، ثم سار عنه ونزل اللجون^(٢)، ونقدمت مراسيمه إلى النواب بالديار المصرية بتجهيز الشواني، وقد ذكرناه مفصلاً عن قريب، ثم إن السلطان جاء إلى عكّا وأشرف عليها وتأمّلها، ثم سار إلى الديار المصرية. وكان مقدار ما غرمه في هذه السّرحة والغزوات قريباً من ثمانمائة ألف دينار، وكان وصوله إلى القاهرة يوم الخميس ثالث عشر ذي الحجة.

ولما دخل القاهرة أمر بعمارة الشواني وباشرها بنفسه، فعمّر في أقرب مدة ضِعْفَي ما انكسر.

مؤامرة لاغتيال السلطان؟!!

وفي اليوم الثاني من وصوله مسك السلطان جماعة من كبار الأمراء منهم: علم الدين سنجر الحلبي، وعز الدين إيغان سم الموت، وأقوش المحمدي وغيرهم، بلغه أنهم أرادوا أن يفتكوا به وهو على الشقيف.

(١) القرين: حصن قرب صنفد، كان المركز الرئيسي للفرسان النبتون.

(٢) اللجون: هناك أكثر من موضع ببلاد الشام بهذا الاسم، والمقصود هنا بلد بالأردن بينه وبين طبرية عشرون ميلاً، ويبعد عن الرملة أربعين ميلاً.

قتل من يعصر الخمر؟!!

وفي اليوم السابع عشر من ذي الحجة أمر بإراقة الخمر من سائر بلاده، وتهدد من يعصرها بالقتل، وأسقط الضمان في ذلك، وكان بالقاهرة وحدها ألف دينار، وسارت البرد بذلك إلى الآفاق يأمر بذلك.

ولكم في القصاص حياة؟!!

منها: أن في ربيع الأول بلغ السلطان الملك الظاهر أن أهل عكا ضربوا رقاب من في أيديهم من أسرى المسلمين صبراً بظاهر عكا، فأمر بمن كان في يده من أسارى عكا، ففرقوا جميعهم، وكانوا قريباً من مائة نفر.

بقية الحوادث؟!!

ومنها: أن في يوم الأحد الثاني عشر من شوال جاء سيلٌ عظيمٌ إلى دمشق، فأتلف شيئاً كثيراً، وغرق بسببه أناس كثير أيضاً لا سيما الحجاج من الروم، أخذهم وجاهم فهلكوا، وغلقت أبواب البلد، ودخل الماء من مرامي السور ومن باب الفراديس، ففرق خان بن مقدم، وأتلف شيئاً كثيراً، وكان ذلك في زمن المشمش.

وفي تاريخ بيبرس: أتى على كل شيء فجعله كالرميم، وطلع في سور دمشق قدر رمح، وأغرق حيوانات كثيرة، وأفسد عدة أدرٍ بدمشق، وأغرق من العالم ما لا يحصى، ونضب، فلم يعلم من أين اجتمع وإلى أين ذهب،

ويقال إنه هلك به تقدير عشرة آلاف نفس، وأخذ الطواحين بجارتها .
ومنها: أن صاحب صور سأل الصلح فأجيبَ، ونقرر الصلح، وحصل
الإتفاق على أن يكون له عشرة بلاد خاصًا، ويكون للسلطان خمس بلاد
يختارها خاصًا، وبقيّة البلاد مناصفة .

قائد عام القوات المسلحة التترية يعلن اسلامه؟!!

ومنها: أنه ورد كتاب نيسو نوغاي قريب الملك بركة، وهو أكبر مقدمي
جيشه، نسخته:

صدر هذا الكتاب: من نيسو نوغاي إلى الملك الظاهر، أحمد الله تعالى
على أن جعلني من جملة المسلمين، وصيرني ممن يتبع الدين المستبين، وبعد .
فإن كتابنا هذا يحتمل على معنيين: أحدهما: التحية والسلام منا إليك .
والثاني: أنا سمعنا من أرفوغا أنه لصدق عهده مع أبينا بركة خان استخبر
عن أولاده وأقربائه ومن أسلم منهم، فلما أخبر هذا الخبر أخلصنا المحبة
للملك الظاهر، الوفي بالعهود، وقلنا: ما استخبره عنا إلا لحميته في الإسلام
وصدق نيته في تجديد العهود، وكتبنا هذا الكتاب على يد أريتمو وتوق بوعا،
معلمًا أنا دخلنا في الإسلام، وآمنا بالله، وبما جاء من عند الله، وبرسول الله
محمد (ﷺ)، فيثق بما قلناه، ويستن بسنة أبينا بركة خان، ويتبع الحق،
ويجتنب ٥٦٩ البطلان، ولا يقطع إرسال المكاتبة، فنحن معك كالأنامل
لليد، نوافق من يوافقك، ونخالف من يخالفك .

السلطان يعلن سروره بإسلام قائد التتار؟!

فكتب جوابه: صدرت هذه المكاتبة إلى سامي مجلس العزيز الأصيل،
المجاهد في سبيل ربّه، المستصيء بنور قلبه، ذخيرة المسلمين، وعون المؤمنين،
نيسونوغا، عمّر الله قلبه بالإيمان، وجعله من أمر دنياه وأخراه في أمان،
وعامله بما عامل به النابعين بإحسان، نُعلّمه بورود كُتابٍ منه، سرّ السمع
والقلب، وحكم للتوفيق بالغلب، ووجدناه مقصوداً على أفهام ما هو عليه من
صحة الإعتقاد والإقتفاء لأثر الملك بركة خان في اجتهاد في الدين وجهاد،
وهذا كان عندنا منه أمرٌ لا نترك مثله ولا نُلغي، وقد تلونا قوله تعالى:
﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾^(١)، وحمدنا الله على أن كثر به حزب المؤمنين، وجعله في
ذلك الجانب مُتَبَتِّلاً لقتال الكافرين، وقد عَلِمَ أن الرسول جاهد عشيرته
الأقربين، وأنكر على مَنْ رَضِيَ أن يكون مع القاعددين، والقصد التذكّار
بذلك، وإبلاغ التحية لمن في الجانب المحروس، ثَمَّ نور الله بصيرته حتى
اهتدى للحق، واقتدى بالملك بركة خان، رضي الله عنه، في جهاده، وداوم
على الجهاد، الذي كتب الله لنا أجره، في الغرب، ولهم أجره في الشرق، حتى
تنكسر شوكة الكفار، ويعلم الكافر لمن عقبى الدار، ويخذل أنصار المشركين،
﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾^(٢) وتتمته تتضمن الأشلاء على التتار والإغراء بهم.

☆ ☆ ☆

اقول ... يمكن أن تسمى هذه السنة... التاسعة والستين بعد
الستائة ... سنة الانتصارات الحاسمة للسلطان بيبرس...

(١) سورة الكهف، آية ٦٤.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٧٠.

ففيها تم فتح حصن الأكراد ...
وفيهما استسلم أمير فرسان الداوية ... وقبل جميع الشروط التي فرضها
عليه السلطان ... وما كان هؤلاء الداوية ... وهم من أعتى الفرسان
الصليبية المقاتلة ... أن يستسلموا لبيبرس ببساطة ... وإنما الرعب من
السلطان زلزمهم وقذفهم اليه راكعين!!!
وفيهما حاول السلطان أن يستولي على قبرص وجهاز لذلك حملة
بحرية ... إلا أن الريح تقاذفت السفن فصادمت بعضها بعضاً ...
فتحطم أكثرها ... وفشلت الحملة ...
صحيح أن الحملة لم تنجح لظروف القاهرة ... إلا أن مجرد تجريد
قوة بحرية للاستيلاء على قبرص دليل على مدى ما بلغه بيبرس من قوة
تسمح له بتحدي الصليبيين في معقل من معقلهم العتيدة!!!
وفيهما فتح حصن القرين ... المركز الرئيسي للفرسان النيوتون ...
وفيهما تم فتح عكار ... وعتد السلطان بها عيد الفطر ...
وفيهما هاجم طرابلس ... فأرسل صاحبها يستعطفه ويطلب منه
المصالحة ... ويطلب وضع الحرب بينهم عشر سنين ... فأجابته الى
ذلك!!!
وفيهما سلم الإسماعيلية اليه حصن العليقة ... وما كان هؤلاء
الفدائيون ليستسلموا إلا ليقينهم أن بيبرس يستطيع أن يزيل حصومهم
إذا شاء!!!
كان بيبرس في هذا العام ٦٦٩ هـ في أوج انتصاراته ... يفتح من
القلاع والحصون ما شاء!!!
إلا أن الجديد في هذه السنة أنه توجه الى الشام ... واستصحب معه
ولده الملك السعيد ... ولي العهد ... وجهور الجيش!!!
فما معنى هذا؟! ...

معناه أن السلطان يدرب ابنه على الكيفية التي ينبغي أن يعيشها حين
تؤول إليه مقاليد السلطة من بعده...
وأشرك ابنه معه في فتح حصن الأكراد...
وعاش ولي العهد... اسلوب أبيه وهو يفتح الحصون والقلاع
بالشام...

كأن السلطان يريد بذلك أن يقول لابنه الملك السعيد: يا بُنَيَّ...
هكذا عِش... يهابك أعداؤك... ويخافك الطامعون في مُلكِك!!!
لقد كان بيبرس عاشقاً لحياة المقاتلين... يسعى إليها ويلقي بنفسه
إلى مخاطرها... ويجد في ذلك اللذة كل اللذة...
وكان يُحبّ لابنه أن يكون كذلك!!

ثم ماذا؟!!
ثم هذا الأمر الخطير من بيبرس...
«وفي اليوم السابع عشر من ذي الحجة... أمر بإراقة الخمر من
سائر بلاده!!!»

«وتهدّد من يعصرها بالقتل!!!»
«وأسقط الضمان في ذلك!!!»
«وكان بالقاهرة وحدها ألف دينار!!!»
«وسارت البرد بذلك إلى الآفاق يأمر بذلك»!!!

إن السلطان يخوض حرباً شرسة ضد الخمر والمسكرات
والمخدرات...

لماذا؟!... امتثالاً لأمر الله أولاً... وحرصاً على سلامة الأمة
والجيش ثانياً...

وها هو يخوض هذه الحرب بنفس العنف والحسم المعروفين عنه في
أموره كلها...

أولاً ... اراقه جميع الخمر ... في جميع أنحاء البلاد من أقصى النوبة
الى ما وراء حلب شمالاً ... الى الفرات شرقاً ... في جميع هذه البلاد تراق
الخمر فوراً مهما كان ثمنها !!!
ثانياً ... يُقتل كل من يعصر خمرًا !!!
ثالثاً ... ينحتم قتل من يعصر الخمر ولا تقبل الفدية !!!
وسارت البرد بذلك الى الآفاق يأمر بذلك ... أي سارت الأوامر
السلطانية بإراقه الخمر وقتل عاصريها ... بالبريد ... الى جميع آفاق
المملكة !!!

مرة أخرى ... هذا هو بيبرس !!!
في الخارج ... معارك متواصلة ... ضد ممالك الفرنج بالساحل
الشامي ... واستيلاء عليها حصناً بعد حصن ... وقلعة بعد قلعة ...
وفي الداخل يقظة تامة ... وعيون مفتوحة على كل شيء ... فإذا
رأى شيئاً حراماً سارع الى ابطاله ... وكان حاسماً كالسيف ... في تنفيذ
ما يأمر بتحريمه ... إنه يقتل عاصر الخمر ... باعتبار أنه هو المجرم
الأول في شرب الخمر ... فلولا عصير الخمر ما كان هناك من يبيع
الخمر ... ولا من يشرب الخمر !!!
عيون مفتوحة ... ويقظة تامة ... بلغه أن بعضاً من كبار الأمراء
كان يريد أن يفتك به وهو على الشقيف ... فوراً اعتقلهم ... وفوراً
قضى على الفتنة !!!

إن أحوال بيبرس في هذا العام ... تؤكد للناظرين ... أن السلطان
الملك الظاهر بيبرس ... كان ملكاً بكل معاني الملك من الدهاء
والسياسة والجرأة والقوة والمخادعة واستعراض القوة ...
وأن بيبرس لم يكن درويشاً ... رغم قوة عقيدته ... ورسوخ
اسلامه ...

وإنما كان بَطَلًا بكل معاني البطولة!!!
وكان مَلِكًا بكل لوازم المُلْك!!!
وكان سلطانًا بكل مقتضيات السلطة!!!
﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ (١) ...!!!

(١) سورة البقرة، آية ٢٤٧.

في وقت واحد ...

بيبرس يقاتل ...

التَّار والفرنج ...

في السنة السبعين بعد

الستائة...؟!!

استهلّت هذه السنة، والخليفة هو: الحاكم بأمر الله العباسي.
وسلطان البلاد المصريّة والشاميّة: الملك الظاهر بيبرس البندقداريّ
الصالحى.
وصاحب بلاد الروم: ركن الدين قليج أرسلان السلجوقي، ولكنه تحت
حكم التتار.
وصاحب البلاد العراقية وخراسان وأذربيجان وغيرها من البلاد: أبغا ابن
هلاون.
وصاحب البلاد الشماليّة: منكوتر.

الاحتفال بانزال الاسطول الجديد الى البحر!؟

وفي يوم الأحد الرابع عشر من محرم هذه السنة ركب السلطان الملك
الظاهر إلى البحر لإلقاء الشواني التي عملت عوضاً عما غرق بجزيرة قبرس،
فركب في شينّي منها، ومعه الأمير بدر الدين الخازندار، فمال بهم المركب،
فسقط الخازندار في البحر، فغاصّ في الماء، فألقى رجل نفسه وراءه، فأخذ
بشعره وأنقذه من الغرق، فخلع السلطان على ذلك الرجل وأحسن إليه
جزيلًا.

سَفَرَةُ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّامِ؟!!

وفي أواخر المحرم منها، ركب السلطان في نفر يسير من الخاصكيّة والأمرء من الديار المصرية، فجاء إلى الكرك، واستصحب نائبها عز الدين أيدير الظاهري أستاذ الدار معه، ورتب علاء الدين أيديكين الفخري أستاذ الدار نائب السلطنة بها، ثم توجه إلى دمشق فدخلها في الثاني عشر من صفر، ومعه عز الدين أيدير المذكور، فولاه نيابة دمشق، وعزل جمال الدين أقوش النجبي في رابع عشر صفر.

وفي مستهل ربيع الأول خرج من دمشق فتوجه إلى شيزر وحصن وحصن الأكراد وحصن عكّار وكشفهم، ثم عاد إلى دمشق بعد عشرة أيام.

بيبرس يقاتل التتار والفرنج في وقت واحد؟!!

وجاء إليه الأخبار بأن التتار أغاروا على عينتاب، ثم توجهوا إلى عمق حارم، ومقدمهم يُسمى صمغار، فوقعوا على طائفة من التركمان بين حارم وأنطاكية، فاستأصلوهم، فكتب السلطان إلى الديار المصرية يستدعي الأمير بدر الدين بيسري الشمسي وثلاثة آلاف فارس من العسكر، فوصل البريدي إلى الأمير بدر الدين الثالثة من ليلة الأربعاء الحادي والعشرين من ربيع الأول، فتجهز وخرج بكرة الأربعاء هو والعسكر المطلوب، فسافروا ووصلوا إلى دمشق في رابع ربيع الآخر، وأما التتار فإنهم أغاروا على حارم والمروج وقتلوا جماعة، فتأخر نائب حلب والعسكر إلى حماة، وجفل أهل دمشق، فلما وصل البيسري والعسكر إلى دمشق سار السلطان بالعساكر إلى حلب، وجرّد إلى كل جهة عسكرياً صحبة أمير من أمرائه، فجرد الحاج طيبرس الوزيري

وعيسى بن مُهتّي إلى مرعش، فقتلًا من وجداه بها من التتار، وانكفوا بحركة السلطان، وكان الفرنج قد تحركوا بالسّاحل وأغاروا على قاقون وقتلوا الأمير حسام الدين أستاذ الدار وبعض من كان معه، فلما لحقتهم العساكر تفرقوا وعادوا، ولما سكّن السلطان هذه الثّوابر عاد إلى الديار المصرية.

عَوْدُ السُّلْطَانِ إِلَى مِصْرَ!؟

ولما فرغ شغله من الشام عاد إلى الديار المصرية، فوصل إلى قلعة الجبل الثالث والعشرين من جمادي الأولى، وأقام فيها إلى شعبان ينظر في مصالح المسلمين، ثم خرج.

خروج السلطان من الديار المصرية إلى الديار الشامية

ثاني مرة!؟

وفي شهر شعبان خرج السلطان وتوجّه إلى أراضي عكا، فأغار عليها فسأله صاحبها المهادنة، فأجابه إلى ذلك، فهادنه عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، ثم عاد إلى دمشق فقرأ كتاب الصلح بدار السعادة، فاستمر الحال على ذلك.

★ ★ ★

اقول... أخطر مؤشر في السنة السبعين بعد الستمائة...

هو مقاتلة السلطان بيبرس في جبهتين في وقت واحد ...
في الجبهة الغربية قاتل التتار وبددهم ...
وفي الجبهة الشرقية أحسَّ الفرنج بقدومه فانكمشوا وانهزموا وولّوا
الأدبار!!!

قالوا:

« وجاء إليه الأخبار بأن التتار أغاروا على عينتاب ... ثم توجهوا الى
عمق حارم ... ومقدمهم يُسمّى صَمْفار ... فوقعوا على طائفة من
التركان بين حارم وأنطاكية ... فاستأصلوهم ... »!!!
أخبار سيئة ... ولكن بالنسبة الى بيبرس الذي يبحث عن المعارك تعتبر
أخباراً سارة!!!

كيف واجه الأسد الضاري الأمر؟!

على الفور:

« فكتب السلطان الى الديار المصرية يستدعي الأمير بدر الدين
الشمسي ... »

« وثلاثة آلاف فارس من العسكر »!!!

انظر ... بيبرس يتحرك لينقضّ!!!

ووصل الأمير الشمسي والقوة التي على رأسها ...

فلما وصل الشمسي والعساكر الى دمشق ... سار السلطان بالعساكر الى
حلب ...

إنَّ الأسد الضاري يتوجه لإبادة التتار ...

ولكن ما هي خطته العبقرية؟!

« وجرّد الى كل جهة عسكرياً صحبة أمير من امرائه ... »

« فجرّد الحاج طيبرس الوزيري ... وعيسى بن مُهنّي الى مرعش ... »

« فقتلا من وجداه بها من التتار .. »

« وانكفوا بحركة السلطان... »
انظر... خطة سريعة... وقضاء تام على التتار... في أسرع وقت!!!
ولكن هناك اعداء في الغرب غير التتار... فاذا هو فاعل بهم؟...
« وكان الفرنج قد تحركوا بالساحل... وأغاروا على قاقون...
وقتلوا الأمير حسام الدين أستاذ الدار وبعض من كان معه...
« فلما لحقتهم المساكر... تفرقوا وعادوا... »!!!
لم يجرؤ الفرنج أن يواجهوا قوات بيبرس بقتال...
كانوا يظنون أن بيبرس سينشغل بالتتار... فهي فرصة لهم... فلما دمر
التتار... رُجِبوا وتفرقوا وعادوا من حيث أتوا!!!
ما معنى هذا؟
معناه أن بيبرس كان عليه أن يواجه غدر التتار وغدر الفرنج في وقت
واحد!!!
وأنهم أي التتار والفرنج... يخططون لمهاجمته... ومحاولة الانقضاض
عليه... من الشرق والغرب في نفس الوقت...
ولكن هيهات... إن بيبرس ينظر بعيني أسد... الى الأفق البعيد!!!

البطل بيبرس...

يهزم التَّار...

هزيمة ساحقة...؟!!

متى كان ذلك؟!؟
متى سحق البطل جيوش التتار؟!؟
كان ذلك في السنة الحادية والسبعين بعد الستائة ...
ولكن كيف كانت المعركة؟!؟
ومتى هو القائد العظيم من قادة السلطان... الذي نال فخر هذه
المعركة... فنال اعجاب السلطان؟!؟
استهلت هذه السنة، والخليفة هو: الحاكم بأمر الله، والسلطان الملك الظاهر
كان في دمشق، وخرج منها على البريد ليلة السادس من المحرم من هذه
السنة، ووصل إلى قلعة الجبل يوم الثالث عشر من المحرم، وأمر بتجهيز
العساكر إلى الشام، وأقام بالقلعة خمسة عشر يوماً وخرج.

سَفَرُ السُّلْطَانِ إِلَى الشَّامِ؟!؟

خرج من الديار المصرية يوم التاسع والعشرين من محرّم هذه السنة، فوصل
إلى دمشق في الثالث من صفر، وطلع قلعتها ليلاً.
وفي هذا الشهر: وصل رُسُلُ أبغابن هلاون في أمر الصلح، وغيروا
كلامهم، وقالوا: أولاً إن السلطان يسير سنقر الأشقر يمشي في الصلح، ثم

قالوا: إن السلطان يمشي في الصلح أو من يكون بعده في المنزلة، فاغتاظ السلطان من هذا الخطاب، وقال أيضاً: إذا كان يقصد الصلح يمشي هو بنفسه، أو واحد من إخوته، وأعاد الرسل إلى مرسلهم في ربيع الأول منها.

عبور السلطان الفرات؟!!

وكان السبب في ذلك حضور دُرَيْبَة ومن معه من التتار إلى البيرة، فنزلوا عليها ونازلوها ونصبوا عليها المجانيق وآلات الحصار، وجرّد دُرَيْبَة طائفة منهم صحبة. مقدم يسمى جيفرا إلى الفرات لحفظ المخائض، فنزلوا على مخاضة تعرف بمخاضة القاضي، وأقاموا لهم سياجاً من السيب، وحاجزاً من الخشب، ونزلوا وراء ذلك السياج، فسار السلطان بالعساكر الإسلامية المصرية والشامية حتى انتهى إلى تلك المخاضة، وأشرف على التتار من أعلى الجبل، وهم عليها نازلون، وبها يحيطون فاستشار الأمراء الأكابر ومن جرت عادته بالإشارة في المشاور، فتقدم إليه الأمير سيف الدين قلاون وقال: هؤلاء أهون علينا من أن نستشير في أمرهم أو نتوقف دونهم وأنا أعبّر إليهم وأهجم عليهم وإنما أحتاج دليلاً يعرفني المخاضة، فتقدم الدليل قدامه وتوجه بمن معه من مماليكه وأصحابه، فاقتحم الفرات وعبر على سفائن كواهل الصافيات، فثار التتار إليه وحملوا عليه، فثبت لهم، وصدّمهم صدمةً فرقتهم قوتها، ومزقتهم شدتها، وقتل مقدمهم جيفراً، قتله زين الدين كتبغا مملوك الأمير سيف الدين قلاون وقتل منهم جماعة، فعند ذلك عبر السلطان، وعبرت العساكر، فلما تكاملت الجيوش شرقي الفرات ولّى دُرَيْبَة هزيمة، ورحل عن البيرة ذميماً، وترك آلاته التي أعدها للحصار، فنزل أهل البيرة فأخذوها واقتسموها، وساز السلطان إليها، فخلع على المغيبي النائب بها وعلى مقدميها،

وفرق في أهلها أموالاً كثيرةً، ثم عاد إلى دمشق في ثالث جمادي الآخرة ومعه الأسرى.

وأما دُرَيْبَةُ فإنه لما حضر عند أبعابن هلاون منهزماً، وقد فقد رفيقه، وقتل أكثر من معه، عَنَّه أُنْبَغَا وَعَدَّدَ له ذُنُوبُهُ وقال له: كيف انهزمت؟ وما جُرُحت؟ وقتل رفيقك وما قُتلت؟ وأمر بالحوطة عليه وإبعاده، وإعطاء تقدمته لأبطاي، فقال أبطاي: أنا أسدّ الحلل وأقوم بما قصّر فيه من العمل.

توجه السلطان إلى الديار المصرية؟!!

ولما فرغ بال السلطان من جهة هؤلاء التتار عاد إلى دمشق، ثم سار إلى الديار المصرية، فطلع قلعتة في الخامس والعشرين من جمادي الآخرة من هذه السنة، وأفرج عن الأمير عز الدين الدمياطي من الاعتقال، وجلس لشرب القمز^(١) بمحضرة أمرائه وأعيانه، فتذاكروا وقعة الفرات، وأثَنُوا على الأمير سيف الدين قلاون في إقدامه يومئذ، فأنعم السلطان عليه بثلاثة آلاف دينار عيناً، وفرس بسرج ذهب، وتشريف كامل، وجوشن، وخوذة، وسيف محلي بالذهب، فكان مقدار ذلك ألفي دينار عيناً، فتكلمت منه من الحياء في ذلك اليوم خمسة آلاف دينار، ولما شربوا القمز ناول الهناب^(٢) إلى الأمير عز الدين الدمياطي، وكان قد شابت لحيته، فقال يا خونذ: شبننا وشاب نببذنا، وغنت الأنساء والشعراء بهذه الأبيات:

زعمت بنو قاقان أن خيولنا تخشى العبور إليهم في الماء
فأتوا إلى شطّ الفرات وطلبوا متهيبين لغارة شعواء

(١) القمز: لفظ تترى الأصل، يطلق على سبيد يعمل من لبن الخيل.

(٢) الهناب: قدح الشراب.

وترجلت من بينهم أقشيّة
قصدوا بهذا منعنا عن برهم
فأتاهم جيش النبي يؤمهم
بعصائب سود عليها رنكه
عام الفرات إليهم بصواهل
فانفل جيشهم وولّى هارتا
وغدت سيوف المسلمين خصيبة
لله يوم بالفرات رأيتنه
ثم الصلاة على النبي محمّد
وفي يوم الثلاثاء ثالث رجب منها: خلع على جميع الأمراء، ومقدمي
الحلقة، وأرباب الدولة، وأعطى كل إنسان ما يليق به من الخيل والذهب
والحوائص والثياب، فكان مبلغ ما صرف في ذلك نحواً من ثلاثمائة ألف
دينار.

★ ★ ★

اقول... وهكذا فرّت جيوش التتار أمام زحف جيوش بيبرس!!!
وهذا شيء طبيعي بالنسبة الى انتصارات بيبرس... ولكن هناك سؤالاً لا
بد أن يُطرح...
لماذا انتصر بيبرس في هذه المعركة ضد التتار... وفرّوا أمامه كما تفرّ
الحُمُر المستنفرة فرّت من قسورة؟!
الجواب: لأن بيبرس كان دائماً على رأس جيوشه... وكان يحارب
بنفسه... ويحرص على الموت... ويسبق الى العدو...
وهذه الصفات اذا اجتمعت في قائد أشعلت الجنود... فاستبقوا الموت...

فاستبقت اليهم أسباب النصر!!!

قالوا:

« فسار السلطان بالعساكر الإسلامية... المصرية والشامية... حتى

انتهى الى تلك المخاضة... وأشرف على التتار من أعلى الجبل... »

إنه في قلب الميدان على رأس جيوشه!!!

« فعند ذلك عبر السلطان... وعبرت العساكر...

« فلما تكاملت الجيوش شرقي الفرات... ولَّى دُرَيْبَةَ... هزيمة... »

ورحل عن البيرة ذميماً...!!!»

إن مجرد ظهور السلطان على رأس جيوشه... جعل دُرَيْبَةَ قائد جيوش

التتار... يولَّى الأدبار!!!

لماذا...! لأن بيبرس يريد أن يموت... وهذا القائد التتري لا يريد أن

يموت...

والنتيجة حتمية... النصر لمن يريد الموت... والهزيمة لمن يفرّ من

الموت!!!

إن عبقرية بيبرس عبقرية اسلامية...

منبها... احرص على الموت توهب لك الحياة!!!

في السنة الثانية والسبعين بعد الستائة ...
الملك الظاهر بيبرس ...
يأمر الجميع بالخروج ...
الى القتال ...!؟

استهلت هذه السنة، والخليفة هو: الحاكم بأمر الله.
والسلطان الملك الظاهر في الديار المصرية، ولكنه خرج إلى ناحية الشام.

أمر بخروج الجميع للقتال!؟

وفي ليلة السادس والعشرين من محرم هذه السنة، خرج السلطان من القاهرة، وتوجه إلى الشام، وصحبه جماعة من أمرائه بسبب تواتر الأخبار بحركة أبغا ملك التتار، ثم تواترت عليه الأخبار في أثناء الطريق بقوة حركته، فكتب باستدعاء العساكر من الديار المصريّة صحبة الأمير بدر الدين الخزندار، ورسم بأن جميع مَنْ في مملكته ممن له فرس يركب للغزاة، وأن يخرج أهل كل قرية بالشام من بينهم خيالة على قدر أهل القرية، ويقومون بكلفتهم، ووصل دمشق في شهر صفر، ثم عاد إلى يافا عند وصول العساكر من الديار المصريّة، فأنزلهم بها، ورتّب أحوالهم، وعاد إلى دمشق.

مخابرات بيبرس وراء الملوك؟!!

وفيها: اتصل بالسلطان أن ملك الكرج حضر مختفيًا لزيارة القدس الشريف، فأرصد له من يعرف حليته، فأمسك من بين الزوّار هو وثلاثة نفر من أعيان أصحابه، وسيروا إلى السلطان وهو بدمشق، فسجنه بالقلعة المنصورة ورحل السلطان إلى القاهرة.

الأمراء يرهبون صولته؟!!

وكان الأمير عمرو بن مخلول أحد أمراء العرب قد حبسه السلطان في عجلون لجرم عمله، فهرب منها وتوجه إلى التتار، ثم طلب الأمان، فقال السلطان: ما نؤمنه إلى أن يحضر إلى عجلون ويقعد في المكان الذي كان مسجونًا، فحضر وتطوق بالطوق الحديد كما كان، فعفا السلطان عنه.

رَحيل السلطان من دمشق إلى القاهرة؟!!

ثم إن السلطان خرج من دمشق في أواخر جمادي الأخرى، ووصل إلى القاهرة، فدخلها في سابع شهر رجب وكان يوم دخوله يومًا مشهودًا. ثم بعد ما دخل طهر ولده نجم الدين خضر في شهر شعبان، فلعب العسكر القبق، فكان كما قيل:

ذاك يومٍ لها عن اللهو فيه ويغني عن مُطربات الأغاني
بصليلٍ لمُرَهْفٍ وصَهيلٍ لجوادي، ورنّةٍ لادان

كلُّ أفعاله إلى الجِدِّ تُعزَى يوم سلّم، أوّلاً، فيوم رهان
 لا تراه في السِّلم والحرب إلا بين رمح وصارم وسنان
 وعمل القاضي محي الدين بن عبد الظاهر أبياتاً منها:
 يا ملك الدنيا ومَن بعزمه الدين نُصرُ
 هُئيت بالعيد وما على الهناء اقنُصرُ
 لكنّها بشارة لها الوجُود مُفتَقِرُ
 بفرحةٍ قد جمعت ما بين موسى والخضرُ

سَفَرُ الْمَلِكِ السَّعِيدِ بْنِ الظَّاهِرِ إِلَى الشَّامِ!؟

وفي الثاني عشر من شهر رمضان من هذه السنة وجّه السلطان ولده الملك السعيد إلى الشام صحبة الأمير شمس الدين آقسنقر استادار، فوصل دمشق تَغْتة ولم يدر نائب السلطان بها إلا وهو بينهم في سوق الخيل، ثم سار منها إلى صفد والشقيف وعاد إلى مصر فوصل في الحادي والعشرين من شوال.

★ ★ ★

اقول... في هذه السنة... السنة الثانية والسبعين بعد الستائة... نعر علي
 المفتاح الأعظم لشخصية بيبرس...
 وها هو المفتاح:
 « فكتب باستدعاء العساكر من الديار المصرية... صحبة الأمير بدر
 الدين الخزندار...
 « ورسم بأن جميع من في مملكته ممن له فرس يركب للغزاة...»

« وأن يخرج أهل كل قرية بالشام من بينهم خيالة على قدر أهل
القرية... ويقومون بكلفتهم... » !!!
لماذا هذا كله !!؟

« ... بسبب تواتر الأخبار بحركة أبغا ملك التتار...
» ثم تواترت عليه الأخبار في أثناء الطريق بقوة حركته... فكتب
باستدعاء العساكر... » !!!

هذا هو بيبرس... يقظة تامة نحو العدو والأحداث.
أولاً... خرج هو وصحبته جماعة من أمرائه الى الشام بسبب تواتر
الأخبار بحركة التتار...

ثم جاءت الأخبار وهو في الطريق بقوة حركة التتار...
فأصدر فوراً أمراً باستدعاء الجيش المصري من الديار المصرية...
واصدر مرسوماً عاماً في جميع أنحاء المملكة شمالاً وجنوباً...
« كل من له فرس يركب للغزاة » !!!

فإذا علمنا أنّ كل انسان تقريباً يملك فرساً... كان معنى هذا دعوة جميع
القادرين على القتال من الشعب للخروج الى المعركة... المعركة مع التتار !!!
هذا هو بيبرس !!!

شعلة مشتعلة دائماً... تتقدم الصفوف الى الأعداء...
إنه ينفخ روح القتال... أشرف قتال... في الجميع...
الكلّ يقاتل... لا مكان للقاعدين في عهد بيبرس !!!
وها هو يحرك الأمة كلها... جيشاً وشعباً... في الشام وفي مصر... وفي
كل مكان...

اخرجوا جميعاً... قاتلوا عن أعراضكم وأوطانكم...
اخرجوا في سبيل الله... فلا شيء هو أشرف من القتال في سبيل الله !!!

بيبرس ...

في معارك متواصلة ...

في الداخل والخارج...؟!!

في السنة الثالثة والسبعين بعد الستائة .
استهلت هذه السنة ، والخليفة هو : الحاكم بأمر الله العباسي .
وسلطان البلاد المصريّة والشاميّة : الملك الظاهر ، رحمه الله .
وبقيّة أصحاب البلاد على حالهم .

القضاء على الخونة؟!!

وفيها اطلع السلطان على ثلاثة عشر أميرًا من المصريّة، منهم قجقار الحموي، قد كاتبوا التتار، فأخذهم، فأقروا بذلك، وجاءت كتبهم مع البريد، فكان آخر العهد بهم.

خروج السلطان إلى الكرك؟!!

خرج السلطان الظاهر من الديار المصريّة في الثامن من صفر من هذه السنة، وتوجه على الهجن إلى الكرك من طريق البدريّة، فبلغه أن الرجال

الذين بها قد خامروا، فمسكهم وقطع أيديهم وأرجلهم، وأقام بالكرك ثلاثة عشر يوماً، ثم عاد إلى جهة مصر، ودخلها في الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول من هذه السنة.
ثم توجه إلى العباسة وولده الملك السعيد صحبته، ورمى البندق، وصرع ولده طيراً من الطيور الواجبة^(١).

السلطان يستنقذ البحارة الأسرى!؟

وفيها تحيّل السلطان على استخلاص رؤساء الشواني واستخراجهم من أسر الفرنج، وذلك أنه لما انكسرت الشواني بقبرس على ميناء نمسون كما ذكرنا، وأن صاحب قبرس أسر رؤساءها وأرسلهم إلى عكا فاعتقلوا بها في قلعتها، فبذل السلطان لهم مالاً في إطلاقهم، فتوقفوا وتغالوا فيهم، فتحيّل واستمال الموكلين بحفظهم، ولم يزل يتلطف في أمرهم حتى سُرّقوا من محبسهم وخرجوا في مركب معدّ لهم، وكانت لهم خيل معدّة في البرّ، فركبوها، ولم يُعلم بهم إلا وقد وصلوا إلى الأبواب السلطانية، وهم ستة نفر، وكان السلطان كما قيل:

ولكم بلغتُ بجيلتي ما ليس يبلغ بالسيوف
وفيها: ورد كتابُ ملك الحبشة واسمه محرّ أملك يَطْلُب مطران من بطرك الإسكندرية، فأجابه السلطان إلى ذلك، ورسم لبطرك اليعاقبة بأن يجهز إليه مطران، فجهّزه وأرسله إلى السلطان صحبة رُسله.
وفيها: توجهَ عسكر حلب إلى بلاد سيس، وأغاروا عليها، وعلى مرّعش، وقلعوا أبوابَ رِبضها، وتبع هذه الغارة خروج السلطان إليها، وإناخته عليها.

(١) المقصود أحد الطيور المعينة للرماية.

خروج السلطان إلى الشام!؟

برز السلطان من قلعة الجبل في الثالث من شعبان من هذه السنة، ووصل إلى دمشق في سلخ شعبان، ودخل دمشق في يوم ثلج ألبس الأرض أثراً، ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾^(١) وخرج عسكر الشام مُلبسين متوجهين لغزو سيس وأعمالها، وأقام السلطان بدمشق بعدهم أياماً قلائل، ثم جهَّز الجاليش صحبة الأمير سيف الدين قلاون الألفي والأمير بدر الدين بيليك الخزندار، فساروا سيراً عنيفاً.

قال بيبرس في تاريخه: ووصلنا إلى المصيصة^(٢) على غرة من الأرمن، فهجمت العساكر عليها عند فتوح أبوابها، فملكوها وقتلوا مَنْ بها، وملكوا الحسر، وكان السلطان قد جهز المراكب وحملها صحبته على الجبال ليعدُّوا فيها نهر جهان^(٣) والنهر الأسود^(٤) فلم يحتج إليها، ووصل إليها السلطان على الأثر، وجرّد الأمير حسام الدين العينتابي ومهني بن عيسى إلى البيرة، ودخل السلطان سيسَ مطلباً في العساكر والمواكب كالبدر المنير بين الكواكب، وأمر بتخريبها، ووصل درْبند الروم، ووصل، ووصلت بعوْثه إلى أياس، والبرزين، وآذنة، وقتلوا وغنموا، فقال^(٥) في ذلك:

يا ويسح سيس أضحت نهبه كم عوَّق الجاري بها الجارية
وكم بها قد ضاق من مسلك واستوقف الماشي بها الماشية
ولما عاد إلى المصيصة راجعاً من الدرْبند أمر بإحراق جانبها، فأحرقت،

(١) سورة النبا آية ١٩ .

(٢) المصيصة: مدينة على نهر جيحان، وهي بقارب طرسوس، وبين أذنه تسعة أميال

(٣) نهر جهان - نهر جيحان - تقع عليه المصيصة، ويصب في البحر المتوسط على مسافة قريه منها.

(٤) النهر الأسود: أحد فروع الفرات الأعلى، ويعرف عند الترك باسم «فراصو» أي النهر الأسود، ويجري غرب المصيصة وطرسوس.

(٥) المقصود ابن عبد الظاهر.

وتحكمت عساكره في كل ما حَوَتْ .

ثم خرج السلطان إلى مرج أنطاكية، فأقام به وجمع الغنائم في صعيد واحد من الخيل والجواري والمماليك والمواشي وغيرها، فقسمها بنفسه على العساكر، فلم ينس صاحب علم ولا رَبَّ قلمٍ، وأراح العساكر شهراً، ثم رحل إلى القصير فنزله، وهذا الحصن لبابا روميّة، وكانت مضرة على الفُوعة وجهاتها، وكان أهله عند فتح أنطاكية سألوا الهدنة، فأجيبوا إليها فما وقفوا عندها، فرتّب السلطان عسكرياً لحصاره، فسلمه أهله، وحملوا إلى الجهات التي قصدوا، وأما العسكر والعربان الذين توجهوا نحو البيرة فإنهم وصلوا إلى رأس العين ونهبوا وغنموا ما وجدوا، وأما السلطان وعساكره فإنهم توجهوا إلى دمشق وأقاموا فيها إلى أن خرجت هذه السنة .

★ ★ ★

في هذه السنة ... السنة الثالثة والسبعين بعد الستائة ...
تتلاً من الملك الظاهر صفة سرعة مواجهة الأحداث واضحة تمام
الوضوح ...

علم السلطان أن ثلاثة عشر أميراً كاتبوا التتار... واعترفوا بذلك...
فقضى عليهم قضاء تاماً... حتى لا تتكرر مهزلة سقوط بغداد!!!
ثم ذهب فجأة الى قلعة الكرك... بلغه أن الرجال الذين بها قد
خامروا... فقبض عليهم... وقطع أيديهم وأرجلهم!!!
ثم كلّف مخابراته برسم خطة لاستنقاذ البحارة الأسرى عند الفرنج منذ
أسرت سفنهم في قبرص... ونجحت الخطة السرية... ووصل البحارة الى
الأبواب السلطانية... والفرنج في غفلة تامة!!!
هذا في الداخل... فماذا في الخارج؟

لا يطيق بيبرس أن يمضي عام عليه ... ولم يخرج فيه للقتال!!!
وها هو يخرج الى سيبس ...
وها هو تستولي جيوشه على المصيصة ... وها هي جيوشه نتوغل حتى
آذنة ...
ثم ما هو يرحل الى حصن القصير ... وها هي قواته تحاصر الحصن ...
وها هو الحصن يستسلم ...
ثم عاد السلطان بعد أن نوغل فيما وراء حلب ... الى دمشق ... وأقاموا
فيها الى أن انتهت السنة!!!
اقول ... دائماً بيبرس ... إمّا في معاركة داخلية ... ممنع فيها
حراماً ... ويضرب على أيدي المجرمين ...
وإمّا في معارك خارجية ... يغير على التار ... أو الفرنج ...
ليذيقهم أسوأ ما عملوا!!!

التَّار يهجمون ...

في ثلاثين ألفاً ...

فلما سمعوا بقدوم ببيرس ...

استبقوا الفرار ...؟!!

في السنّة الرابعة والسّبعين بعد السّتمائة .
استهلت هذه السنّة، والخليفة هو: الحاكم بأمر الله .
والسلطان الملك الظاهر بيبرس في دمشق، وأرسل الأمير بدر الدين
الخزندار إلى مصر في الرابع والعشرين من المحرم لإحضار ولده الملك
السعيد، فتوجّه وأحضره، ودخل دمشق في سادس صفر من هذه السنّة،
وكان يوماً مشهوداً .

نزول التتار على البيرة؟!!

وفي يوم الخميس ثامن جمادي الآخرة نزل التتار على البيرة في ثلاثين ألفاً
من المقاتلة منهم خمسة عشر ألفاً من المغول وخمسة عشر ألفاً من الروم، فعلى
المغول أمير يسمّى أنطاي، وعلى الروم الأمير معين الدين سليمان البرواناه،
ومعهم جيش الموصل، وجيش ماردين، والأكراد، وذلك بأمر أبغا بن هلاون
ملك التتار، فنصبوا على البيرة ثلاثة وعشرين منجنيقاً، فخرج أهل البيرة في
الليل، فكبسوا العسكر وأحرقوا المنجنيقات، ونهبوا شيئاً كثيراً، ورجعوا إلى
حصنهم سالمين، فأقام الجيش عليها إلى تاسع عشر الشهر المذكور، ثم رجعوا
عنها بغيظهم، ولما بلغ السلطان الظاهر ذلك أنفق في العساكر نفقةً كاملةً .

فرار التتار؟!!

وقال ابن كثير: أنفق في الجيش ستمائة ألف دينار، وركب سريعاً، وفي صحبته ولده الملك السعيد، فلما وصل إلى القُطَيْفَة بلغه أن التتار سمعوا بجرکه فوهنوا ورجعوا عن البرة، فسار السلطان إلى حمص، ثم إلى حلب.

عُود السُلطان الظَّاهر من عينتاب إلى الديار المصرية؟!!

ولما جرى الأمور المذكورة، وكان السلطان على مدينة عينتاب رحل منها طالباً الديار المصرية في مستهل رجب من هذه السنة، ووصل إلى الديار المصرية في ثامن عشر رجب من هذه السنة، وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً

السلطان يفتزو السودان؟!!

ولما استقرَّ ركابه في قلعتة بالقاهرة وفد عليه شكندة ابن عم داود ملك النوبة متظلماً من ابن عمه داود وأخذه الملك منه، فجرد السلطان الظاهر معه جيشاً صحبة الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقاني والأمير عز الدين أيبك الأفرم في مسنهل شعبان، فوصلوا إلى دُنُقَلَّة^(١) ولقيهم جمع من السودان، واقتتلوا، فانهزم السودان، وقتل منهم جماعة كثيرة، وأسر منهم ما لا يقع عليه الحصر حتى أبيع كل رأس بثلاثة دراهم، ثم تبعوا داود فترك أخته وامه

(١) دنقلة: مدينة كبيرة في بلاد النوبة، وهي منزلة ملك النوبة على ساطئ النيل.

وبنت أخته وهرب، فأخذ حريمه ورجعوا إلى الديار المصرية بعد أن ملكوا
شكندة ورتبوا أمره، وقرروا عليه في كل سنة على كل رأس دينار، ووصلوا
إلى القاهرة وصحبتهم السبي فابيع بمائة ألف درهم وعشرة آلاف درهم.
وقال بيبرس في تاريخه: ولما جرد العسكر من مصر خرجوا في ثامن شوال
ووصلوا إلى الدوّ، فأغاروا على قلعتها ونزلوا جزيرة ميكائيل، وهي رأس
جنادل النوبة، فقتلوا وأسروا وغنموا، وكان بها قمر الدولة آبي صاحب
الجبيل، فأمنوه وقرروه على ولايته، ثم التقوا الملك داود وعساكره، فكسروه
وأسر أخوه وأمه وأخته، وقتلوا من السودان ألوفاً، وهرب داود إلى
الأبواب، وهي فوق بلاده، فالتقاه صاحبها واسمه أدرؤ وقاتله وقتل ولده،
وأكثر من كان معه، وأمسكه وأرسل به إلى السلطان أسيراً، فاعتقل بقلعة
الجبيل إلى أن مات في السجن فيما بعد، ورتب الأمراء شكندة مكان داود
خاله، وقرروا عليه في كل سنة قطيعة يؤدّيها، وهي: ثلاثة أفيلة، وثلاث
زرافات، وخمسة فهود، ومائة أصهب جياذ، وأربعمائة رأس بقر، وأن تكون
البلاد مشاطرة: النصف للسلطان، والنصف لعبارتها وحفظها، وأن تكون بلاد
العلى وبلاد الجبل للسلطان خاصاً لقربها من أسوان، ويحمل ما يتحصل منها
من التمر والقطن مع ما تقرّر من القطيعة والحزبية وهي دينار واحد من كل
واحد من العقلاء البالغين إلى الأبواب الشريفة، واستحلفوه على ذلك الأيمان
التي يحلفها النصارى، وعادت العساكر المنصورة.
وأما شنكو أخو داود فإنه أسلم وحسن إسلامه، ورتب في جملة البحريّة،
وقررت له ولولده جامكيّة، وسمى ولده محمداً، وكان متدينًا، كثير التلاوة في
القرآن الكريم إلى أن توفي، رحمه الله.

عقد السلطان الملك السعيد بن الظاهر على ابنة الأمير سيف الدين قلاوون الألفي؟!!

وفي يوم الخميس الثاني عشر من ذي الحجة من هذه السنة عُقد عقد الملك السعيد على الست غازية خاتون ابنة سيف الدين قلاوون، وكتب القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر الصداق، وهو خمسة آلاف دينار: المعجل منها ألفا دينار، وكان ذلك في الإيوان بحضرة السلطان، فأعطى السلطان محيي الدين المذكور مائة دينار وخلع عليه.

ونسخة الصداق: الحمد لله موفق الآمال لأسعد حركة، مصدق الفال لمن جعل عنده أعظم بركة، ومحقق الإقبال لمن أصبح نسيبه سلطانه، وصهره ملكه، الذي جعل للأولياء من لدنه سلطاناً نصيراً، وميز أقدارهم باصطفاء تأهيله حتى حازوا نعيماً وملكاً كبيراً، وأفرد فخارهم بتقريبه حتى أقاد شمس آمالهم ضياء، وزاد قمرهم نوراً، وشرّف به وصلتهم حتى أصبح فضل الله عليهم بها عظيماً، وإنعامه كبيراً، مهياً أسباب التوفيق العاجلة والآجلة، وجاعل ربوع كل أملاك من الأملاك بالشموس والبدور والأهلة، جامع أطراف الفخار لذوي الإيثار حتى حصلت لهم النعمة الشاملة، وحلت عندهم البركة الكاملة، نحمده على أن أحسن عند الأولياء بالنعمة الاستيداع، وأجل لتأمليهم الاستطلاع، وكمل لاخنيارهم الأجناس من العزّ والأنواع، وآتى آمالهم ما لم تكن في حساب أحسابهم من الابتداء بالتحويل والابتداع، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة حسنة الأوضاع، مليّة بتشريف الألسنة وتكريم الأسماع، ونصلي على سيدنا محمد الذي أعلى الله به الأقدار، وشرف به الموالي والأصهار، وجعل كرمه داراً لهم في كل دار، وفخره على من استطلعه من المهاجرين والأنصار مشرق الأنوار، صلى الله عليه وعليهم، صلاة زاهية الأثمار، يانعة الثمار، وبعد: فلو كان اتصال كل شيء بحسب

المتصل به في تفضيله، لما استصلح البدر شيئاً من المنازل لنزوله، ولا الغيث شيئاً من الرياض طُطوله، ولا الذكر الحكيم لساناً من الألسنة لرتيله، ولا الجواهر الثمين شيئاً من التيجان لخلوله، لكن الشرف بيت يجلُّ به القمر، ونبت يزوره المطر، ولسان ينعوذ ينعوذ بالآيات والسور، ونضار يتجمل بالآلي والدُرر، والترتب على هذه القاعدة إفاضة نور يستمدّه الوجود، وتقدير أمرٍ يقارن سعد الأخية فيه سعد السعد، وإظهار خطبة بقول الثريا لانتظام عقدها كيف، وإبراز وصلة تتجمل بترصيع جواهرها من السيف، الذي يغطه على إبداع هذه الجوهريّة كل سيف، ونسج صهارة تم بها إن شاء الله كل أمر سديد، ويتفق بها كل توفيق يخلق الأيام وهو جديد، ويختار لها أبرك طالع وكيف لا تكون البركة في ذلك الطالع وهو السعيد، ذلك بأن المرحم الشريفة السلطانية أرادت أن تُخصّ المجلس السامي الأميري الكبير السيفي بالإحسان المبتكر، وتفردّه بالمواهب التي يرهف بها الحدّ المنتضى ويعظم الحدّ المنتظر، وأن يرفع من قدره بالصهارة مثل ما رفعه (ﷺ) من أبي بكر وعمر، فخطب إليه أسعد البرية، وأمنع من يحميها السيوف المشرفية، وأعز من يسبل عليها ستور الصون الخفية، وتضرب دونها خدور الجلال الرضية، ويتجمل بنعوتها العقود، وكيف لا وهي الدرّة الألفية، فقال والده وهو الأمير المذكور: هكذا ترفع الأقدار والأوزان، وهكذا يكون قران السعد وسعد القران، وما أسعد أرضاً أصبحت هذه المكارم له خيلة، وأشرف سيفاً غدت منطقه بروج سمائها له حميلة، وما أعظمها معجزة أتت الأولياء من لدنها سلطاناً، وزادتهم مع إيمانهم إيماناً، وما أفرها صهارة يقول التوفيق لابن أمّها ليت، وأشرفها عبودية كرمت سلمانها بأن جعلته من أهل البيت، وإذ قد حصلت الإستخارة في رفع قدر المملوك، وتخصيصه بهذه المزية التي تقاصرت عنها آمال أكابر الملوك، فالأمر للمليك البسيطة في رفع درجات عبده كيف يشاء، والتصدق بما يتفوّه به هذه الأشياء، وهذا مفتاح الكتاب:

الصّداق خمسة آلاف دينار؟!!

سم الله الرحمن الرحيم، هذا كتابٌ مباركٌ تحاسدت رماحُ الخطِّ وأقلامُ الخطِّ على تحريره، وتنافست مطالع النوار ومشارق الأنوار على نظم سُطوره، فأضاء نوره بالجلالة وأشرق، وهطل نوره بالإحسان وأغدق، وتناسبت فيه أجناسُ تجنيس لفظ الفضل، فقال: الاعتراف هذا ما يُصدّق، وقال: العُرفُ هذا ما أصدّق مولانا السلطان الملك السعيد ناصر الدين بركة خان بن مولانا السلطان الملك الظاهر رُكن الدنيا والدين أبي الفتح بيارس الصالحى قسيم أمير المؤمنين الستر الرفيع الخاتوني غازية خانون ابنة المجلس السامي السيفي قلاون الألفي الصالحى، أصدقها ما ملأ خزائن الأحساب فخارا، وشجرة الأنساب ثمارًا، ومشكاة الجلالة أنوارًا، وأضاف إلى ذلك ما لولا أدب الشرع لكان أقاليم ومدائن وأمصارا، فبذل لها من العين المصرى مما هو باسم والده قد تشرّف، وبنعوته قد تعرّف، وبين يدي هباته وصدقاته قد تصرّف وهو مبلغ خمسة آلاف دينار المعجل منها ألفا دينار.

يأمر بشنق ستائة؟!!

ولما انقضى العقد ركب السلطان الملك الظاهر من ساعته ونوجّه إلى الكرك في الثاني عشر من ذي الحجة على الهجن في جماعة لطيفة، على الطريق البدرية، تحت جبل يعرف بنقب الرفاعي، ولما وصلها نظر في أحوالها، وجمع القيمرية الذين بها، فإذا هم ستائة نفر، فأمر بشنقهم، فشفع عنده فيهم، فأطلقهم وأجلاهم إلى الديار المصرية، وكان قد بلغه عنهم أنهم يريدون قتل من فيه ويقيمون ملكًا عليهم، وسلم الحصن إلى الطواشي شمس الدين صواب

السُهَيْلي، فانقضت السنة والسلطان بالكرك، ثم توجه منها إلى دمشق، فوصلها في رابع عشر المحرم من سنة خمس وسبعين وستائة.

☆ ☆ ☆

اقول ... اعظم احداث السنة الرابعة والسبعين بعد الستائة ...
هو هذا المشهد الذي يثير التفكير !!!
« نزل التتار على البيرة في ثلاثين ألفاً من المقاتلة ... بأمر أبغا بن
هلاون ملك التتار ... »
فماذا كان من ببيرس !؟
« وركب سريعاً ... وفي صحبته ولده الملك السعيد ...
« فلما وصل الى القُطَيْفة ...
« بلغه أن التتار سمعوا بحركته ...
« فوهنوا ... ورجعوا عن البيرة !!!
« فسار السلطان إلى حمص ... ثم إلى حلب » !!!
هكذا ... نصرٌ بلا تضحية !!!
وذلك جزاء من يحرص على الموت !!!
لقد رُعب التتار من مجرد قدوم ببيرس ... وقالوا : الفرار الفرار ... إن
ببيرس في الطريق إلينا !!!

آخر انتصارات البطل ...

سَحَقَ التَّار ...

في أرض الروم ...

بأسيا الصغرى ...!؟

في السّنة الخامسة والسّبعين بعد السّتائة .

استهلّت هذه السنة، والخليفة هو: الحاكم بأمر الله العباسي .

والسلطان الملك الظاهر بيبرس رحمه الله في الكرك، وتوجّه منها إلى دمشق، فدخلها في الثالث عشر من المحرم منها، ولما وصلها بلغه وصول الأمراء الروميين المهاجرين إلى أبوابه، فسار من دمشق إلى حلب. ولما حضروا إلى خدمة السلطان أحسن إليهم، وتلقاهم بالقبول، وجهّزهم وحرّمهم إلى الديار المصريّة، وأجرى عليهم الأرزاق .

ثم وصل بعدهم سيف الدين جنّدر بك صاحب الأبلستين^(١)، والأمير مبارز الدين أمير شكار^(٢)، وبلغ السلطان أن التتار وصلوا إلى كوك صو مع^(٣) توفّو وتداؤن، فعاد السلطان إلى الديار المصريّة لمهمات كانت بين يديه منها دخول الملك السعيد ولده بيته .

(١) الأبلستين: مدينة ببلاد الروم قريبة من إفسوس .

(٢) الأمير شكار: شكار لفظ فارسي بمعنى الصيد، والمقصود الأمير الذي يتحدث على الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها وعلى سائر أمور الصيد .

(٣) كوك صو - النهر الأزرق .

عَوْدُ السُّلْطَانِ مِنْ حَلَبٍ إِلَى الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ؟!!

عاد السلطان من حلب بعد مجيء الأمراء المذكورين وهم في خدمته، فوصل إلى مصر ودخلها في ثاني عشر شهر ربيع الآخر من هذه السنة، وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً، وجَهَّزَ حاله وحالَ عساكره وأمرهم بالتأهب والتجهز لما سمع من وصول التتار إلى القرب من أعماله الحلبية.

دخول الملك السَّعيد بن السلطان الظاهر بابنة سيف الدين قلاون؟!!

وفي خامس جمادي الأولى من هذه السنة عمل عُرس الملك السعيد على ابنة قلاون الألفي، واحتفل السلطان به احتفالاً عظيماً، وركب الجيش خمسة أيام في الميدان يلعبون ويتطاردون، ويحمل بعضهم على بعض، وقد لبسوا أكمل العُدَد، ورتب لهم السلطان لعب القبق^(١)، فلعب السلطان بالميدان الأسود^(٢) تحت القلعة، ولبس جوشنا وخوذة، وتقلد تُرْساً، وألبس فرسه العدة الكاملة من البركستوان والوجه والرقبة، وساق تحت القبق، ورماه باليد

(١) القبق: لفظ تركي معناه نبات القرعة العسلية، وقد أطلق في العربية على الهدف الذي كان مستعملاً في ملعب الرماية المعروف باسم القبق أيضاً، وقد وصف المقريري لعب القبق فقال: «والقبق عبارة عن خشبة عالية حدًا تنصب في براح من الأرض ويعمل بأعلاها دائرة من خشب، ونقف الرماة بقسيها وترمي بالسهام جوف الدائرة لكي تمر من داخلها إلى غرض هناك، تمريناً لهم على إحكام الرمي».

(٢) الميدان الأسود: هو الميدان الخاص برمي القبق، خارج القاهرة فيما بين النقرة التي ينزل من قلعة الجبل إليها وبين قبة النصر، ويسمى أيضاً ميدان الصيد، والميدان الأخضر، وميدان السباق، وهو ميدان السلطان الملك الظاهر بيبرس.

اليُسرى فأصابه، وأخطأ غبره باليمنى بغير لُبس، وأنعم على كلِّ من أصاب من الأمراء بفرسٍ بسرجه ولجامه وزيننه من المراوات الفضة، ومن أصاب من المماليك والأجناد خُلع عليه، وبقي هذا المهم ثلاثة أيام متوالية والناس في أفراحٍ وسرور، وشاهد الناس منه ومن ولده الأسد وشبهه ما يجار الناظرون ويدهش المنفرجون، ثم في اليوم الرابع خلع على الأمراء وجميع أكابر الدولة وأرباب المناصب من القضاة والوزراء والكتاب والمقدمين والمنعمين، فكان بلغ ما خلع ألفاً وثلاثمائة خلعة، وراحت مراسيمها إلى الشام بالخلع على أهلها، ومُدَّت في ذلك اليوم سباط عظيم لا يوصف، حضره الشارد والوارد، والخاصُّ والعامُّ، وجلس رسل التتار ورُسل الفرنج والأمراء وجميع أكابر الدولة، وعليهم كلهم الخلع الهائلة، وكان وقتاً مشهوداً، وحمل صاحب حماة هدايا عظيمة، وركب إلى مصر للتهنئة، ودخل الملك السعيدُ بيته، وقدمت له التقادم فقبل منها الفيل، وانقضى الوقت على الوجه الجميل.

مَسِير السُّلْطَانِ إِلَى الشَّامِ لِفِرْزِ التَّتَارِ؟!!

ولما قوي خبر هجوم التتار على البلاد الشامية واشتدَّ عزمهم على ذلك خرج السلطان الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية يوم الخميس العشرين من رمضان من هذه السنة، ومعه العساكر والجنود، وسار معهم، فدخل دمشق في سابع عشر شوال منها، فأقام بها ثلاثة أيام، ثم سار ومعه العساكر حتى دخل حلب مستهل ذي القعدة وأقام بها يوماً، ورسم لنائب حلب أن يقيم بعسكر حلب على الفرات يحفظ المعابر، وسار السلطان، ولما وصل إلى كوكصو وهو النهر الأزرق تحرك تُوَقُّو وتُدَاوُنُ ومن معها من عسكر التتار الذين انتقاهم أبغا واختارهم، فجهَّز السلطان الجاليشَ ومقدمة العساكر صحبة

الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، فوقع على ألف فارس من التتار مقدمهم كراي، فانهزموا بين أيديهم ونيقنوا أن الدائرة عليهم. وقال ابن كثير: وقع سنقر الأشقر في أثناء الطريق بثلاثة آلاف من الغل فهزمهم يوم الخميس تاسع ذي القعدة من هذه السنة.

ملاقاة السلطان مع التتار وانتصاره عليهم؟!!

ثم إن السلطان الملك الظاهر قطع الدربند^(١) في نصف يوم، وصعد مع العسكر الجبال، فأشرفوا على صحراء الأبلستين، فرأوا التتار قد رتبوا عسكرهم، وهم اثنا عشر طلبًا، وعزلوا عنهم عسكر الروم خوفًا من مخامرتهم، وكانوا في طلب واحد وحدهم، فلما تراءت الجمعان ورأى بعضهم بعضًا بالعيان حملت ميسرة التتار، فصدمت سناجق السلطان، ودخلت طائفة منهم، فشقَّوها، وسأقت إلى الميمنة، فلما رأى السلطان ذلك أردف المسلمين بنفسه ومن معه، ثم لاحت منه التفاتة، فرأى الميسرة قد كادت أن تتحطم، فأمر جماعة من الأمراء بإردافها، وقاتلت التتار مع المسلمين قتالًا شديدًا، وصبر المسلمون صبرًا عظيمًا، فأنزل الله نصره على المسلمين وبأسه على الملحدين، فأحاطت بهم العساكر من كل جانب، وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وقتل من المسلمين أيضًا جماعة.

(١) الدرند: المنافذ والممرات الجبلية في جوب شرق آسيا الصغرى، بينها وبين بلاد الشام، وهي غير الدرند أو ناب الأنواب على بحر طرستان

الأمراء الشهداء!؟

وكان ممن قتل من سادات الأمراء الأمير الكبير ضياء الدين بن الخطير، وسيف الدين قزان العلائي، وسيف الدين قَبْجَق الجاشنكير، وعزّ الدين أيبك الشقيني، وأسير جماعة من أمراء المغول ومن أمراء الروم جماعة أيضًا، فمن المغول أسير زيرك وهو صهر أبغا، وصرطق وهو من أقاربه، وجودته، وبرد كيه، وتمّاديه، ومن الروميين علاء الدين بَكَلَارْبِكِي بن البرواناه حاكم الروم، وابن أخته وهو ولد خواجا يونس، ونور الدين بن جاجا. وسراج الدين أخوه، وقطب الدين أخو الأتابك، وسيف الدين سنقرجاه السيواسي، ونُصْرَةُ الدين صاحب سيواس، وكهال الدين عارض الجيش بالروم، وحسام الدين كياوك قرابة البرواناه، وسيف الدين بن علي شير التركماني، وحضر في الإحسان سيف الدين جاليش أمير دار وهو أمير العدل والمظالم، وميكائيل صاحب سنوب، وظهير الدين مُتَوَج مشرف الممالك، ونظام الدين أُوحد بن شرف الدين بن الخطير وإخوته، وقاضي قضاة الروم حسام الدين الحنفي، ومظفر الدين جحاف، وأولاد ضياء الدين بن الخطير، وسيف الدين كجكنا الجاشنكير. ونور الدين المنجنيقي، وأولاد رشيد الدين صاحب ملطية كهال الدين وإخوته، وأمير علي صاحب كركر، فما منهم إلا من أحسن السلطان إليه وأفاض إنعامه عليه.

وأما تُوُقُو وتُدَاوُن فإنها قتلا في المعركة، وأما البرواناه فإنه كان مع جماعته وعسكر الروم في طلب واحد وحده منفردًا عن أطلاب التتار، ولما رأى انهزام التتار بادر بالهروب هو وأصحابه وولّوا الأدبار، وأخذ البرواناه معه السلطان غياث الدين وفخر الدين الوزير ومن كان بقيسارية وتوجّه بهم إلى تُوُقَات، وكانت إقطاعًا له.

وقال بيبرس في تاريخه: وفي هذه الواقعة أخذ سيف الدين قلاون الألفي:

سيف الدين جاورشي، وسيف الدين قفجاق، واشترى سيف الدين سلاّر، لولده علاء الدين علي الملقب عند سلطنته بالملك الصالح، فكان ذلك في طالع طلعة سعوده وغربت نحوسه، فإن المشار إليه ترقت به السعادة إلى ما سنذكره في موضعه إن شاء الله واسم أبيه طغرل، وكان البرواناه قد قرّبه وأدناه وصيّره أمير شكار.

دخول السلطان قيساريّة وجُلوسه على كرسيّ المملكة الروميّة؟!!

تم إن السلطان الملك الظاهر رحل من مكان المعركة يوم السبت حادي عشر الشهر ونزل قريب الكهف والرقيم، وعبر على خان قرطاي، وهو خان مبني بالحجر الأحمر، وله مغلّات متسعة ودواوين متفرقة ومجتمعة، ونزل بالقرب من عسيب^(١).

ولما وصل إلى وطاق كيخسرو خرج أهل قيسارية كافة لتلقّيه، وكان دهليز السلطان غياث الدين مضروبًا هناك، فنزله.

وأقام على قيسارية سبعة أيام ينتظر حضور البرواناه إليه ليقرر معه قاعدة ينتظم بها مصالح الإسلام بتلك البلاد، وتجري بها أمورهم على السداد، وأرسل إليه مملوكًا له، كان قد حصل في الأسر مع ولده، وكتب إليه كتابًا على يده يحثه على الحضور، ويوضح له ما يترتب على حضوره من مصالح أمر الجمهور، فأبى إلا النفار لما جرت به من دُنُوّ أجله الأقدار، فلما أيس السلطان من أمره رحل عن قيساريّة عائداً، ورتب فيها سيف الدين جاليش

(١) عسيب: نفتح أوله وكسر ثابيه، وواضح من النص أنها ناسيا الصغرى.

نائبًا، وكتب إلى أولاد قرمان يُحَرِّضُهُمْ عَلَى الْحَضُورِ، وَرَكِبَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ سَابِعَ عَشَرَ ذِي الْقَعْدَةِ وَعَلَى رَأْسِهِ الْجُبْتُرُ، وَشَاهَدَ النَّاسَ مِنْهُ صَاحِبَ الْقُبَّةِ وَالسَّبْعِ، وَخَطَبَ لَهُ فِي جَوَامِعِ قَيْسَارِيَّةٍ وَهِيَ سَبْعَةٌ، وَقِيلَ فِي ذَلِكَ أَيْبَاتُ:

وَمَا كَانَ هَذَا التَّخْتُ مِنْ حِينَ نَصَبَهُ لَغَيْرِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ البَدْرِ وَيَصْلُحُ
مَلِكًا عَلَى اسْمِ اللَّهِ مَا فَتَحَتْ لَهُ صَوَارِمُهُ الْبَيْضُ الْمَوَاضِي وَيَفْتَحُ
أَتْتَهُ وَفُودُ الرُّومِ وَالْكَلُّ قَائِلٌ رَأَيْتَكَ تَعْمُو عَنْ كَثِيرٍ وَتَصْنَفُحُ
فَأَوْسَعَهُمْ حِلْمًا؛ وَأَوْلَاهُمْ نَدَى فَأَمَسُوا عَلَى أَمْنٍ وَمَنْ وَأَصْبَحُوا
وَقَالَ الْأَمِيرُ نَاصِرُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَلِيِّ مِنْ أَيْبَاتٍ فِي وَقْعَةِ أُبُلُسْتَيْنِ:

عَزَمْنَا عَلَى اسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَبُّنَا نِزْوَمُ الْعَدَى قَسْرًا بِكُلِّ مَضْمَرٍ
نِزْوَمُ بَنِي قَاقَانَ جَعْمًا لِأَنَّهُمْ بَعُورًا وَطَفَعُوا عَنْ قَسْوَةِ وَتَجَبَّرِ
لَنَا فِيهِمُ التَّارَاتُ تَارَاتُ مَنْ مَضَى جُدُودًا لَنَا فَاقُوا بِأَطْيَبِ عَنَصَرِ
وَنَحْنُ جَلَبْنَا الْخَيْلَ فِي كُلِّ غَارَةٍ إِلَى مُغْلَهَا وَالرُّومَ فَاسْأَلْ تُخْبِرِ
مَعَ الْفَارِسِ الْكِرَارِ فِي حَوْمَةِ الْوَعَا أَيُّ الْفَتْحِ بَيْرَسِ الْهَمَامِ الْغَضَنْفَرِ
عَلَيْهِ سَلَامُ اللَّهِ مِنِّي تَحْيَاةً إِلَى أَنْ أَلَاقِيَ اللَّهَ فِي يَوْمِ مَحْشَرِ

نَزُولُ السُّلْطَانِ بِمَرْجِ حَارِمٍ!؟

لَمَّا رَحَلَ السُّلْطَانُ مِنْ قَيْسَارِيَّةٍ فِي التَّارِيخِ الْمَذْكُورِ آنفًا نَزَلَ فِي صَحْرَاءِ قَرَاچَا قَرِيبَ بَازَارِيكُو^(١)، ثُمَّ رَحَلَ مِنْهَا إِلَى أَنْ انْتَهَى إِلَى مَرْجِ حَارِمٍ وَصَحْبَتِهِ عِلَاءُ الدِّينِ عَلِيِّ بْنِ الْبَرْوَانَاهُ، وَمَنْ أَخَذَ مِنَ الرُّومِ أُسِيرًا، وَمَنْ جَاءَ بِالطَّاعَةِ مُسْتَجِيرًا.

(١) « وهذا البازار هو الذي كانت الخلائق تجتمع إليه من أقطار الأرض، ويباع فيه كل شيء يجلب من الأقاليم. »

وأقام السلطان على مَرَج حارم شهراً، وقد رَبَّعَتْ خِيُولُ العساكر في المروج وأخذت الأعيُن حَقها من منظرها البهيج، واستراحت العساكر هناك وهم آمِنون سالمون وعلى أعدائهم منصورون مؤيَّدون.

مَجِيء أَبغا إلى موضع المعركة!؟

ولما بلغ خبر هذه الوقعة إلى أنغا بن هلاون ملك التتار، وتحقق عنده ما حلَّ بعسكره من الكسرة، نهض وجاء حتى شاهد بنفسه مكان المعركة ومَنْ فيها من قتلى المغول، فأعظم ذلك وحنق على البرواناه، إذ لم يعلمه بجليَّة الحال، وأضمِر ذلك في نفسه، ثم جاء إليه البرواناه وتلقاه، وسار في خدمته، واتفق في ذلك الوقت أن أيبك الشيخ قفز من عسكر السلطان وتوجَّه إلى أبغا، لأن السلطان كان قد ضربه، فوجد في نفسه من ذلك، وحضر عنده، وأطلعه على أمر البرواناه، وأنه كان الباعث للملك الظاهر على الحضور إلى بلاد الروم بتكرار كنبه وتواتر رسله، فازداد غيظ أبغا عليه ولا سيَّما لما شاهد قتلى المغول الأكاير، وأن القتلى جميعاً من عسكر التتار وليس فيهم أحد من الروميين، وتحقق عنده مخامرة البرواناه وتخاذل عسكر الروم، فعند ذلك أمر بتهب بلاد الروم من قيسارية إلى أرزنجان، وقتل المسلمين الذين بها، ففرقت عساكره تنهب وتقتل، وقتلوا من المسلمين خلقاً لا يُحصون كثرة، وكان من جملة من قتل القاضي جلال الدين بن الحبيب، ولم يتعرضوا إلى نصارى البلاد، وامتدت غاراتهم مسافة سبعة أيام.

ووكل أبغا بالبرواناه من حيث لم يظهر ذلك له، واستصحب معه السلطان غياث الدين، والصاحب بن خواجا علي، ورجع، فلما عبر على قلعة كغويته أمر أبغا البرواناه أن يسلمها إلى نوابه، فنادى البرواناه نائبه الذي بها ليُسلمها

إلى أبغاء، فأبى وامتنع بها، فرحل أبغا وسار إلى أرزنجان فاشراها له ملكًا واعتدَّ بثمانها عن الإتاوة المقررة له على بلاد الروم، وسار إلى قلعة كَمَاخ فأمر البرواناه أن يخرجوا إلى خدمة أبغا، فأبوا وقالوا: نحن نحت طاعة القان إذا رحل عنا خرجنا، فإننا نخاف سطوته؛ فطلع إليها الصاحب شمس الدين الجويني وأعرض حواصلها، وحمل ما بها من القماش والمال لأبغا، وساق إليه ما كان فيها من الخيل.

ثم سار إلى قلعة بَابَرْت، فخرج إليه شيخ منها وقال: أريد من القان الأمان لأتكلّم بين يديه كلمتين فقال: قل ولك الأمان. قال: يا ملك البسيطة عدوك حضر إلى بلادك وما نعرض للرعيّة ولا أسأل لهم محجمة دم، وأنت قصدت العدوّ وجئت في طلبه، فلما فاتك أنّخت على رعيتك، فقنلتهم ونهبت بلادهم وخرّبتها، فمن هو من الخانات الذين تقدّموا من أسلافك سنّ هذه السنّة واعتمد هذه الياساق، فاغتاظ أبغا لذلك وعطف على الأمراء الذين أشاروا عليه بنهب البلاد، فأهانهم، وأطلق كلّ من كان قد أخذ أسيرًا، فكانت عدّتهم أربعمائة ألف نفر، وسار إلى الأردو، وقتل البرواناه.

مقتل البرواناه؟!!

واسمه سليمان بن عليّ بن محمد بن حسن، ولقبه علاء الدين البرواناه، ومعناه الحاجب بالعجمي.

وكان رجلًا شجاعًا، حازمًا، كريمًا، جوادًا، عارفًا بتدبير المملكة، ذا مكر ودهاء.

وذكر في بعض التواريخ: أن أصله من الديلم، وأن أباه كان يلقب بمهذب الدين، وكان رجلًا جميلًا وسيمًا من طلبة العلم، وكان حضر إلى سعد الدين

المستوفي بالروم في أيام السلطان علاء الدين كيقباز، فسأله أن يجري عليه شيئاً من بعض المدارس ليقنات به فبكون درهماً كل يوم، فمال إليه المستوفي لما رأى من حسن سَمْنِه وسميته فقال له: أريد أن أصيرك مني مكان الولد وأجودُ لك بما أجد، ثم قرّنه وأدناه وأحبّه، وزوّجه ابنته، واتفق وفاة المستوفي بعد ذلك، فوصفَ مهذبَ الدين للسلطان علاء الدين كيقباز بالفضيلة والمعرفة والكفاية والأهلية للمناصب، فرشحه لوزارته وألقى إليه مقاليد دولته، فرزق مهذبَ الدين معين الدين سليمان الملقب بالبرواناه، ثم آل أمرُ البرواناه إلى أن هلاون لما أخذ بلاد الروم قال للسلطان ركن الدين: من الآن يصلح للتردد في الأشغال؟ قال: ما يصلح أحد لذلك سوى البرواناه، ففرقت منزلته من ذلك اليوم حتى صار فيما بعد حاكماً على ممالك الروم إلى أن جرى عليه ما نذكره الآن من أبغا ملك التتار.

وهو أن أبغا لما توجه من الروم إلى الأردو، وأخذ معه البرواناه كما ذكرناه، استشار الأمراء في أمره، فقوم أشاروا عليه بقتله، وقوم أشاروا بإبقائه وإعادةه إلى البلاد ليحفظ نظامها ويحمل خراجها، فترجح عنده إبقاؤه فأطلقه من التوكيل على أنه يعود، فسمع نساء أمراء المغول الذين قتلوا في المعركة كزوجة تُوقو وتداون وغيرهما أن أبغا رسم بإطلاقهما لبرواناه، فاجتمعن جميعاً عصر النهار، وأقمن مأتماً وصحن ونحن، فسمع أبغا ضجيجهن فقال: ما هذا؟ فقيل له: إن الخواتين سمعن بأن أبغا قد خلى سبيلَ البرواناه وأطلق سراحه ليعود إلى الروم سالماً، فبكين وأعولن على أزواجهن، فأمر أبغا لأمر من الأمراء الذين يُشتون ببلاد سيس اسمه كوكجا بهادر أن يأخذ معه مائتي فارس ويسير بالبرواناه إلى موضع عينه له فيقتله، فاستدعى كوكجا بهادر البرواناه وقال له: إن أبغا يريد يركب ورسم لك أن تركب أنت وأصحابك معه، فركب هو ومعه اثنان وثلاثون نفساً من مماليكه والزامه، فتوجه معه، فأخذ به نحو البر، فعلم أن ذلك الأمر لا خير

له فيه، فأحاط به وبأصحابه التتار كما يحيط بالزند السوار، وكتّفوا أصحابه، فسأل أن يمهلوه ربّثما يتوضأ ويصلي، فأمهلوه، فلما فرغ من صلاته قتلوه ومن معه.

وكان أبغا نازلاً بمقام الأطاغ، ولما سمع ممالك البرواناه نقتله وهم: علم الدين سنجر البروّائي، وبدر الدين بكتوت أمير آخور، فاجتمعوا ومن معهم من كبارهم في مخيمهم وأوتّروا قسيهم، ونكّثوا نشابهم بين أيديهم وقالوا: ما نموت إلا مقاتلين، فاضطر الذين نذبوا إلى قتلهم إلى أن شاوروا أبغا، فلما شاوروه على ذلك استحسّن هذا الأمر منهم، وقال: هؤلاء ممالك نافعون، فخلّوا عنهم، فأطلقوا سبيّهم وأعطوا دستوراً إلى بلادهم. وكان مقتل البرواناه في آخر ذي الحجة من سنة خمس وسبعين وستائة.

رحيل السلطان الملك الظاهر إلى ناحية دمشق؟!

قد ذكرنا أن السلطان قد أقام في مرج حارم شهراً لإراحة عساكره وتربيع خيولهم، ثم رحل عند انقضاء هذه السنة، أعني سنة خمس وسبعين وستائة إلى دمشق، ودخلها في خامس المحرم من سنة ست وسبعين وستائة.

★ ★ ★

اقول... ازروع ما في السنة الخامسة والسبعين بعد الستائة... بالنسبة
الى حياة الملك الظاهر بيبرس...
أنها سنة بلوغ القمة... واكتمال الهمة...
ومن حيث أن السلطان بلغ فيها أقصى فتوحاته... فبلغ قيسارية

ببلاد الروم... بآسيا الصغرى...
فإن معنى هذا أن السلطان أوشك أن يموت... فإن الشيء إذا بلغ
تمامه كان هذا نذيراً بزواله!!!
وهذا ما حدث فعلاً... فما استهلّت السنة القادمة... حتى نزل
الموت بالسلطان!!!
إن بيبرس في هذا العام... تضحك له الحياة في الداخل والخارج...
أمّا في الداخل... فكان حفل زفاف ابنه الملك السعيد... الى ابنة
سيف الدين قلاون...
« واحتفل السلطان به احتفالاً عظيماً...
« وركب الجيش خمسة أيام في الميدان يلعبون ويتطاردون...
« ومُدَّ سباط عظيم لا يوصف... حضره الشارد والوارد... والخاص
والعام...
« وانقضى الوقت على الوجه الجميل... »
الحياة إذا تضحك لبيبرس...
أفراح هنا وأفراح هناك...
هذا في الداخل... فماذا في الخارج؟!
نصرٌ ساحقٌ على التتار...
أين؟!... فيما وراء حلب... حيث اجتازت جيوشه النهر الأزرق
في آسيا الصغرى...
ثم انقضَّ على جموع التتار... فأوقع بهم هزيمة... أشد من هزيمة
عين جالوت!!!
وفي صحراء الأبلستين التقى بيبرس بنفسه مع جيوش التتار...
واستصرخ بيبرس حقيقته... حقيقة الأسد الغاضب إذا هوجم...
وانقض بنفسه ومن معه يُحطَّم جموع التتار...

وكان النصر ... وقُتِل من التتار خَلَقَ كَثيرٌ !!!
وقُتِل من المسلمين جماعة !!!
لم تكن المعركة سهلة ... وإنما كانت التحامًا شديدًا بين قوات التتار
وقوات المسلمين ...
وانتصر بيبرس ... وخرج أهل قيسارية كافة لتلقّيه !!!
وخطب له في جوامع قيسارية وهي سبعة !!!
لقد بلغ الملك الظاهر أقصى الأفراح بالداخل !!!
وها هو يبلغ أقصى الفرح بالنصر في الخارج !!!
وهذا إيذان بقرب الرحيل !!!

وفاة السلطان بيبرس ...

في السابع والعشرين من المحرم ...

سنة ست وسبعين وستائة...!!؟

في السنة السادسة والسبعين بعد الستائة .

استهلت هذه السنة، والخليفة هو: الحاكم بأمر الله .

والسلطان الملك الظاهر قد دخل دمشق بعد رجوعه من بلاد الروم وكسره التتار على الأبلستين، وإقامته بعد ذلك على مرج حارم شهراً كما ذكرنا، في اليوم الخامس من محرم هذه السنة، فنزل بالقصر الأبلق الذي بناه غربي دمشق بين الميادين الخضراء، وتواترت الأخبار بأن أبقابن هلاون قد عزم على قصد بلاد الشام، فأمر عند ذلك بجمع الأمراء وضرب الدهليز منشوراً، ثم جاء الخبر بأن أبقاباً عاد إلى بلاده، فرسم بردة الدهليز، وأقام في القصر الأبلق يجتمع عنده الأمراء، والدولة في أسير حال، معتقداً أن الدنيا قد حصلت في يده، والأقدار تخدمه في بلوغ مقصده، وإذا بالعافية قد شمّرت الذيل، والصيحة قد انجابت كما ينجاب ضوء النهار من سُدفة الليل، وأمر الله قد أدركه فلم تغن الحيلة ولا الخيل .

وفاة السلطان الملك الظاهر أبو الفتح الأسد الضاري رُكن الدين بيارس البندقداري الصالحي النجمي؟!!

نغمده الله برحمته، وأسكنه فسيح جنته، والكلام فيه على أنواع:

الأول في ترجمته: هو بيارس بن عبد الله، قفجاقِيّ الجنس، وقيل هو من بَرُجْ أُغْلَى قبيلة من الترك، حضر هو ومملوك آخر مع ناجر إلى مدينة حماة، فاستحضرهما الملك المنصور محمد صاحب حماة يشتريهما فلم يُعجبه أحد منهما، وكان أيديكين البندقداري الصالحي مملوك الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل صاحب مصر قد غضب عليه الصالح المذكور، وكان قد توجه أيديكين المذكور إلى جهة حماة، فأرسل الملك الصالح من يقبض عليه واعتقله بقلعة حماة، فتركه المنصور صاحب حماة في جامع قلعة حماة، واتفق ذلك عند حضور الملك الظاهر صحبة التاجر، فلما قلبه المنصور صاحب حماة فلم يشتريه أرسل أيديكين البندقدار وهو معتقل، فاشتراه ليخدمه، وبقي عنده، ثم أفرج الملك الصالح عن أيديكين البندقدار، فسار من حماة وصحبته الملك الظاهر، وبقي مع أستاذه المذكور مدة، ثم أخذه الملك الصالح نجم الدين أيوب من أيديكين المذكور، فانتسب الملك الظاهر إلى الملك الصالح دون أستاذه، وكان يُخطبُ له، ويُنقش على الدينار والدرهم بيارس الصالحي.

الثاني في صفته: كان الملك الظاهر أسمر، أزرق العينين، جهوريّ الصوت، عليه مهابة وجلالة، وكان إلى الطول أقرب.

الثالث في سيرته: كان شهماً، شجاعاً، سخياً، عالي الهمة، بعيد الغور، مقداماً، جسوراً، مُعْتَنِيّاً بأمر السلطنة، متحليّاً بها، له قصد صالح في نصره الإسلام وأهله، وإقامة شعائر الملك.

وفي تاريخ النويري: وكان ملكاً جليلاً، شجاعاً، مهيباً، حسن السياسة، كثير التحيّل، وكان عسوقاً جبّاراً، كثير المصادرات للرعية والدواوين

خصوصاً لأهل دمشق، وكان مُتنبِّهاً، شهماً، لا يفتر ليلاً ولا نهاراً عن مناجزة الأعداء ونصرة الإسلام، وكان مقتصداً في ملبسه ومطعمه، وكذلك جيشه.

وقد جمع له كاتبه محبي الدين بن عبد الظاهر سيرة مطوّلة^(١)، وكذلك اسن شداد أيضاً^(٢)، وهو الذي أنشأ الدولة العباسية بعد بقاء الناس بلا خليفة نحواً من ثلاث سنين، وهو الذي حدّد من كل مذهب قاضي قضاة مستقلاً من غير مشاركة.

الرابع في فتوحاته: فتح في أيامه فنوحات كثيرة وهي: قبسارية التي على الساحل، وأرسوف، ويافا، والشقيف، وأنطاكية، ونُغراس، وطبرية، والقصير، وحصن الأكراد، وحصن عكّار، وحصن عكا، والقريّن، وصافيتا، وغير ذلك من الحصون المنيعة التي بأيدي الفرنج، ولم يُبق مع الإسماعيلية شيئاً من الحصون، وناصفَ الفرنج على: المرقب، وبلنياس، وبلاد انطرسوس، وسائر ما بقي بأيديهم من البلاد والحصون، وأخذ قيسارية الروم على ما ذكرنا، وخطب له فيها، واستعاد من صاحب سيس بلاداً كثيرة، واستردّ أيضاً من المتغلبين من المسلمين: بعلبك، وبُصرى، وصرخد، وعجلون، وحمص، والصلت، وتدمر، والرحبة، وتلّ باشر، والكرك، والشوبك، وأخذ بلاداً كثيرة من التتار منها: البيرة، وغيرها، وفتح بلاد النوبة بكاملها، واتسعت مملكته من الفُرات إلى أقصى بلاد النوبة.

وقال النويري: وأول فتوحاته قيسارية الشام بالسواحل، وآخر فتوحاته قيسارية الروم، وأما عدّة فتوحاته فكانت تزيد على أربعين حصناً، وكان بيده بمصر والشام ستة وأربعون قلعةً.

الخامس في عمّائه: قال ابن كثير: وعمر شيئاً كثيراً من الحصون،

(١) هي «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر».

(٢) هي «الملك الظاهر بيبرس».

والمعاقل، والجسور، والقناطر على الأنهار في بلاد الشام ومصر، وبني بقلعة الجبل دار الذهب، وبني قبة على إثني عشر عمودًا ملونة مُذهبة، وصوّر فيها صُورَ خاصكيته وأشكالهم، وحفر أنهارًا كبارًا وخلجانات ببلاد مصر منها: بحر السردوس، وبني جوامع كثيرة ومشاهد عديدة، وجدّد مسجد رسول الله (ﷺ) حين أحرق، ووضع الدرايزينات حول الحجر الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وعمل فيه منبرًا وسقفه بالذهب، وجدّد المدارس بالمدينة، وجدّد قبر الخليل عليه السلام، وزاد في رواتبه وما يصرف إلى المقيمين، وبني على المكان المنسوب إلى قبر موسى عليه السلام قبةً قبليّ أريحا، وجدّد بالقدس أشياء حسنة من ذلك قبة السلسلة، ورسم شعث الصخرة وغيرها، وبني خانا هائلًا بالقدس ونقل إليه باب قصر الخلفاء الفاطميين من مصر، وعمل فيه طاحونًا وفرنا وبستانًا، وجعل للواردين أشياء تصرف إليهم نفقة وإصلاح الأمتعة، وبني على قبر أبي عبيدة رضي الله عنه بالقرب من عمّتنا مشهدًا وأوقف عليه شيئًا للواردين، وجدّد جسر فامية، وجدّد عمارة جعفر الطيار رضي الله عنه بالكرك، وأوقف على الزائرين شيئًا كثيرًا، وجدّد قلعة صفد وجامعها، وجدّد جامع الرملة وغيرها في كثير من البلاد التي كانت الفرنج قد عدت عليها، وبني بحلب دارًا هائلة، وبدمشق: القصر الأبلق، والمدرسة الظاهرية قبالة العادلية، وبني بالقاهرة أيضًا: المدرسة الظاهرية، وبني جامعًا هائلًا بالحسينية، وله من الآثار والأماكن ما لم يُبْنِ في زمن الخلفاء وبني أيوب.

السادس في وفاته: وتمرض السلطان أيامًا حتى كانت وفاته يوم الخميس بعد صلاة الظهر السابع والعشرين من المحرم بالقصر الأبلق، فكان ذلك يومًا عظيمًا على الأمراء.

وقال بيبرس في تاريخه: توفي في اليوم المذكور وقت الزوال، وحضر نائب السلطنة عز الدين أيّدمر وكبار الأمراء والدولة، فصلوا عليه سرًّا، وجعلوه في

تابوت، ورفعوه إلى القلعة في بيت من بيوت البحرية إلى أن نقل إلى تربته تجاه العادلية الكبيرة ليلة الجمعة خامس رجب من هذه السنة، وكم موته فلم يعلم جمهور الناس به حتى كان العشر الأخير من ربيع الأول، وجاءت البيعة للملك السعيد من مصر، فحزن الناس عليه وترحوا، وكان يوماً شديداً على الناس، وجددت البيعة، وجاء تقليد النيابة مجدداً لعز الدين أيدير.

وقال بيبرس: فكتم الأمير بدر الدين بيلبك الخزندار نائبه موته عن العساكر، وأظهر أنه مستمر المرض، ورتب حضور الأطباء وعمل الأدوية والأشربة على العادة، وحمل جسده إلى قلعة دمشق، فبقي فيها مصبراً إلى أن بنيت له التربة المذكورة، ثم إن الأمير بدر الدين الخزندار رحل بالعساكر المنصورة والخزائن مصونة موفورة، والأطلاب مرتبة منتظمة والمحقة محمولة في الموكب محترمة كأن السلطان فيها مريض ولا يجسر أحد يتفوه بموته، إلا أن الظنون ترجمت، والأفكار في أمره تقسمت، وغلب الناس أمر وفاته على مرضه وحياته، ولم تزل الحال مرتبة في النزول والترحال إلى أن وصلوا إلى القاهرة المحروسة، وحصلت الخزائن، والبيوتات والخيول والاسطبلات في قلعة الجبل فأشيع مماته، وأظهرت للناس وفاته، واستقر ولده الملك السعيد مكانه.

وقال المؤيد في تاريخه: وفي سنة ست وسبعين يوم الخميس السابع والعشرين من المحرم توفي السلطان الملك الظاهر بيبرس الصالحي بدمشق، وقت الزوال، عقيب وصوله من جهة بلاد الروم إلى دمشق، وقد ذكرنا أنه دخل دمشق في اليوم الخامس من محرم هذه السنة، ومات في السابع والعشرين منه، فتكون مدة إقامته بدمشق من بعد دخوله ثلاثة وعشرين يوماً.

السابع في مدة سلطنته: قال النويري: وكانت مدة الملك الظاهر نحو سبع عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام لأنه ملك في سبع عشر ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستائة، وتوفي السابع والعشرين من محرم سنة ست وسبعين وستائة، وكذا قال المؤيد في تاريخه.

النَّامِنُ فِي أَوْلَادِهِ وَمَا رُثِي بِهِ : قَالَ النُّوَيْرِيُّ : وَخَلَّفَ مِنَ الْأَوْلَادِ : الْمَلِكُ
السَّعِيدُ نَاصِرُ الدِّينِ بَرَكَةُ خَانَ ، وَنَجْمُ الدِّينِ أَمِيرُ خَضِرٍ ، وَبَدْرُ الدِّينِ
سَلَامُشُ ، وَثَلَاثُ بَنَاتٍ .

وَقَالَ غَيْرُهُ : خَلَفَ مِنَ الْأَوْلَادِ عَشْرَةً ، ثَلَاثَةٌ ذَكَورٌ وَهُمْ الْمَذْكُورُونَ وَسَبْعُ
بَنَاتٍ .

وَمَا رُثِي بِهِ مَا قَالَهُ مُحْيِي الدِّينِ بِنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ يَرُثِي بِهِ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ :
أَبَدًا عَلَيْكَ نَحْيَةً وَسَلَامٌ يَا قَبْرَ مَنْ فُجِعَتْ بِهِ الْإِسْلَامُ
يَا تُرْبَةً لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنَ الْحَبَا أَمْسَى سَجَالُ الدَّمْعِ فِيكَ سَجَامٌ
يَا دَمْعَ عَيْنِي مِثْلَ دَمْعِ سَحَابَةٍ هِيَهَاتَ بَيْنَ الدَّمْعَتَيْنِ زِحَامٌ
فَسَبَقْتَ كُلَّ سَحَابَةٍ هَطَّالَةٍ يَثْنِي عَلَيْهَا مَنْدَلٌ وَبَسَامٌ
نَهَلُ مِنْكَ نَوَالٌ سَاكِنُكَ الَّذِي مِنْ كَفِّهِ فَوْقَ السَّمَاحِ يُسَامُ
الظَّاهِرُ السُّلْطَانُ مِنْ بِمَصَابِهِ هُدًى الْهُدَى وَتَضَعُضِعُ الْإِسْلَامُ
وَعَدَّتْ دِمَشْقُ بِقَبْرِهِ وَحُلُولِهِ فِيهَا تَتِيهُ عَلَى الْوُجُودِ شَامُ

قَبْرٌ بِهِ تَتَضَاعَفُ الْأَقْسَامُ مِنْ بَرَكَاتِهِ وَتُؤَكَّدُ الْأَقْسَامُ
قَبْرٌ بِهِ تَتَوَسَّلُ الْأَمَالُ فِي حَاجَاتِهَا وَتُصَرَّفُ الْأَحْكَامُ
قَبْرُ الَّذِي لَوْ أَنْصَفْتَهُ قَلْبُونَا مَا أَصْبَحَتْ لِمَسْرَةٍ تَسْتَامُ
قَبْرُ الَّذِي قَلَعَ الْقِلَاعَ سَكَّانُهَا وَلَهُ الْحِصُونُ خِيَامُ
قَبْرُ الَّذِي قَهَرَ التَّتَارَ فَأَصْبَحُوا وَلَهُمْ إِذَا نَاحَ الْحَمَامُ حِمَامُ

وَقَالَ بَيْرَسٌ : قَالَ الْقَاضِي مُحْيِي الدِّينِ بِنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ يَرِثِيهِ أَيْبَاتًا أَوْلَهَا :
مَا مِثْلُ هَذَا الرُّزْءِ قَلْبٌ يَحْمِلُ كَلَا وَلَا صَبْرٌ حِمْلٌ يَجْمَلُ
اللَّهُ أَكْبَرُ إِنَّهَا لِمُصِيبَةٌ مِنْهَا الرُّوَاسِي خَيْفَةٌ تَتَقَلَّبُ
مَا لِلرَّمَاحِ تَخَوَّلَتْهَا رِعْدَةٌ أَلْتَرَكُهَا أَنْ لَيْسَ تَعْقِلُ تَعْقِلُ
لَهْفِي عَلَى الْمَلِكِ الَّذِي كَانَتْ بِهِ الدُّنْيَا تَطْيِبُ وَكُلُّ قَفْرِ مَنْزِلُ

الظاهر السلطان مَنْ كانت له
لهفي على آرائه تلك التي
لهفي على تلك العزائم كيف قد
سهم أصاب وما رُئي من قبلة
أنا إن يكيتُ فإن عذري واضحٌ
خلفَ السعيدَ لنا الشهيدُ

مِنَّنْ على كسلِّ الوري وتطوُّلُ
مثل السهام إلى المصالح نُرسَلُ
غفلت وكانت قبل ذا لا نغفلُ
سهم له في كل قلبٍ مقتلُ
ولئن صبرتُ فإني أتمثلُ
فأدمعُ مُنهلةً في أوجه تهللُ

شخصية ...

السلطان الملك الظاهر ...

بيبرس ...؟!

مَمْلُوكٌ؟!!

خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ أحراراً...
فإذا حدثت ظروف قاهرة... اضطرت انساناً ما أن يكون عبداً...
لإنسان مثله...

كان معنى هذا أن الفطرة الإلهية قد مُسِخت...
وأنَّ تركيب هذا الآدمي الذي ابتلي بالرِّق قد انقلب...
لأنَّ فطرة الله التي فطر الناس عليها ان يكونوا أحراراً...
فإذا مُسِخت هذه الفطرة باستعباد آدميٍّ لآدمي...
كان هذا تحطيماً لكيان المسترق... وإزالة لآدميته...
وهذا ما ابتلي به بيبرس حين كان صغيراً... قالوا:
« هو من بَرَجِ أَغْلِي... قبيلة من الترك... »
« حضر هو ومملوك آخر مع تاجر الى مدينة حماة... »!!!
طفل صغير... معروض للبيع!!!
هكذا بلغت الخسة بأولئك النخاسين الذي يحترفون بيع العبيد
والجوارى!!!
ماذا كانت مشاعر ذلك الصغير وهو يُعرض للبيع... هو وغلّام آخر...
ولا أحد يرغب في شرائه!!!

إنَّ الرِّقَّ جريمة كبرى من جرائم البشرية...!!!
 مَنْ أعطى هؤلاء المجرمين... تجار الرقيق... الحقَّ في بيع العبيد والجواري
 كيف شاءوا؟!
 ربما كان هذا البيرس ابن أحد الأعيان... أو ابن أحد أمراء الترك...
 واختطفوه مع المختطفين التعساء!!!
 لقد كان الطفل المسكين يتألم ويتلوى حُزناً على حاله... وهو يُساق سوق
 البهائم لبيع في أسواق الرقيق...
 ولم يكن أحد يعلم عن حقيقة معدنه الغالية شيئاً...
 فكم من الغلمان يُعرضون هكذا يومياً... ولا أحد يلتفت اليهم...
 لقد كانت خسة من البشرية كلها... أن سمحت ببيع الآدميين بأسعار
 نقل أحياناً عن أسعار البهائم!!!

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾^(١)؟!!

لم يكن الغلام بييرس بدعاً فيما جرى عليه من الرِّق...
 وإنما سبقه الى ذلك البلاء المبين... نبي كريم... ابن نبي كريم...
 ابن نبي كريم... ابن نبي كريم...
 يوسف... ابن يعقوب... ابن إسحاق... ابن إبراهيم... عليهم
 السلام...
 حين باعوه بثمان حقير... دراهم معدودة قليلة... وكانوا فيه من
 الزاهدين!!!
 حدث هذا لأعظم شخصية في عصرها... ليوسف الكريم العظيم...
 عليه السلام...

(١) سورة يوسف، آية ٢٠.

قال تعالى :

﴿وَشَرُّهُ بِثَمَنِ بَخْسٍ... دَرَاهِمَ مَعْدُودَةً... وَكَانُوا فِيهِ مِنَ
الزَّاهِدِينَ﴾!!!

يوسف؟!؟

ذلك الذي آتاه الله شطر الحُسْنِ!!!

يوسف؟!؟

الجوهر التمين... والنور المبين...

تبيعه سرذمة من الرجال... ليتخلصوا منه... وكانوا فيه من

الزاهدين!!!

لماذا هذا؟!؟

ألهوان به عند الله؟!؟

كلا... بل لتم القصة... ويصبح يوسف... ملكاً عظيماً...

ولكن لماذا يَمِرُّ وهو غلام على هذا التحقير لشأنه... فيبياع عبداً

مملوكاً؟!؟

ليذوق آلام الاستعباد!!!

ويحترق بنيران الظلم!!!

ويكتوي بنار الفراق!!!

فإذا ما حَكَمَ الملايين بعد ذلك... أحسَّ بآلام المضطهدين...

وشعر بالنار التي يحترق فيها المظلومون...

فعمل فوراً على ازالة الاضطهاد... والغاء الاستعباد... ورفع الظلم

عن العباد!!!

وأعظم الملوك ملكاً كان وهو صغير حقيراً... لا يُؤَبَّه له... ولا

يُلتفت اليه....

وليس أحقر في أعين الناس الأغبياء من عبد مملوك...

إذا فليُنزل من أعدّهم الله ليكونوا رحمة للناس... فليُنزل من
يؤهلهم ليكونوا ملوكاً... يعدلون...

فليُنزلوا إلى نار البلاء ليتطهروا...

وليدوقوا ما يذوق المظلوم... والمسترق... والمستضعف...

فإذا ما حُكِّموا في الناس... حكموا فيهم عدلاً ورحمةً وغوثاً!!!

ومن حيث أن هذا الغلام... هذا العبد... هذا الرقيق... هذا
البيرس... سوف يكون ملكاً عظيماً فيما بعد... يبلغ ملكه أقصى
السودان جنوباً... وأقصى حلب وما وراءها شمالاً...

ويعبر الفرات شرقاً... ويظهر سواحل الشام من الصليبيين غرباً...
من حيث أن هذا الغلام... سوف يحمل رسالة استرداد مجد الإسلام
في العالم...

وسوف نجعله ملكاً ظاهراً منصوراً...

كي لا يظلم وهو ملك... يجب أن يذوق الرق غلاماً... لي عمل على تحرير
الناس...

فما أكثر المستعبدين في الشعوب... انهم ملايين كثيرة...

من يشعر بنار استعبادهم إلا من كان مثلهم يوماً ما؟!!

أرأيت؟!!

انها نواميس إلهية... لا تبديل لها ولا تحويل!!!

نواميس تسري في الخلق ولا يشعرون!!!

يوم باعوا يوسف... ما كانوا يشعرون شيئاً عن المكنون في ذلك

الغلام!!!

ويوم باعوا الغلام ببيرس... ما كان يشعر... أولئك الأغبياء أن

بين يديهم ملكاً عظيماً... هو أعظم ملوك زمانه!!!

وما يُضحك... أن الذي عُرض عليه بيبرس ليشتريه... لم يُعجبه
هذا الغلام المسمى بيبرس!!!
قالوا: « فاستحضرهما الملك المنصور محمد... صاحب حماة...
يشتريهما... فلم يُعجبه أحد منها »!!!
انظر... إنه مشهد يثير الضحك!!!
أمير حماة... لم يعجبه أحد هذين الغلامين... بيبرس أو صاحبه
الذي يباع معه!!!
إنه جهول لا يعلم من الغيب شيئاً!!!
ولو يعلم هذا المحجوب أنه أمام الملك الظاهر بيبرس... الذي
سوف يكون تحت سلطانه عشرات من أمثال هذا الأمير صاحب
حماة... لو يعلم لسارع الى شرائه... بل لأعطى فيه جميع ما يملك ثمناً
له!!!
ولكنَّ الله غَيَّبَ هذا عن أولئك الأغبياء... ليلبغ الكتاب أجله...
ويُكشف الغطاء في الوقت المعلوم!!!
﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ...
﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا... ﴾^(١)!!!
نعم... إن تغييب المقدور عن العيون فيه حكمة جليلة... فلو علم
فرعون أنه يلتقط من سوف يكون هلاكه على يديه... لقتله فوراً!!!
والعكس صحيح... لو علم من عُرض عليه بيبرس شيئاً...
وأعرض عن شرائه... لو علم أنه أمام الملك بيبرس... لعامله معاملة
ابناء الملوك...
والمطلوب أن ينشأ هذا الطفل مظلوماً شقيماً مستعبداً... ليدوق نار
الظلم وشقاء الاستعباد... ليعمل اذا حَكَمَ على رفع الظلم ورفع
الاستعباد!!!

(١) سورة الفصص، آية ٨.

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ ﴾^(١)؟!!

وكما ألفت المقادير... يوسف الى مَنْ اشتراه من مصر... لينحقق له مُلك مصر!!!

كذلك فذفت المقادير... ببيرس الى من اشتراه من مصر... ليتحقق له مُلك مصر!!!

لماذا هذا التشابه العجيب!؟

اذا عَلِمَ السبب بطل العَجَب!!!

السبب أن نواميس الله... أو سُنَنَ الله... لا نتبدل ولا تتحول...

فكما مرَّ يوسف عليه السلام على الأحداث التي انتهت به أن اشتراه العزيز في مصر... لنهياً له الظروف التي يترع فيها على حُكم مصر...

كذلك ببيرس الذي أعده الله ليكون ملكاً على مصر... ويقوم بدور اعزاز الدين... ونشر العدل... وتحطيم الصليبيين... وابداء التتار... يتحتم ان يُهيا له من يشريه من مصر... ليدخل مصر... حيث تنتهي به الأحداث أن يكون ملكاً على مصر!!!

كيف كان هذا!؟!!!

قالوا: « وكان أيدكين البندُقداري الصالحي... مملوك الملك الصالح نجم الدين ايوب... صاحب مصر... قد غضب عليه الصالح المذكور...

« وكان قد توجه أيدكين المذكور الى جهة حماة...

« فأرسل الملك الصالح مَنْ يقبض عليه...

« واعتقله بقلعة حماة...

« فتركه المنصور... صاحب حماة... في جامع قلعة حماة...

« واتفق ذلك عند حضور ببيرس صحبة التاجر...

(١) سورة يوسف، آية ٢١.

« فلَمَّا قَلَبَهُ المنصور صاحب حماة فلم يَشْتَرِهِ ...
« أرسل أيد كين البُنْدَقْدَار وهو معتقل ...
« فاشتراه ليخدمه ...
« وبقي عنده ...» !!!
تأمل الترتيب العجيب !!!
كيف اشترى البُنْدَقْدَار هذا الغلام ليخدمه اثناء اعتقاله !!!
ولذلك كان يُقال بيبرس البُنْدَقْدَارِي ...
ولكن بيبرس لم يصل الى مصر بعد ... فكيف وصل اليها !!؟
« ثم أفرج الملك الصالح عن أيد كين البُنْدَقْدَار ..
« فسار من حماة ... وصحبته بيبرس ...
« وبقي مع استاذة المذكور مدة ...
« ثم أخذه الملك الصالح نجم الدين أيوب من أيد كين المذكور ...
« فانتسب الملك الظاهر إلى الملك الصالح دون أستاذه ... وكان
يُخطبُ له، ويُنقش على الدنانير والدراهم ... بيبرس الصالحي ...» !!!
وهكذا تم التدبير لينتقل بيبرس مع البندقدار الى مصر ...
ثم تم التدبير لينتقل الى الملك الصالح ايوب ملك مصر ...
وتمهد الطريق بذلك لبيبرس ... ليصبح من ممالك المَلِك ...
ويتسلل بعد ذلك الى المَلِك والسلطان !!!
هذا عن بيبرس ... فماذا عن نبيّ الله ... يوسف عليه السلام؟!
تجد الأحداث تنتهي به الى مصر ... ثم الى بيت العزيز ... أحد
وزراء مصر ...
﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ
يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ...
﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ...

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ...﴾

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ...﴾

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

وتأمل هنا الارتباط بين قول الذي اشتراه من مصر وبين التمكين ليوسف في الأرض...

كأنه يراد أن يقال: إنما أدخلناه الى مصر... ثم الى بيت هذا العزيز في مصر... ليكون ذلك مدخلاً ليوسف الى الملك... ملك مصر... والتمكين من حكم مصر!!!

وهكذا... المقادير في قصة يوسف... تمضي وتتشابه مع المقادير في قصة ببيرس!!!

لأن المراد من القصتين واحد...

أن تحكم مصر شخصية عبقرية قادرة على انقاذ الشعب من آلامه... ومجاعاته... ومفاسده!!!

وربَّ قائل يقول: كيف تعقد مقارنة بين نبي كريم... ومليك سلطان... وشأن بين النبوة وبين الملك؟!

فأقول: إنها ليست مقارنة... وإنما هي لاستنباط العبرة... وادراك الحكمة... من تدبير المقادير...

مسرح الأحداث... في القصتين... كان مصر...

وبداية الأحداث في القصتين... كان عبداً مملوكاً...

كان يوسف عليه السلام حين جاء الى مصر... عبداً مملوكاً...

وكان ببيرس حين جاء الى مصر عبداً مملوكاً...

وانتقل يوسف عليه السلام فجأة الى بيت عزيز مصر...

وانتقل ببيرس فجأة الى الملك الصالح نجم الدين أيوب...

(١) سورة يوسف، آية ٢١.

ومضت الأحداث بيوسف حتى صار رئيس الوزراء الحاكم بأمره في
البلاد المصرية... يتبوا من الأرض حيث يشاء...
ومضت الأحداث ببيرس حتى صار ملكاً على مصر والشام... يتبوا
من الأرض حيث يشاء...
وكان المراد من يوسف عليه السلام أن يكون بطل الانقاذ للشعب
المصري والمنطقة كلها... من المجاعة أولاً... ومن الفساد ثانياً...
لقد كانت البلاد المصرية مقبلة على مجاعة لمدة سبع سنين... فلا بد
من اغاثة الناس بشخصية لها القدرة على الحكم والسياسة والتدبير...
فكانت هي يوسف عليه السلام...
وكانت البلاد المصرية بلغت الغاية من الفساد الخُلقي والانهيار...
فلا بُدَّ من شخصية انقاذ... فكانت هي يوسف عليه السلام...
﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ *
﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ
بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١).

وكان المراد من ببيرس أن يكون رجل انقاذ الشعب المصري
أولاً... والشعوب الاسلامية ثانياً... من الفساد... والهوان...
المحذق بهم من التتار شرقاً... والصليبيين غرباً... فكانت شخصية
ببيرس هي هذا المنقذ!!!
فنفخ ببيرس في أهل مصر وأهل الشام... من روح الفروسية...
وقادهم فمزق بهم التتار في معركة إثر معركة...
وأذلَّ بهم الإمارات الصليبية في ساحل الشام... وهو ينتزعها واحدة
بعد أخرى ويردها الى بلاد الإسلام!!!

(١) سورة يوسف، الآيتان ٥٥ و٥٦.

وانتفض بيبرس في مصر... يقضي على الفساد... ويحطّم رءوس
المجرمين!!!

ماذا كانت الثمرة؟!!

نَعِمَتْ مصر... بأعدل فترة شهدها المصريون في تاريخهم كله...

أَنْ حَكَمَهُمْ نبي عظيم... هو يوسف العظيم... عليه السلام...

فحكّمهم بالعدْل... ولا أحد أعدل من الأنبياء...

وحكّمهم بالرحمة... ولا أرحم بالناس من الأنبياء!!!

ثم ماذا كانت ثمرة بيبرس؟!!

نَعِمَتْ مصر... ومعها الشام... والسودان... ومناطق من آسيا

الصغرى فيما وراء حلب... نعموا جميعاً بحُكم عادل كالسيف...

ينصر المظلوم... ويدقّ رءوس الظالمين...

وانطلقوا تحت راية بيبرس... يجندلون التتار... ويستولون على

قلاع الفرنج وحصونهم... بعد أن كانوا يظنون قبل معركة عين

جالوت أن التتار لا يُقَهَرُونَ!!!

المملوك... الذي خضعت له... المملوك؟!!

مدحوا بيبرس فقالوا:

كَمْ للفرنج وللتتار ببابه رُسُلٌ مُنَاهَا العفو والإعفاء

وقالوا في مدحه أيضاً:

ولا تذكرن ملكاً وبيبرسُ مالِكًا وكل ملك في يده غُلام

فهل لهذه الأوصاف حقيقة... أم هو خيال شعراء؟!!

الحقّ أن بيبرس كان كذلك فعلاً...

كان مملوكًا في بداية أمره... وما زال يصعد حتى صار ملكًا... تخضع له

المملوك...

وإنما نال ما نال... بمضاء عزمينه... وسمو همته!!!
 ولو أنَّ أحدًا تولَّى مكان بيبرس... ربما تضعضع أمام الأحداث الداهمة
 التي نواجهه شرقًا وغربًا...
 لقد صعد بيبرس الى العرش... فور اغياله السلطان الملك المظفر قُطز...
 على إثر انصار قُطز الساحق على النار في معركة عين جالوت...
 فهناك ثار للتتار... ضد المسلمين... وما كان هولاءكو ليلزم الصمت بعد
 أن لحقه عارٌ عالميٌّ بهزيمته في عين جالوت...
 فبعد أن كان التتار حديث الرعب في العالم كله... وأنهم لا يُقهرُونَ...
 اصبحوا حديث التندر والشماتة... وأنهم هُزموا شر هزيمة في عين
 جالوت...
 كان من الحتم أن يُعدَّ هولاءكو للتأر... من جيوش مصر والشام التي
 أدلَّت جيشه في عين جالوت ولم نُبق منه أحدًا!!!
 هناك إذا ثار مرير ينتظر بيبرس في جبهة التتار...
 وهناك الامارات الصليبية المنتشرة في ساحل الشام... وهي عبارة عن
 رءوس جسور للقوات الضخمة الرابضة في الممالك الأوروبية... فإذا مسَّها
 بيبرس... فإنما يمس شرًا مستطيرًا... أوّله في اوروبا وآخره في سواحل
 الشام!!!
 هذا هو الجو العالمي العام الذي واجهه السلطان بيبرس حين تولَّى الحُكم
 واعلى العرش!!!
 فإذا كان منه ١٩
 هل وَهَنَ وخنع... وقنَع... أن يجلس على عرشه يتتأب طويلاً... ويتطلع
 الى الغواني الجميلات يرقصن بين يدي السلطان ١٩.
 كلا... بل فزع الى سيفه... وأفزَع التتار غربًا... والصليبيين شرقًا...
 فريقًا يقتل... ويأسر فريقًا!!!

وكم من ملك من ملوك الحصون والقلاع الصليبية بساحل الشام... استسلم
له... وسلم قلعته وحصنه وهو ذليل!!!
وكم من أمير من أمراء التنار... قتل في معارك بيرس... أو وقع أسيراً
صاغراً ذليلاً!!!
فإذا قال الشعراء:

كم للفرنج وللتنار ببابه رُسلٌ منهاها العفو والإعفاء
كان قولهم ليس بعيداً عن الحقيقة...
بل كان بيرس أحياناً كثيرة... أكبر من تصوير الشعراء!!!

سرّ تفجّر عبقرية بيرس!؟

كان بيرس عبقرياً بفطرته... أي خلق عبقرياً...
فهو موهوب عبقرية...
هذه قضية متفقٌ عليها...
ولكن ليس كل عبقرى تتاح له الفرصة لظهار عبقريته...
فما هو سرّ تفجّر عبقرية بيرس!؟
الجواب: سرّ تفجّر عبقرية بيرس... أنه كان عبداً مملوكاً!!!
ولكن ما العلاقة بين كونه عبداً مملوكاً... وبين تفجير عبقريته!؟
العلاقة عميقة سحيقة وطيدة!!!
كونه كان مملوكاً... معناه أنه وصل الى أعماق الحضارة
الاجتماعية...
انسان ظلّمه المجتمع أبشع الظلم... فجعله عبداً ومملوكاً... وأرسله
ليباع... فلم يجدوا أحداً يشتريه...
هذه الوقائع المرّة ترسبت في أعماق بيرس...

فأصبح شخصًا ليس عنده ما يحرص عليه ...
فلا والد ولا والدة... ولا إخوة ولا أخوات ...
لا يعرف أين أصوله... ولا أين البيت الذي يأوي إليه ...
وانما هو سلعة عند نخّاس... الى حين بيعه إن وُجد الشاري!!!
وهذه المرارة اذا ترسبت في نفس ممتازة المعدن... عبقرية
الفطرة...
فجرت منها براكين الثورة على الظلم... وزلازل الغضب على
الظالمين...
تجد ذلك واضحًا في شخصية بيبرس... حين انقضّ على الأمير
آرتوا في معركة المنصورة...
فجندله ومزّق آلاف الفرسان الذين كانوا معه...
ووقف في الساحة... أسدًا يزار ويتحدى مئات الفرسان الفرنسيين
وحده!!!
وما كان بيبرس هكذا إلا لأنه يريد أن ينتقم من أي ظالم في أي
صورة كان...
فلما وجد هؤلاء الغزاة الفرنسيين الذين جاءوا بقيادة لويس التاسع
لغزو مصر... والقضاء على مركز المقاومة للصليبيين... أي على
مصر...
أحسّ بفطرته أنّ هذا ظلم فاحش من هؤلاء الأنجاس الذين جاءوا
يدنسون أرض وطنه العزيز...
فهاج هياج الأسد الضاري... وتفجرت منه عبقرية الشجاعة...
وعبقرية الغضب للحق... وعبقرية الرغبة الحارقة لضرب الظلم في أي
صورة ما كان مظهره!!!
إنّ العقدة... عقدة المملوكية التي فرضوها عليه صغيرًا...

تستيقظ منه نارا تَلْظِي اذا هاجها هائج من ظلمٍ أو تبجح!!!
وتفجرت منه ينابيع عبقريته... كأوضح ما تكون تفجيراً... في
معركة عين جالوت...
لماذا؟... لأن معركة عين جالوت معناها باختصار... أن أعنى وأظلم
قوة على ظهر الأرض... قوة التتار التي لا تُقهر... جاءت لتقضي على
البقية الباقية من البلاد أمامها وهي البلاد المصرية...
ها هنا جيوش جبّارة هَدّارة... فتحت العالم... وقتلت الملايين...
وأحرقت مئات البلاد... وأسقطت الخلافة في بغداد... وقتلت
الخليفة... وجميع أهل الحُكم... وقتلت مئات الآلاف من سكانها...
قوات كاسحة ماسحة... لا تعرف الا القتل وإلا التخريب...
تمضي في غزوها تدمر كل شيء...
فما معنى هذا بالنسبة الى بيبرس؟!
معناه أنه أمام أقوى قوَى الشرّ والجبروت والظلم والطغيان...
وها هم أولاء قد احتشدوا في ألوف بقيادة كتبغاأوين القائد
الجبّار... وذراع هولاء الطويلة...
هنالك دَوَى في أعماق بيبرس صوت يناديه:
أي بيبرس... لقد دُفَّت الظلم... حين اختطفوك ثم باعوك...
وهؤلاء هم التتار... جاءوا ليدمروا مصر... التي لم يبق غيرها من
البلاد لم تر كع...
فم بيبرس... وانتفض أيها العملاق... واضربهم بسيفك البتّار!!!
فالتمعت عينا بيبرس بهريق رهيب!!!
وقرر أن يشترك في الحرب ضد التتار!!!
فما أن فاتحه السلطان قُطز في نسيان الماضي... وأن يعاهده عهد
الأبطال لمحاربة التتار...

حتى وافق بيبرس لفوره... ونحى جانباً التارات التي بينه وبين
قُطز...

وأشار على قُطز أن يعلن الحرب فوراً على التار...
وأن يكون مظهر ذلك الاعلان... أن تُقتل رُسُل التار... ويُطاف
بها في شوارع القاهرة!!!
وعلى الفور تحرك قُطز الى الشام... والتحم مع التار في عين
جالوت...

وكان القائد العام هو بيبرس الأسد الضاري...
وانقض بيبرس وفيه قوة ألف فارس أو تزيد...
يقتل ويقتل ويقتل!!!
إنه بيبرس... الذي ذاق الظلم...
وإن عبقريته قد فجرها ظلم التار... واجرام التار... والمحطات
التار!!!

وبعد انتهاء المعركة بهزيمة التار... قاد بيبرس عملية ابادة القوات
التي فرّت من التار في الحياء الشام... وقضى عليها قضاء تاماً!!!
وأخرى تفجّرت فيها عبقرية بيبرس... النابعة من عقدة
المملوكية... وهوانها وإذلالها ومرارتها...
إنها الفعلة التي تُؤخذ عليه في التاريخ!!!
ألا وهي اغتياله للسلطان قُطز حين كان السلطان عائداً منتصراً من
عين جالوت...

لماذا فعل بيبرس هذه الفعلة... التي تعتبر النقطة السوداء في
تاريخه؟!

فعلها لأنه يرفض الظلم في أي صورةٍ من صورهِ... ولو كان الظالم
هو قُطز... القائد العظيم... قاهر التار!!!

إنَّ ببيرس بعد أن قُتِلَ أقطاي زعيم المهاليك البحرية... وزعيمه...
تعرض للاضطهاد هو وزملاؤه من أمراء المهاليك البحرية...
فلما خافوا التنكيل بهم وإحاقهم بزعيمهم فرُّوا الى الشام...
وظلُّوا مشردين حتى هجوم التتار على الشام واستيلائهم عليه...
وكان ببيرس يعلم أنَّ قُطز اشترك في تلك المؤامرة... مؤامرة
الغدر بالأمير أقطاي... وقتله بالقلعة!!!
فلم ينسها لقُطز... وإنما نسيها الى حين محاربة التتار... أما وقد
انهزم التتار...
فقد رأى ببيرس أن قد آن الأوان لأن يدفع قُطز ثمن اشتراكه في
قتل أقطاي!!!
وتفجرت في أعماقه عبقرية التصدي للظلم في أي صورة ظهر ذلك
الظلم... ولو كان هذا الظالم هو قُطز نفسه!!!
وانقضَّ ببيرس... وغدر بقُطز... كما غدر قُطز بأقطاي!!!
ليس هذا دفاعاً عن فعلة ببيرس... فالغدر هو الغدر... ولا أحد
يُجيز الغدر...
ولكن تحليلاً للدوافع التي فجرت من ببيرس تلك الفعلة الشنعاء!!!

العبقرية تتفجّر إلى أقصاها بعد أن تسلطن؟!!

فلما تسلطن ببيرس... وصار اسمه السلطان الملك الظاهر ببيرس...
ووضعت مقاليد البلاد كلها من أقصى السودان... مروراً بمصر...
والشام... الى حلب وما وراءها من بلاد الروم... وضعت مقاليدها
بيده...

تفجّرت العبقرية منه الى أقصاها ...
بِحُكم الإمكانيات والمقدّرات والسلطات المطلقة التي كانت تحت
أمره ...

فرايته عبقرياً في معاركه كلها مع التتار ...
أنا يفرون منه ... وأنا يتساقطون قتلى أو أسارى تحت قدميه !!!
ورأيته عبقرياً ... ثائراً أشد الثورة وأعتها ... على ممالك الصليبيين
الباقية بساحل الشام ...
فلما أحسّوا بأسه ... منهم من استسلم ... ومنهم من قاوم ثم انهارت
قواه فسلم ...

وأعاد بيبرس كثيراً من حصون وقلاع الفرنج الى بلاد الإسلام ...
إنّ عقدة المملوكية ... عقدة ظلم المملوكية ... وتحقير المملوك ...
وإهانة آدمية العبد المملوك ...
هذه العقدة اذا صادفت شيئاً فيه ظلم ... هاجت وماجت ...
واندفعت تزلزل الظالمين زلزالاً لا يقومون بعده أبداً !!!

شخصية بيبرس؟!

قالوا :

« كان الملك الظاهر أسمر ...

« أزرق العينين ...

« جهوري الصوت ...

« عليه مهابة وجلالة ...

« وكان الى الطول أقرب . » !!!

هذه صفة الملك بيبرس ... وهي تدل على شخصية نفّاذة أخّاذة ... مؤهلة
للقيادة والسيادة ...

فإن من أهم صفات الشخصية القيادية... أن تكون ذات استعداد للبطولة والامتياز...

حتى يمكن لها السيطرة على مَنْ دونها من العاملين معها...
فكيف وبيرس هنا ليس قائداً وحسب... وإنما هو السلطان والملك والقائد الأعلى... والفانح والقاهر للتتار والصلبيين...
فهو في مركز الزعامة المطلقة التي تستلزم توفر أعلى الصفات القيادية...
فهل كانت هذه الصفات متوفرة في شخصية بيرس!؟
ولكن قبل أن نبحث عن توفر تلك الصفات في بيرس... ينبغي أن نعرف أولاً: ما هي الصفات الواجب توفرها في شخصية الزعيم القائد المحرر للشعوب!؟

او: ما هي الصفات التي يتحتم توفرها في بطل التحرير!؟
سجّل كتاب الله تلك الصفات في قوله:

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا... ﴾
﴿ قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ... ﴾

﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ... ﴾
﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ... ﴾
﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ... ﴾
﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾^(١)!!!

إنها القصة الخالدة الى يوم القيامة... الناس يعتقدون أن مقومات الشخصية تقاس بمدى ما تملك من أموال... والله سبحانه وتعالى يُقَوِّم الشخصية بناموس ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾^(٢).

(١) سورة البقرة، آية ٢٤٧.

(٢) سورة الحجرات، آية ١٣.

وسيطل هذا النباين قائمًا الى يوم القيامة ...
الله سبحانه ينظر الى ما في القلوب ... ولا ينظر الى الصور والأجسام ...
ودرجات الناس عنده تقاس حسب نسبة الصفات العليا ...
ولكن الناس يرفضون ... ويَقومون بعضهم بعضًا بنسبة ما يملكون من
أموال!!!

وهذا غباء شديد من الناس ... وانحطاط في التفكير ...
فَزَع بنو إسرائيل وقد ذاقوا الدل والهوان الى نبيِّ لهم ليختار لهم زعيمًا ...
ليختار لهم مَلِكًا ... يقودهم في حرب التحرير ضد أعدائهم ...
فأخبرهم نبيهم ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ ...
وطالوت هذا ... كان يعمل راعيًا للحمير في الجبال ... يسوقها الى حيث
ترعى في حشائشها ... أي كان حَمَارًا!!!

ففزع سادة بني إسرائيل ... وصاحوا: ﴿أَنْتَى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾!!؟!
إن شأؤول هذا لا علاقة بينه وبين المُلْك وشئونه ... فإن مهنته لا تؤهله
البتة لأن يكون مَلِكًا!!!

﴿أَنْتَى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾!!؟!
﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ!!﴾
﴿وَلَمْ يَأْتِ سَعَةَ مِنَ الْمَالِ﴾!!!
منطق في حُكْم العقول معقول ... ولكن في حُكْم الله غير مقبول!!!
إن مؤهلات الزعامة ... والمُلْك ... عندهم هي المال ... سعة من المال ...
ان يكون مليونيرًا على الأقل ...

ومنهم عشرات أولو ملايين فلماذا لم يختار هذا النبي لهم واحدًا منهم!!؟!
ماذا يقول نبيهم لهؤلاء الأغبياء المناكيد!؟
قطع عليهم خط الرجعة ... وألقمهم حَجَرًا:
﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾!!!

إن الله قد اختاره ليكون مَلِكًا عليكم... فلا سبيل الى تغيير الاختيار!!!
ثم نزلَ نبيهم الى عقولهم... وشرح لهم لماذا وقع الاختيار على طالوت...
أو شاول... ولم يقع على أحد أغنياهم!!؟

﴿وزادَهُ بَسْطَةَ فِي الْعِلْمِ...﴾

﴿وَالْجِسْمِ...﴾!!!

هاتان هما الصفتان اللتان يتحتم توافرها في الشخصية التي يقع عليها
الاختيار لقيادة شعب ما... في حرب التحرير... ضد اعدائه!!!

بَسْطَةَ فِي الْعِلْمِ!!؟

أَيُّ عِلْمٍ يُرَادُ هُنَا!!؟

عِلْمٌ سياسة الشعوب المهضومة المغلوبة على أمرها... وكيف تخلصها من
الهوان الذي يتغلغل في تركيبها... وكيف يَسْتَنْهَضُ هِمَّتَهَا... ويبعث الأمل
في نفوسها...

علم لا يُؤخذ من مدرسة ولا معهد ولا جامعة...

لأنه عبقرية منفردة... يهبها الله لمن شاء من عباده... للقيام بدور تخلص
الشعوب من الاستعباد...

عبقرية موهوبة... وكانت متوفرة في هذا الراعي الفقير... الذي يتبع

الحمير في الوديان والجبال!!!

كانت هذه العبقرية مكنونة في طالوت هذا رغم حقارة مهنته!!!

ثم ماذا!!؟

ثم لا بد من توافر صفة أخرى... هي القوة البدنية... اللياقة البدنية...
ليكون قادرًا على القتال والجهاد والنضال... ومصارعة الأبطال...

هاتان هما الصفتان اللازمتان... المتوفرتان في طالوت...

عبقرية تجعله شَفَافًا حَسَّاسًا... يستطلع الأحداث من بعيد... ويدرك

أعماق الأمور...

وقوة في الجسم تؤهله للصراع والنضال والالتحام!!!

فهل كانت هاتان الصفتان منوفرتين في بيرس ١٩؟

نعم... ثمَّ نعم!!!

أما بَسْطَةُ في العِلْم... اي عبقرية قيادة الشعوب... وحشدها في معارك خارقة لاستخلاص حقوقها من أعدائها...

فقد كانت هذه الصفة أبرز صفات بيرس على الاطلاق!!!

كان بيرس رجل دولة على أوسع ما يكون رجل الدولة... من مكرٍ ودهاءٍ وكَرٍّ وفَرٍّ... وإقدامٍ وإحجامٍ... ولينٍ وتصلبٍ... وهجومٍ وتراجعٍ... ومخادعةٍ ومراوغةٍ...

حتى تستم أمامه الفرصة التي تحقق النصر الساحق على عدوه... فإذا آنس مواتاة الفرصة... وتَبَّ وثبة الأسد الضاري... فالتهم فريسته التهاماً!!!

وكان اعداؤه يعرفون منه ذلك... وأنه اذا هاجم كان معنى هذا أنه تأكد لديه النصر... فكانوا يسارعون الى الاستسلام قبل نزول القَدَر المحتوم!!!

كان بيرس زاده الله بَسْطَةُ في العِلْم...

ليس علم الفقه والحديث والتفسير... أو الكيمياء والجبر والهندسة... كلا فهذه كلها علوم تافهة يمكن تحصيلها بالمدارس والتحصيل...

إنما عِلْمٌ وراء ذلك الأفق التافه...

عِلْمٌ يختص الله به من يشاء من عباده... الذين عندهم استعداد لحمل تبعاته وتكاليفه...

عِلْمٌ قيادة الشعوب الى أفق أعلى... الى حياة الحرية والتحرر...

علم سياسة الشعوب الى ما يُحييها ويبعثها من موتها... الى القتال... قتال الذين نهبوا أوطانها... وسرقوا شرفها... وأسروا رجالها... واسترقوا نساءها...

عِلْمَ حرب التحرير ... وحرب التنوير ...
عِلْمَ تحويل العبيد الى سادة ...
والمقهورين الى قاهرين ...
والمظلومين الى منتقمين من ظالمهم !!!
إنَّه أشرف عِلْم... وأعزَّ عِلْم... وأندر عِلْم...
إنه عبقرية قيادة الشعوب الى الآفاق العليا ...
وقد كان هذا متحققًا من شخصية بيبرس أمَّ التحقق !!!
وأما بَسْطَةَ في الجسم ... فقد كانت واضحة أمَّ الوضوح في شخصية
بيبرس ...
فقد كان بطلًا بكل صفات البطولة !!!
ورجلًا بكل صفات الرجولة !!!
فإنَّ الذي تصدَّى لآلاف الفرسان الفرنسيين في معركة المنصورة ... ثم
احتزَّ عنق آرتوا قائدهم ... وانقلب يُوْزُّ أعناقهم أزا ...
إنَّ مَنْ يفعل هذا من الحتم أن يكون ذا بسطة في الجسم ...
أن يكون أقوى من هؤلاء جميعًا ... وقد كان الأمير آرتوا أشجع
فرسانهم ... ومع هذا احتزَّ بيبرس عنقه القبيح !!!
وإنَّ الذي كان فارس الساعة في معركة عين جالوت ...
كلما ضعفت ثغرة من صفوف المسلمين ... سارع اليها ومعه صفوة
الفرسان ليستنهض عزميتها ...
إنَّ من كان هذا شأنه في كل معركة خاضها ... لا بد أن يكون
قويًا قوة خارقة ... لينتزع النصر من أنياب الأسد !!!
كان بيبرس أسدًا ضارياً دائماً في كل معركة !!!
وهكذا ... زاده الله بَسْطَةَ في العِلْمِ والجِسْمِ ...
ومن هنا كان اختياره ليؤدي دور البطولة في ملحمة تحرير
الشعوب !!!

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾؟!
لماذا اختاره ليكون مَلِكًا؟!
الجواب: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ...﴾!!!
فالامداد على قدر الاستعداد...
﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ...﴾!!!

شخصية ببيرس في نظر الإسلام؟!!

السؤال هو:

هل السلطان ببيرس يعتبر شخصية اسلامية؟!
هل يعتبر حاكمًا مسلمًا؟!
هل كان يطبق تعاليم الاسلام؟!
هل هو نموذج للحاكم المسلم؟!
وهذه كلها أسئلة متقاربة متداخلة يمكن الجواب عليها مرة واحدة فنقول:
ثبت عندنا اثناء التفلغل في تفاصيل حياة ببيرس... أنه حاكم اسلامي...
يُطبَّق أحكام الاسلام... في الداخل والخارج... ويحتكم الى كتاب الله وسُنَّة
رسول الله (ﷺ)... ما استطاع الى ذلك سبيلًا...
وأن ببيرس كان ابن عصره... وابن زمانه...
حيث لم يكن ممكنًا لحاكم يحكم أمة من المسلمين أن يستمر في الحكم إلا
إذا كان منتسبًا الى الدين من قريب أو من بعيد...
بل كان الملوك في عصر ببيرس... يتسابقون الى الانتساب الى الدين حتى
في أسمائهم...
فهذا ركن الدين... وهذا حسام الدين... وهذا فخر الدين... وهذا

صلاح الدين ... وهذا سيف الدين ...
الأسماء كلها منتسبة الى الدين ... لأن العصر كان عصر صراعات
دينية ... بين المعسكر الصليبي من جهة ... والمعسكر الاسلامي من جهة
أخرى ...
فلكي يستحوذ حاكم ما على مشاعر شعب ما ... لا بد له من الظهور
بمظهر حامي الدين ... والمدافع عن المقدسات ... والمستخلص لبلاد
المسلمين ... من أيدي الفرنج الكافرين ...
ونفس المفاهيم كانت هي السائدة عند الفرنج ...
البابا ينفخ في صدور الأوربيين ليخرجوا لقتال الكفرة المسلمين ... أعداء
الدين ... ولتخليص بيت المقدس من الأنجاس المسلمين !!!
وكان ملوك الفرنج كذلك يتسابقون في الانتساب الى الدين ... في
أسمائهم ... وأزيائهم ... حتى زينة خيولهم كانت تتخذ الصلبان أساساً في
زخرفها !!!
العصر اذاً عصر الدين ... والصراع صراع الدين ... والتسابق كان من
أجل اعزاز الدين ... والقضاء على أعداء الدين !!!
وجاء بيبرس في قلب الصراع الصليبي ... فهو حلقة من حلقات
السلسلة ...
وشهد معركة صليبية كبرى ... على رأسها لويس التاسع ملك
فرنسا ... شهدها وأبدع فيها ابداعاً عجيباً !!!
وما كان بيبرس يمثل هذه البطولة فيها الا لما اشتعل في أعماقه من
الثورة لنصر دينه الإسلام !!!
وحين دعاه السلطان قُطز ليتعاون معه في حرب التتار ...
مدَّ يديه اليه ... وعاهده عهد الرجال ... ليقاتلن معه التتار ...
انتصاراً للإسلام !!!

وزأر ببيرس فيها ... وكان زئيره يزلزل قلوب التتار ... فتساقطوا
كما يتساقط الفراش في النار!!!
فلما تسلطن ببيرس تَلَقَّبَ برُكن الدين ببيرس ... لبنتسب الى
الدين!!!
وعمل على احياء الخلافة التي قضى عليها هولاء كو حين دمَّرها ودمَّر
بغداد ...
فكان هذا عملاً يدل على مدى تغفل العقيدة الدينية في تركيب
بيرس ...
وأقيم الخليفة المستنصر بالله ... بالقاهرة ...
وبايعه الملك الظاهر والناس بالخلافة ...

بيرس يبائع الخليفة على كتاب الله!؟

إلا أن أدلّ الدلائل على تغفل العقيدة الاسلامية في شخصية ببيرس
هو ما هو آت:

- ١ - « وبايعه السلطان على:
- ٢ - « كتاب الله ...
- ٣ - « وسُنَّة رسوله عليه السلام ...
- ٤ - « والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ...
- ٥ - « والجهاد في سبيل الله ...
- ٦ - « وأخذ أموال الله بحقها ... وصرفها في مستحقها»!!!

ولو أنك أردت أن تُركِّز الاسلام كله في كلمات معدودات ...
تكون دستوراً لكل حاكم يحكم المسلمين ...

لكانت هي هذه الكلمات التي بايع بيبرس... الخليفة المستنصر بالله
عليها!!!

وماذا بقي من أمهات الاسلام بعد أولئك الست؟!
ولو أنك تابعت حياة بيبرس كلها خلال سنوات حكمه لوجدتها
تدور في هذه الكلمات ما استطاع!!!
كما قُلتُ لك كان العصر عصر الحروب الصليبية... ثم أضيف اليها
الحروب التترية...

وكان بيبرس ابن عصره!!!
دعائم ملكه تستند الى أساس ديني... الى العقيدة الإسلامية...
وكان بيبرس شديد الحماس لدينه... مستعداً في أي لحظة أن يبذل
حياته... وحياة الملايين... دفاعاً عن الاسلام!!!
وهذه هي نقطة الإشعال في شخصيته الجميلة!!!
فهو ليس طبيباً أجوف... زعيماً تافهاً... يريد الانتفاخ
بالصراخ... وإنما هو عبد من عباد الله... ابتلاه الله أن يتسلطن على
العباد...

فهو مستول عنهم أمام الله...
ومستول عنهم أمام نفسه...
وهذا المفهوم يعطيه قوة دافقة في شخصيته...
فاذا تصرف تصرف من منطلق كريم... يرقب فيه ربه ويتقيه!!!

مشاهد تبرهن على صدق ببيرس في عقيدته؟!!

ها هي رسالة تهديد... من أبغا ملك المغول... بعد هولاءكو...
الى الظاهر ببيرس:

« أنت مملوك بعث بسيواس... »

« فكيف يصلح لك أن تخالف ملوك الأرض؟! »

« واعلم أنك لو صعدت الى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت

مني... فاعمل لنفسك على مصالحة السلطان أبغا...!!! »

وها هو جواب الملك الظاهر ببيرس على تلك الرسالة الوقحة:

« اعلموا أي من ورائه بالمطالبة لا أزال... »

« حتى انتزع منه جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة

وسائر أقطار الأرض...!!! »

هذا هو جواب ببيرس... وواضح فيه أن تفكيره تفكير

اسلامي... إنه يخطط ليستعيد جميع البلاد التي نهبها هولاءكو من بلاد

المسلمين!!! »

واليك رسالة أخرى تبرهن الى أي مدى كانت العقيدة الاسلامية هي

أساس تحركات الظاهر ببيرس؟!!

أغار الملك الظاهر ببيرس على ضواحي طرابلس... فأرسل اليه

صاحبها يقول:

« ما مراد السلطان في هذه الأرض؟! »

فكان جواب السلطان عن الرسالة السابقة الى أمير طرابلس:

« جئت لأرعى زروعكم... وأخرب بلادكم... ثم أعود إلى حصاركم

في العام الآتي...!!! »

إنه يتعزز بدينه... ويغلظ القول لهؤلاء الفرنجة الذين جاءوا ونهبوا

بلادًا اسلامية... ويريدون أن يبقوا فيها... ولكن هيهات هيهات إنَّ
من ورائهم بيبرس!!!
إلا أنَّ المشهد الذي هو البرهان الأعظم على أن بيبرس كان
يتصرف دائمًا على أساس من عقيدته الاسلامية... هو هذا المشهد:
« في السنة الثانية والسبعين بعد الستائة...
« خرج السلطان من القاهرة وتوجه الى الشام... بسبب تواتر
الأخبار بجرعة أبغا... ملك التتار...
« ثم تواترت عليه الأخبار في أثناء الطريق بقوة حركته...
« فكتب باستدعاء العساكر من الديار المصرية...
« ورسم بأن جميع مَنْ في مملكته... ممن له فرس... يركب
للغزاة...»!!!
بيبرس هنا... حين علم أن ملك التتار قادم في حشد هائل لغزو
بلاد الاسلام...
أصدر أمرًا باستدعاء الجيش المصري الى الشام...
وأصدر مرسومًا بتعبئة الجميع... جميع الشعب المصري والشامي...
يخرج الى القتال فوراً...
الجيش كله في مصر والشام!!!
والشعب كله في مصر والشام!!!
وعلى رأس الجميع... وقبل الجميع... الأسد الضاري بيبرس!!!
هذا المشهد الرهيب العظيم... برهان ساطع قاطع على أن بنيان
بيبرس كانت لبناته شرائع الاسلام!!!
إنَّ بيبرس هنا يُنْفَذُ حُكْمَ الإسلام المتفق عليه... اذا وطئت أقدام
الغزاة أرض الاسلام... وجب القتال على كل رجل وكل امرأة!!!
ومشهد آخر... فيه برهان آخر... على مدى اشعاع العقيدة

الاسلامية في قلب الملك بيبرس؟! .
في السنة الخامسة والسبعين بعد الستائة ...
« لما قوي خبر هجوم التتار على البلاد الشامية واشتد عزمهم على ذلك ...
خرج السلطان من الديار المصرية يوم الخميس العشرين من رمضان من هذه السنة ... ومعه العساكر والجنود!!!
وسار معهم ... فدخل دمشق!!!
ثم سار ومعه العساكر حتى دخل حلب ...
وسار السلطان ... ولما وصل الى النهر الأزرق ...
تحرك توقو وتداون ومن معها من عسكر التتار الذين انتقاهم أبغا واختارهم ...
وقاتلت التتار مع المسلمين قتالاً شديداً ...
فأنزل الله نصره على المسلمين ... وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ... وقتل من المسلمين أيضاً جماعة»!!!
لقد كان السلطان هنا على رأس الجيش كما هي عادته ... وفي قلب المعركة ... يقاتل قتالاً شديداً ...
إنه هنا يُمثل صفات القائد المسلم ... أن يكون هو أول من يلقي العدو!!!
ومشهد آخر أشد إظهاراً لحقيقة بيبرس الاسلامية ...
« في السنة الثالثة والستين بعد الستائة ...
« ومن حوادثها :
« انه قطع أيدي جماعة من نواب الولاية ... والمقدمين ...
والحقراء ... وأصحاب الرباع بالقاهرة ...
« وسببه أنه نزل القاهرة بالليل متنكراً ليرى أحوال الناس ...

« فرأى بعض المقدمين... وقد أمسك امرأة وعراها سراويلها
بيده... ولم يجسر أحد أن ينكر عليه. »!!!

هذا مشهد واضح فيه روح الاسلام... إن هذا المجرم الذي يحاول
ان يكشف عورة المرأة ولا أحد ينكر عليه... هؤلاء جميعاً أمر
السلطان بقطع أيديهم... لأنهم لصوص أعراض... أو مستترون على
اللصوصية القذرة!!!

ولو ذهبنا نتبع تصرفات بيبرس الدالة على أن مفاهيمه مفاهيم حاكم
مسلم... يحكم شعباً مسلماً... للزمنا أن نستعرض حياته سلطاناً
كلها... وهذا أمر يطول... وإنما قدمنا مشاهد معدودة للبرهنة على
النظرية... نظرية أن السلطان بيبرس كان شخصية اسلامية... بكل
معاني الاسلام الشاملة المتكاملة!!!

فلا فصل عند بيبرس بين الدين والدولة... كما يتنادى صعاليك
الفكر... من الحاكمين والمحكومين في هذا العصر المضطرب!!!
وإنما الاسلام عند بيبرس... هو كل شيء... دنيا ودين...
هو نظام كامل شامل... لم يدع شيئاً من أمور الآخرة أو أمور
الدنيا... الا نظمها ابداع نظام...

وأنَّ الأمة السعيدة هي تلك التي أخذت به في أمورها كلها...
والأمة الملعونة الشقية هي تلك التي أعرضت عنه... أو أخذت
بشيء يوافق هواها وتركت أشياء!!!

كان السلطان بيبرس يفهم أحسن الفهم ما هو الاسلام؟... وكيف
تطبيق الاسلام؟!... وكيف تكون السياسة الخارجية حسب
الاسلام؟!... وكيف يكون الحُكم في الداخل حسب الاسلام!؟

مفخرة عصر بيبرس كان العزّ بن عبد السلام؟!!

وكيف لا يفهم بيبرس الاسلام الفهم الصحيح ... وكان عصره
عصر العلم وأساطين العلماء؟!!

كيف ... وفي عصره عاش سلطان العلماء ... العزّ بن عبد
السلام ... وتوفاه الله في أثناء حُكمه؟!!

أتظن أن ملكاً يُعظّم حرمة عالم فدّ جليل كالعزّ بن عبد السلام ...
وغيره من علماء المذاهب الأربعة ... وينشئ لها المعاهد ... ويوقف لها
الأوقاف ...

ويحفظ للعلماء حرمتهم ... وينزل على حُكمهم ... حفظاً لحرمة
الاسلام ... واجلالاً لأحكام الله ...

أتظن أن مثل هذا السلطان الجليل لا يفهم الاسلام الفهم الصحيح؟!!

ومن ذا الذي يفهم الاسلام إن لم يفهمه الملك الظاهر بيبرس؟!!

من قهر التتار ... اعزازاً لدين الله؟!!

من أذلّ الصليبيين ... وانتزع حصونهم وقلاعهم وطاردهم وأجلاهم
عن ساحل الشام ... ارضاء لله؟!!

من أمرَ بإراقة الخمر في جميع أنحاء المملكة ... وتوعد بإعدام
المتجر فيها؟!!

من أمر أن يكون لكل مذهب من المذاهب الأربعة قاض يحكم
بأحكام مذهبه تخفيفاً عن الناس؟!!

من قطع أيدي الولاة ومن يجروء على ذلك غير بيبرس؟!!

من فعل هذا كله ... كان حتماً أن يكون حاكماً مسلماً ... يفهم
الاسلام فهماً صحيحاً ... ويطبقه تطبيقاً مستقيماً!!!

ما كان بيبرس ليعطل شيئاً من أحكام الإسلام بدعوى يدعيها

مناقف كذآب جهول يزعم أن الاسلام لا يواكب مدنية اليوم!!!
وإنما كان بـيرس شعله مضيئة تتوهج بالمفاهيم الإسلامية الرائعة
الجميلة!!!
يجد في الإسلام جميع ما يحتاج إليه الحاكم في إدارة شئون بلاده دوليًا
وداخليًا...
فلاسلام دين ودولة... قرآن وقوة!!!
وكان بـيرس هو الصورة العملية البهيجة للاسلام حين يُطبَّق تطبيقًا
كاملاً في دولة تؤسس على عناصره المقدسة!!!

مشهد خالد من العزّ بن عبد السلام...
ثم موقف رائع من بـيرس!؟

نحن الآن أمام مشهد تظهر فيه رائعتان بديعتان...
رائعة من العزّ بن عبد السلام...
ورائعة من السلطان بـيرس...
قالوا:

«ومن اتصل بهم الشيخ... السلطان الظاهر بـيرس... ملك
مصر...»

«وكان بـيرس يهاب الشيخ... ويجله ويخشاه... ويستشيريه في
أموره...»

«ولم يبايع خليفة من الخليفين اللذين بايعهما من بني العباس... قبل
أن يبايعه الشيخ عزّ الدين...»

« ومن مواقفه الرائعة مع بيبرس أنه حينما أراد أن يأخذ البيعة لنفسه بالسلطنة ...

« جمع الناس من الأمراء والقضاة والعلية ...
« وكادت البيعة تنعقد له ... لولا أن امتنع الشيخ عزّ الدين عن مبايعته ...

« لأنه لم يثبت لديه عتق بيبرس وحريته!!!
« وقال له: « يا ركن الدين! ... أنا أعرفك مملوك البندقدار ..؟ ..
« فاستحضر بيبرس شهوداً شهدوا بخروجه من ملك البندقدار ...
وأنه صار حرّاً ...

« فبايعه الشيخ ...»!!!
اقول: ها هنا عظيمنتان خالدتان ...
عظيمة من سلطان العلماء ... أنه لا يخشى في الله لومة لائم ...
وعظيمة من السلطان بيبرس أنه يخضع للحق ... ولا يأنف من اتباعه!!!

بيبرس يقول يوم وفاة العزّ بن عبد السلام:
اليوم استقرّ أمري في المُلْك!؟!

« قيل: إن الشيخ لما توفي ... ومرت جنازته تحت القلعة ...
« وشاهد الملك الظاهر كثرة الخلق فيها ...
« قال لبعض خواصه:
« اليوم استقرّ أمري في المُلْك ...
« لأن هذا الشيخ ... لو كان يقول للناس: اخرجوا عليه ...

« لانتزع الملك مني... »!!!
اقول... إن ببيرس هنا يقرر حقيقة... أعماقها...
أنَّ العزّ بن عبد السلام له سلطان على الجماهير لا يقاوم!!!
لقد رُعب السلطان ببيرس... من عظمة سلطان العلماء... حيّاً
وميتاً...
كان يخشاه حيّاً... ويعمل له ألف حساب...
وها هو يتنفس الصعداء ويقول: اليوم استقر أمري في الملك!!!

لماذا كان السلاطين يهابون العلماء!؟

نعم... لماذا كانوا يهابون العلماء... والآن لا يقيم الحاكم وزناً
للعلماء!؟
ما الذي حدث... ففَير الأمور!؟
الجواب... هذه قضية خطيرة... لها أبعاد عميقة جداً!!!
كان السلاطين في عصر السلطان ببيرس... وغيرهم من
السلاطين... يهابون العلماء لأسباب...
أنَّ سلطان الدين كان أعظم على الشعوب...
فالمفتي باسم الدين له سلطان عظيم على الجماهير...
أما الآن فالجماهير لا تعطي الشعور الديني حَقّه من القداسة
والتعظيم...
فإذا أفتى العالم الآن... كان استقبال الناس لفتواه فاتراً... لأن
إحساسهم بالدين أصابه الفتور...
إنَّ الدولة كانت تُحكم بشريعة الإسلام في كل شيء...
...

فالحاكم يُنفذ رسمياً أحكام الإسلام... والشعب يمثل هذه الأحكام
بحكم عقيدته الدينية...
فإذا تحدّث عالم ذلك الزمان في أمر من الأمور... أصغت إليه
أذان الحاكم والمحكومين...
أمّا الآن فالدولة بعيدة عن أكثر شرائع الإسلام... والشعب بعيد
عن تلك الشرائع...
فإذا تحدّث العالم عن الإسلام... لا يلتفت إليه... لأنّ الأمر لا
تمسّ واقع حياتهم في نبيء!!!
كان العلماء... كثير من العلماء... في أيام السلاطين يخشون
الله... ويحتسبون جهادهم عند الله...
فلا سلطان للسلطان على العالم... لأنّ العالم لا يخشى أحداً إلا
الله...
ويرى السلطان لا حول له ولا قوة... لأنّ الأمر بيد الله وحده...
وأقاصيص العزّبن عبد السلام... ومواقفه مع السلاطين في هذا
السبيل مشهورة!!!
فكلّ زمان له ظروفه...
فليس علماء اليوم أقلّ علماً من علماء السلاطين في سالف الزمان...
ولكن أقلّ إخلاصاً لله... وأقلّ احتساباً لوجه الله!!!
فقد يوجد اليوم من هو أعلم... ولكن لا يتوفر فيه شرط
الإخلاص... الذي هو روح الإسلام...
وإن وُجد عنصر الإخلاص في عالم اليوم... جاءه الإحباط من أنه
غريب يتكلم عن أشياء لا تعني الحاكم ولا تعني المحكوم!!!
فإذا سمعت أنّ العزّبن عبد السلام... كان يزلزل عروش
السلاطين... فلا تعجب فإنّ الأمر ليس في إخلاص العزّ وحده...

ولكن لأن السلطان كان يحكم بالإسلام... والشعب كان يمثل للإسلام...

كلاهما يُعظَّم فتاوى العزّ تعظيماً للإسلام... لا لشخص العزّ بن عبد السلام!!!

أما الآن فالعلماء مساكين... لا حول لهم ولا قوة!!!
الحياة في وادٍ... وفتاواهم في وادٍ!!!
ويوم يعود الإسلام... فيتغلغل في واقع حياة الناس...
فتنتظم الدولة على الإسلام... كما كانت في عهد ببيرس...
وتكون الأخلاق السائدة في الشعب هي أخلاق الإسلام...
يومئذ يتحدث العالم فيجد آذاناً صاغية من الحاكم والمحكوم على السواء...

يومئذ إذا وُجد العالم المخلص... الذي يعمل لوجه الله...
وُجد السلطان الذي يهاب ذلك العالم...
وُوجد الشعب الذي يتبع توجيه ذلك العالم...
لماذا؟!

لأن الإسلام نَزَلَ الى واقع حياة الناس!!!
﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾
﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...﴾
﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ...﴾
﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١)!!!
فالمعجزة ليست في العزّ بن عبد السلام...
ولكن المعجزة في الإسلام!!!

(١) سورة النساء، آية ٦٥.

كان مَلِكًا جليلاً!؟

قالوا:

« كان شهماً ... شجاعاً ... سخياً ...

« عالي الهمّة ...

« بعيد الغور ...

« مقداماً ...

« جسوراً ...

« مُعْتَنياً بأمر السلطنة ...

« متحلياً بها ...

« له قصد صالح في نصره الإسلام وأهله ...

« وإقامة شعائر المَلِك ...» !!!

وقالوا:

« وكان مَلِكًا جليلاً ...

« شجاعاً ...

« مهيباً ...

« حسن السياسة ...

« كثير التحيّل ...

« وكان عسوقاً جبّاراً ...

« كثير المصادرات للرعية والدواوين خصوصاً لأهل دمشق ...

« وكان مُتنبّهاً ...

« شهماً ...

« لا يفتر ليلاً ولا نهاراً عن مناجدة الأعداء ... ونصرة الإسلام ...

« وكان مقتصدًا في ملبسه ومطعمه ...

« وكذلك جيشه... »!!!

☆ ☆ ☆

اقول ... لست أدري ماذا أقول بعد الذي قالوا؟!
وماذا يكون تكامل الشخصية إن لم يكن هو هذا التكامل الذي نراه
من شخصية بيبرس!!؟
ملك جليل ... وفارس جميل!!!
أوتي أسباب الملك ...
فيه - فيما أرى - كثير من شخصية ذي القرنين ...
كان ذو القرنين ملكاً عظيماً ... ذا شخصية مهيبة ... آتاه الله
أسباب كل شيء ... فاستعملها في فتح البلاد ... والعدل في العباد!!!
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا*
﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا*
﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾^(١)!!!
وإنَّ أعظم الناس ملكاً آتاه الله أسباب الملك ومكَّن له في الأرض ...
فاستعمل ما آتاه الله في تحقيق العدل بين الناس ...
وكان ذلك هو ذو القرنين!!!
وكان من نفس النوع الملك الظاهر بيبرس!!!
آتاه الله من كل شيء سَبَبًا ... فأتبع سَبَبًا ...
انطلق يستعمل أسباب الملك التي أوتيتها ...
في العدل بين الناس في داخل مملكته الممتدة مما وراء حلب شمالاً ...
الى اقصى السودان جنوباً ...
فكان عادلاً ... وحكيماً ... وأمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر ...

(١) سورة الكهف، آيات ٨٣ - ٨٥ .

وَمُطَبَّقًا لشرائع الإسلام... وشاعراً بآلام الفقراء... وضارباً على أيدي
الفتجار والطفافة!!!
كما كان يفعل ذو القرنين: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ
إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا *
﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ
أَمْرِنَا يُسْرًا﴾^(١)!!!

وقد كان كذلك بيبرس - فيما نرى -
كان ضارباً على أيدي المجرمين... مُكْرِمًا لِلأتقياء والصالحين!!!
ويؤمن بالله فوق ذلك!!!
وأماً في الخارج... فقد انطلق بيبرس... يَصُبُّ جميع ما آتاه الله من
الأسباب... في سبيل الله... واعلاء دين الله... والانتصار لدين الله!!!
كان فارساً... بل فارس الفوارس...
هو دائماً في الطليعة من صفوف جيشه!!!
يخرج من غزوة... ليدخل الى غزوة!!!
ويعود من قتال... ليستعد لقتال!!!
كم ألقى بنفسه الى الموت... فقال له الموت: ليس الآن!!!
كم دَوَّخَ التتار... وأذلَّهم... وبدد أحلامهم!!!
وكم هدم من الحصون... واستولى على القلاع... وارعب ملوك
الفرنج بالشام وغير الشام... فألقى فرنج الساحل اليه ما شاء!!!
وجاءوا اليه... وقبَّلوا الأرض بين يديه!!!
وفي الجنوب فتح السودان الى أقصاه المعلوم حتى ذلك الزمان!!!
وفي الشمال تجاوز حلب... واقتحم آسيا الصغرى... وفرض ما شاء
من شروط!!!

(١) سورة الكهف الآيتان ٨٧ - ٨٨ .

شخصية نبيلة جليلة ... جميلة؟!!

ثبت عندي ذلك ... اثناء تجوالي في تفاصيل حياته!!!
فرايته عبقريةً فذاً!!!
ورأيته ملكاً بكل مقتضيات الملك... من مهابة... وسلطة...
ويقظة... واحتيال... والأعيب السياسة!!!
ما كان بيبرس أبلة كأولئك الملوك البله... الذين يفقدون
عقولهم... أمام بهرج عروشهم!!!
ولكن كان عميق الفكرة... واسع الحيلة... يتحيل لخصومه...
فإن أبواً انقضَّ عليهم بالقوة فاستسلموا نادمين!!!
ورأيته مثلاً لنعمة الله... إذا أراد أن ينعم على عباده... فيمنَّ
عليهم بملك رحيم!!!
ثم رأيته مثلاً للملك المسلم... الذي يرى حياته هي الاسلام...
والاسلام هو الحياة!!!

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ...﴾

﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ...﴾

﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ...﴾

﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ...﴾

﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ...﴾

﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ...﴾

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١)!!!

(١) سورة آل عمران، آية ٢٦.

سلطنة...

السلطان الملك السَّعيد...

بعد وفاة والده...

الملك الظاهر...!؟

سلطنة السلطان الملك السعيد

ناصر الدين بركة خان!؟

استقر في السلطنة بعد وفاة والده الملك الظاهر ...

وكان استقراره في شهر ربيع الأول ...

سنة ست وسبعين وستائة ...

وذلك أن الأمير بدر الدين بَيْلَبَك الخزندار كما وصل بالعساكر الى

الديار المصرية ...

ألقى المقاتل إليه ...

ووقف بين يديه ...

واستمر على مناصحته وطاعته ... كما كان مع أبيه ...

وفي يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر صفر ... خطب في جميع

الجوامع بالديار المصرية للملك السعيد ...

موكب السلطان!؟

وفي منتصف ربيع الأول...
ركب السلطان الملك السعيد... بالمصائب على عادة أبيه...
وبين يديه الجيش بكماله... الشاميّ والمصريّ... حتى وصل إلى
الجبل الأحمر...
وفرح الناس به فرحًا شديدًا...
وعمره يومئذ تسع عشرة سنة!!!
وعليه أبته الملك... ورئاسة السلطنة...
واستقر الأمير بدر الدين بَيْلَبَك الخزندار في نيابة السلطنة... على
ما كان عليه مع والده!!!

تم

كان الفراغ من التأليف يوم الخميس ٣ ربيع الثاني ١٤١٠ - ٢ نوفمبر
١٩٨٩.

سبحانك اللهم وبحمدك...
أشهد أن لا إله إلا أنت...
أستغفرك وأتوب إليك.

فهرس

صفحة

٧	مقدمة
٩	أصل الممالك؟!
١٧	انتقال الحكم ... من الأيوبيين ... إلى الممالك؟!
٢٥	دولنا ... الممالك؟!
٣٥	دولة ... الممالك ... الجر كسية؟!
٤١	بيرس ... بطل ... معركة المنصورة؟!
٦٣	بيرس ... فارس واقعة ... مقتل تورانشاه؟!
٧١	وبيرس ... هو الذي أشار ... بقتل رسل هولاءكو؟!
	وبيرس ... هو البطل الأسطوري ... في معركة
٧٧	عين جالوت؟!
	وبيرس ... هو أول من ضرب ... السلطان قطنز ...
٨٣	بسيفه؟!
٨٩	السلطان ... الملك الظاهر ... ببيرس البندقداري؟!
٩٧	أنا مع من ... يملك الديار المصرية ... كائناً من كان؟!
١٠٣	هزيمة ... ساحقة ... للتتار؟!
	لعبة سياسية بارعة ... ببيرس يلغي الضرائب ...
١٠٧	التي فرضها قطنز؟!

- بيبرس... يقضي على التورة... ويصلب القائمين بها؟! ١١١
- السلطان... يباشر... سلطاته؟! ١١٥
- بيبرس... يفهم الخلافة العباسية... في مصر؟! ١٢٣
- الخليفة... يُقلد السلطان... في حفل مشهود؟! ١٢٩
- السلطان بيبرس... يتوجه الى الشام... ويحكم من دمشق؟! ١٣٩
- من أحداث... السنة الستين... بعد الستائة... المثيرة؟! ١٥١
- أهم أحداث... السنة الحادية والستين... بعد الستائة؟! ١٥٩
- أحداث... السنة الثانية والستين... بعد الستائة؟! ١٧٥
- البطل بيبرس... يبدأ تدمير التتار... والصليبيين...
- في وقت واحد؟! ١٨٩
- بيبرس... وعبقرية... الحُكم والسياسة؟! ٢٠١
- وفاة طاغية الزمان... هولاءكو... حفيد جنكيز خان؟! ٢٠٧
- البطل... السلطان الملك الظاهر... يواصل الفتوحات؟! ٢١٥
- رسالة السلطان... الملك الظاهر بيبرس... الى القاضي
- ابن خلكان... لما أخذ حصن صفد؟! ٢٢٩
- عامّ حافل... في حياة... السلطان؟! ٢٣٥
- السادسة والستين بعد الستائة... سنة الفتوحات الكبرى...
- والانتصارات العظمى؟! ٢٤٣
- الملك الظاهر المنتصر... يبعث رسائل النصر...
- الى الآفاق؟! ٢٥٩
- ملك التتار... يقول للسلطان بيبرس... أنت مملوك...
- فكيف يصلح لك أن تخالف... ملوك الأرض؟! ٢٧٣
- السلطان بيبرس... يجوس خلال... المملكة متنكراً؟! ٢٧٧
- أحداث... السنة الثامنة والستين... بعد الستائة؟! ٢٨٩

السلطان الفاتح ... يواصل فتوحاته ... في السنة التاسعة ...	
والستين بعد الستائة؟!	٣٩٩
في وقت واحد ... ببيرس يقاتل ... التتار والفرنج ...	
في السنة السبعين بعد الستائة؟!	٣١٧
البطل ببيرس ... يهزم التتار ... هزيمة ساحقة؟!	٣٢٥
في السنة الثانية والسبعين بعد الستائة ... الملك الظاهر ببيرس ...	
يأمر الجميع بالخروج ... الى القتال؟!	٣٣٣
ببيرس ... في معارك متواصلة ... في الداخل والخارج؟!	٣٣٩
التتار يهجمون ... في ثلاثين ألفاً ... فلماً سمعوا	
بقدم ببيرس ... استبقوا الفرار؟!	٣٤٧
آخر انتصارات البطل ... سحق التتار ... في أرض الروم ...	
بآسيا الصغرى؟!	٣٥٧
وفاة السلطان ببيرس ... في السابع والعشرين من المحرم ...	
سنة ست وسبعين وستائة؟!	٣٧٣
شخصية ... السلطان الملك الظاهر ... ببيرس؟!	٣٨٣
سلطنة ... السلطان الملك السعيد ... بعد وفاة والده ...	
الملك الظاهر؟!	٤٢٥
فهرس	٤٢٩

ماذا في هذا الكتاب ؟!

فيه حياة... الأسد الضاري!!!

السلطان الملك الظاهر... بيبرس!!!

البطل الذي انتزع النصر من أياب مائة وخمسين ألف فرنسي بقيادة

الملك لويس التاسع في معركة المنصورة!!!

البطل الذي قهر التتار... ودمر الصليبيين... في وقت واحد!!!

المملوك الذي صار ملكاً... فلماً تسلطن خضعت له الملوك!!!

مدحوه فقالوا:

يا من تُناق له التتار ر غنيمّة مثل الغنم!

لا زلت يا ملك الزمان ن لك الملوك من الخدم!

وقالوا:

كم للفرنج وللتتار يبابه رُئِلَ منها العفو والإعفاء!